

اهداءات ٢٠٠٠

د.رشيد سالم الناصورى

أستاذ التاريخ القديم

جامعة الإسكندرية

من الصعب ومحضيات

هيرزوون

تأليف أ. ج. ايغانز
ترجمة أمين شلامة
مراجعة كمال الملاخ

مقدمة المؤلف

صدرت ترجمة هيرودوت بقلم جورج رولينسون لأول مرة في سنة ١٨٥٨ ، وكانت تشمل أربعة مجلدات خشمة ، تتضمن علاوة على النصوص ، مقدمة في ١٢٠ صفحة ، وعددًا كبيرا من المراجع الإنسانية والمذكرات التي مع كونها بالغة القيمة للعلماء ، فإنها قليلة الأهمية للقارئ العادي .

في سنة ١٩١٠ ، كتب أ.هـ. بلاكتي أعمال هيرودوت ، من تلك الترجمة ، ونشرتها مكتبة أفريمان . وقد حذف منها جميع الموضوعات الإنسانية ، و اختصر المذكرات ، كما اختصر المقدمة في ٢٠ صفحة . ومع ذلك ، فقد ضمها مجلدان كبيران يحتوى كل منهما على أكثر من ٤٥٠ صفحة .

وفي الطبعة الحالية ، اختصرت المقدمة أيضًا ، كما اختزلت نصوص ترجمة رولينسون إلى حوالي نصفها الأصلي ، وحذفت جميع المراجع الإنسانية والتدليلات والتعليقيات ، ولم أحافظ بشيء من المذكرات إلا ما يتضمن أن يكون ذا متعة عامة .

ومن المشكوك فيه أن يكون ذلك الاقتناب القاسي قد عمل بطريقة ترضي جميع عشاق هيرودوت . بيد أنه في هذه الأيام ، عندما يرغب كثير من القراء في الحصول على معلومات في اللفات القديمة ، يجب اصدار طبعة لهيرودوت يرحب بها كثير من القراء الذين لا يجدون الوقت الكافي لقراءة النصوص الأصلية . وذوق الكاتب هو الأساس الذي اختصرت بمقتضاه هذه النصوص . ومع أن كثيرا من النصوص قد اقتضت إلا أن كلمة واحدة لم تتصف . وإذا كانت هناك صفحات كثيرة يؤلم تركها من يعروفون هيرودوت حق المعرفة ، فإننا نستطيع القول مطمئنين ، أن هذه الطبعة لا تحوي شيئاً مما لا يريدون حذفه .

تómör

يمكن تحديد العصر الذي عاش فيه هيروودوت ، والذى كتب فيه تاريخه ، الى حد ما من الدقة ، من مؤلفه . فمن ناحية، يبعو أنه تحدث الى شخص واحد على الأقل كان شاهد عيان لبعض الحوادث الهامة في الحرب الفارسية . ومن ناحية أخرى عاش هيروودوت بعد بدء حرب البيلاوبونيز ، وكان على المام بكثير من الاحداث التي وقعت في الجزء الاول منها . وعلى ذلك ، لا بد انه عاش في القرن الخامس قبل الميلاد . ولا بد انه كتب بعض أجزاء من تاريخه في زمن مبكر يصل الى سنة ٤٣٠ ق.م وبطبيعة الحال لا بد ان يكون قد ولد في اوائل ذلك القرن ، وأنه من الجيل التالي لجيل فاتحى سالاميسن .

من ذلك يمكننا ان نستنتج أن هيروودوت ولد في حوالي عام ٤٨٤ ق.م، أما مسقط رأسه فلا يحوطه أى شك ، سواء في المصور القديمة أو في الحديثة . انه من مدينة هاليكارناسوس ، وهي مستعمرة دورية في آسيا الصفرى .

يمكن الحكم على درجة ثقافة هيروودوت من مؤلفه . ولم تصلنا منها أية معلومات خاصة .

يبدو مما كتبه هيروودوت ، انه عب من المنهل الهوميرى حتى ارتوى . ويتضح انه تلميذ هومير ، من تصميم وخطبة مؤلفه ، ومن ترتيب ونظام أجزاءه ، ومن روح وطبيعة افكاره ، ومن عشرة آلاف مصطلح صغير وكلمة ، استعملها . ويظهر جليا انه كان ملما بالملحمتين الاغريقيتين العظيمتين القديمتين ، بنفس المام الرجل الانجليزى الحديث المثقف ، بشكسبير . ولم تكن معلوماته الواسعة هذه على حساب التفصحية بالقراءات الأخرى . فيمكننا ان نتساءل عما اذا كان هناك مؤلف هام واحد ، في جميع الأدب الاغريقي ، امكنته الحصول عليه ولم يتم به الماما مناسبا .

ان كان هناك شيء محقق عن حياة مؤلفنا هذا ، فهو انه عاش النصف الاول من حياته في آسيا الصفرى ، والنصف الآخر في بلاد الاغريق الكبرى .

ومن الواضح أن زيارته لمصر ، التي تتصل بها رحلاته الأخرى ما في ذلك شك ، كانت بعد ثورة ايناروس (سنة ٤٦ ق.م) إذ يقرر أنه رأى جماجم من قتلوا في معركة بابريمييس Papremis الكبرى ، التي تسلم بواسطتها ايناروس مقاليد الحكم . ومع ذلك ، فلا يمكن أن تكون بعدها بزمن طويل ، والا لما استقبل بذلك الترhab الذى سمح له بحرية دخول المعابد المصرية والاطلاع على سجلاتها . فهناك كل دليل تستطيع به أن تستخرج منه أن زيارته لمصر كانت في فترة السنتين السابعتين - ٤٦ - ٤٥ ق.م . بما فيها أول الفترة وآخرها والتي خلالها احتلت الجيوش الإثينية تلك المملكة ، حيث جعل معروفها المصريين يرحبون بكل إفريقي يزور بلادهم ، ويعاملونه بكل مودة على خلاف غيرتهم العادمة من الأجانب . وعلى هذا يكون قد زار مصر بين الرابعة والعشرين والتاسعة والعشرين من عمره .

يحتمل أن يكون هيرودوت قد ظل مقينا في هاليكارناسوس ، مع قيامه برحلات طويلة لجمع المعلومات التاريخية والجغرافية ، حتى قرب عام ٤٤٧ ق.م حيث صار في حوالي السابعة والثلاثين من عمره ، وقد وصل بمؤلفه إلى درجة معيينة من التمام ولو أنه كان أقل مما صار إليه أخرا . عندئذ انتقل إلى بلاد الإغريق نفسها ، واقام في أثينا . والظاهر أن هاليكارناسوس كانت قد طردت طفاتها قبيل ذلك وانضمت إلى الحلف الإثيني . ولذلك رحب بمؤلفنا الصغير من أجل خاطر بلده ، كما رحب به من أجل خاطره هو نفسه ، واذا كان لنا أن نتفق بافواه أيوسيبيوس ، فإن مجلس أثينا قرر ، في سنة ٤٤٦ ق.م . مكافأة لهيرودوت عن مؤلفه التاريخي الشظيم ، الذي قرأه علينا على أهل أثينا .

ليس من الصعب أن تستخرج السبب الذي دفع مؤلنا إلى مقادرة أثينا مع اعجاب أهلها به ، والإقامة في أحدى المستعمرات التابعة لها . فلم يكن يستطيع الحصول على حقوق المواطن في أثينا . وإن الإغريقي غير المولع بجمع الاموال أو المهتم بدراسة الفلسفة ، ليشق عليه إلا تكون له حقوق سياسية كي يشتراك فيما يكون الحياة اليومية ، ويشغل الفكر باستمرار فيما حوله . وقد قال أرسطو : «لا يكون الرجل رجلا إلا إذا كان مواطنًا». وهذا هو الشعور الذي كانت تحس به جميع الأمة الإفريقية . وفضلاً عن هذا ، كانت الحياة في أثينا شأنها شأنها شأن العواصم ، باهظة النفقات . وإن الثروة التي كانت تعتبر طائلة في هاليكارناسوس ، إذا لم تكن قد نفت في أثينا ، فإنها لا تقاد تمكן الإنسان من الحياة فيها . ويدل قبول هيرودوت مبلغاً من المال من الشعب الإثيني على أن موارد معيشته كانت قد انخفضت وقت ذاك . وبما تكون موارده قد نصبت من جراء نفقات رحلاته الطويلة ،

تأثرت بمنفاذ رحابته هاليكارناسوس . وعلى أية حال ، دفعته ثاروفه إلى الترحيب بالدعوة التي وجهتها آئيننا أنى المقامرين في جميع أنحاء بلاد الأغريق كي يحصل كل منهم على قطعة أرض بمعنهه فوق مستوى الاحتياج ، وينال فيها حقوق المواطن . وعلى ذلك انضم هيرودوت ، في سنة ٤٤٣ ق.م ، وكان قد جاوز الأربعين من عمره ، بناء على الشهادة الاجتماعية لقديامي الكتاب ، أنى فته المستعمرین الذين أرسلهم بيريكليس ، آئى إيطانيا ، وصار من أوائل مستوطني ثوديوم .

يبدو أن هيرودوت اكتب على مؤلفه في ثوريوم ، وكرس له وفته كلها .

وفي الوقت عينه ، لا نزاع في أنه كتب مؤلفا منفصلا عن تاريخ آشور ، الذي مال الاتجاه الحديث إلى انكار نسبته إليه . أما زمان ومكان موته فهو ضعان للجدل . فلا توجد آية علامه في مؤلف هيرودوت تدل على أنه عاش بعد سن الستين . وفضلا على هذا ، تشير بقية الأدلة إلى أنه توفي في ثوريوم وهو في حوالي الستين من العمر . وبذا يكون قد تجنب الوييلات التي مرت بوطنه الجديد أثناء الجزء الأخير من الحرب البيليوبونيزية ، ويكون قد تحاشى ألم رؤية الولاية التي كان من مواطنها ، وهي تنضم إلى صفوف أعداء بلده المحبوب آئينا .

لا جدال إطلاقا في منزلة هيرودوت ككاتب . وإن الذين يحيطون من مقدرته كمؤرخ ... ليتسيدون بجمال انسائه وأسلوبه ويعتبرونهما السبب الذي بهر النقاد وجعلهم يرفعون من قدرته على التاريخ ، وبالغون في دقة تاريخه . وقلما يوجد صوت ضد هذا الرأي بين علماء النشاد ، سواء أكانوا من القديامي ، أم من المحدثين الذين يتلقون جميعا على أن مؤلفنا مشالى في ترتيب تواريخه ، وجودة انسائه .

وحدة الموضوع أهم صروريات كل عمل أدبي ، سواء كان شعرا ، أو استناء موضوعيا ، أو ناريا ، أو فصصا . واز اختار هيرودوت موضوعاً لمؤلفه ، جزءاً خاصاً من تاريخ بلاد الأغريق ، وقصر جهوده على سرد الحوادث المتعلقة بموضوعه ، أما مباشرة أو عن طريق غير مباشر ، فقد حصل بذلك على وحدة عمل كافية لارضاء أقصى مطالب الفن . وهي في الحقيقة معادلة لصفات أربع ما انتجه الخيال . فبدلاً من أن يضطلع بالعمل المقد الصعب ، وهو كتابة تاريخ الجنس الهيليني أبان فترة بعينها ، جلس وفي ذهنه هدف (أولى) ، أن يسجل بالخلاص جميع حوادث حرب معينة ، لم يكن مالختاره موضوعه الأصلي هو النزاع بين جنسين ، ولا تلك الخصومة في أعنف صورها - ذلك النزاع بين الاغارقة والفرس .

بل كان قصده الحقيقي كتابة تاريخ حرب الفزو الفارسي للبلاد الأفريقي - ذلك النزاع الذي بدأ بحملة ماردونيروس الأولى ، وانتهى بهزيمة الأسطول العظيم والجيش الذي جمعه وقده كسيركسيس Xerxes ضد الأفريقي ، هزيمة متكررة . وقد كتب الجزء الأول من سرده للأمور الداخلية لحملة ماردونيروس في صورة مقدمة يمكننا أن نستخلص منها غرضين . كان الفرض الأساسي لهيروdot هو أن يروى قصة قيام ونمو وتقدم تلك الامبراطورية العظيمة التي كانت خصم بلاد الأفريقي في ذلك النزاع . أما غرضه الشانوي فهو بيان الظروف التي دعت إلى قيام العداوة وال الحرب بين هاتين الامتين . وكلما هذين الفرضين ذو علاقة وثيقة بالفرض الأصلي من ذلك التاريخ ، فأخذهما ضروري للحصول على معلومات دقيقة لتقدير عظمة تلك الحرب والامجاد التي يحظى بها من ينتصر فيها . والفرض الشانوي ضروري لأبداء الأسباب التي دعت إلى نشوب الحرب ، وليلقى ضوءاً هاماً على سير الفزو وسلوك الفزاة .

لو اقتصر هيروdot في كتابته على هذه العنوانين الثلاثة ، وهي : نمو الامبراطورية الفارسية ، والعداوة السابقة بين بلاد الأفريقي وفارس ، والسيء الحقيقى لتلك الحرب العظمى ، لكن تاريخه ضعيفاً هزيلًا يفتقر إلى الشفافية . ولكلّي يتحاشي هيروdot هذه النتائج ، تراه يتنهى كلّ فرصة تسنجله ، فينحرف عن السرد الأصلي ويضمّنه شيئاً من معلوماته الواسعة المتنوعة ، سواء كانت تاريخية أو جغرافية أو في علم الآثار . وهكذا وضع إمام مواطنه صورة عامة عن الدنيا وعن مختلف أجناسها ، وعن التاريخ السابق لتلك الشعوب ذات التاريخ ، وأضفى على مؤلفه عظمة واتساعاً وضعاً في مصاف تواريχ الدرجة الأولى . وقد اهتم في الوقت نفسه بتنويع صفحات مؤلفه ، فنشر بين قصصه الجدية قصصاً قصيرة وأوصافاً من نوع أخفّ صارت نديبات لطيفة للسرد الأصلي تضفي روحًا تخفف من ثقل النفمة العامة . ومن الخواص الراeature الواضحة في هيروdot ، والتي لا يخلوها جميع النقاد ، تنوع وجذالة مواد الحلقات التاريخية . لقد نجح هيروdot فيربط حلقاته بالموضوع الأصلي ، وذلك بدقته الفائقة ، وحكمه المظيم على الأحداث ، ومثابته الفذة على العمل . وبذل حافظ على سلامة الموضوع من التعقيد والتضارب ومقاطعة السرد العام .

أما عن وحدة الأسلوب في خطبة تاريخه فيمكننا أن نعتبر بروعة رسمه للشخصيات ، رسمًا ناجحاً قوى التأثير ، سواء كانت تلك الشخصيات شعوباً أم أفراداً . وإن تصويره للشعوب الأصليين ، الذين تناولهم سرده ، وهم : الفرس والاثنيون والاسبرطيون ، تصوير تسجيلى في غاية الابداع . فنراه يصور الشعب الفارسي للتاريخ ، شجاعاً نشيطاً متوفياً ، قادرًا على قول الحكم والأمثال

في مواضعها الحقة والردود المقنعة ، غير انه ، مع ذلك ، ضعيف عاطفى يطعن حكامه طاعة عميماء . فيوضح هذا هيرودوت فيصفحات مؤلفه بأسلوب تصويري دونه تصوير المصورين الفرنسيين شارل دان وموربيه ، اللذين صورا الفرس المحدثين في القرن الثامن عشر بعد الميلاد ، من نسل أولئك القدامى . وقد ميز هيرودوت هذا الشعب عن بقية الشعوب البربرية الأخرى ، فابان رقة اخلاقه ومرحه اللذين يقريانه من الجنس الهيليني . ولكنه ينافق الاغارقة في هجراته العاطفى وخضوعه في ذلة لاوامر حكامه المستبددين . كل هذا يتجلى بوضوح في ثانياً مؤلف هيرودوت ، بأسلوب يؤكد صحة المعلومات وينم عن الحقيقة الخالصة ، ويربط أولئك القوم بالمستشرقين الغربيين الاطوار ، وهم « الفرنسيون المقيمون في بلاد الشرق » ، الذين كانوا يعيشون في بلادهم وقتذاك . ولما كان الشعب الفارسي القديم نسيطا حيويا ذكيا المعيا رشيقا ولكن في غير كرامة ولا كبراء بل كان ذليلا متملقا ، فاما ان يكون طافية جبارا او يكون عبدا ذليلا ، فإنه ينافق امم الشرق الأخرى التي اما ان تتصف بالفظاظة والجسارة والغطرسة وحب الحرية ، كالاكراد والافغانيين ، او بالخمول والاستهتار تائهندوس . وأن استمرار تصوير الشخصيات المنقطع النظير هذا ، ليؤكد اخلاص وصدق مؤلفنا الذي يبدو حتى في القسم الظاهري من موسوعته التاريخية ، مقصرا على ذكر الحقائق الواقعية .

اما الاغارقة فيختلفون عن الفرس اختلافا صارخا في كثير من الوجوه ، نرى ذلك التناقض بوضوح في الخلق الافريقى الذى يميز الاجناس الدورية الاصل Doric ويتحدى اكم مظاهره بين الاسبرطيين . فتشمل الصورة التى رسماها هيرودوت على القوة والهارة وصور الاسبرطيين أمام أعيننا بعدد قليل من اللمسات المتقدمة وببعض الفصص المختارة والملاحظات الحادة ، بين الفينة والفينية ، بهذا يتصورهم أمانا ، كأفراد وشعب ، بطريقة تسجيلية ربما تتفوق فيها على اي كاتب آخر . فنلمس من خلال سرده افتزازهم ، بأنفسهم ، وروحهم المولعة بالاستقلال ، وخصوصهم النام لقوانيينهم عن رغبة خالصتها ، وشدة باسهم وقوتهم كجيشه محارب ، وحكمتهم البالفة . كل هذا في أسلوب تخلله بعض لمسات من الدعاية والمرح . وفي الوقت ذاته ، نراه لا يتنى عن ابداء الجانب الاسود من اخلاقهم فييدى بجانب انائتهم وتأخرهم وشدة حذتهم في السياسة الشعبية ، وخدائهم ومرائهم وتملقهم في بعض الاحيان ، وعدم قدرتهم على مقاومة السلطات المحتلة ، واستعدادهم لقبول الرشوة ، وقسواتهم وافتقارهم النام الى الرأفة سواء نحو الاصدقاء او الاعداء . يرسم لنا هيرودوت صورة كاملة لكل هذا ، ليست اخاذة في مظهرها باكثر مما هي رائعة في استمرارها ، وتتفوق على كل ما نعرفه من المصادر الأخرى لأنمه رجال الافريق .

يتجلّى مثل ذلك الاخلاص والقوة الوصفية في الصورة التي يقدمها لنا عن الآتنيين . فهم كالاسبرطيين يحبون الاستقلال والحرية ، بواسل ماهرون في القتال ، يتفانون في محبة وطنهم . ومنذ أن صارت لهم حكومة تتفق واحتياجاتهم ، أحبوها وتمسّكوا بها . كذلك يشبهون الاسبرطيين في القسوة وعدم الرحمة بخصومهم . ويختلفون عنهم في صراحة سياستهم الشعبية ونشاطهم وحدهم للعمل الى درجة النهور ، ونبات أخلاقهم ، وهو يميلون الى المباهاة أكثر من الكبراء . ونراهم كجنود يتصرفون بالاقدام أكثر من الشبات أما أخلاقهم فرفيعة وعالية . وهم أذكياء كرماء للضيوف يحبون الاناقة وحسن المظهر . ونراهم في بعض الظروف أكثر اعتدالاً وانكاراً للذات من أغلب الاغارقة ، ويمكونون ، الى حد معين روحًا كريمة من الهيلينية الكلية ، واذ أعجب هيرودوت بالخدمات التي قدمها الآتنيون للفرض المشتركة ابان الحرب العظمى ، فربما يكون قد بالغ في ادعائهم بهذه الصفة الاخيرة . فعلى الاقل ، سنجده ان اهتمامه الشخصي بهم قد فسر سلوكهم ابان النضال تبعاً لميله اليهم ، وتدل الظروف التي حدثت قبل الحرب وبعده ، على انه لم يكن لديهم اي شك في استدعاء الفرس لقائلة ايناء جلدتهم في الوقت الذي توافقوا فيه الربح من ذلك العمل . كما لا يجب ان ننسى ، في اي تقدير للخلق الآتني ، انهم ضربوا المثل في الاستعانت بالفرس ضد اعدائهم الهيلينيين . لا نزاع في ان الظروف كانت وقتذاك قاسية ، وأن عزمهم على عدم قبول المساعدة على حساب التضحية باستقلالهم كان خليقاً بروحهم العالية كامة . بيد انه لا تزال هناك حقيقة ان العدو المشترك قد عرف ، عن طريق دعوة آتينا ، مقدار ما كانت تأمل فيه من وراء ذلك النزاع الداخلي والفيرة المتبادلة بين الولايات الافريقية .

من الشخصيات الفردية التي أبدع مؤلفنا في تصويرها ، ملوك الفرس الاربعة الذين تناولتهم سرده ، والملوك الاسبرطيون كلبيومينيس ، وليونidas، وباؤسانيس ، ورجال السياسة والقادة الآتنيون : نيميستوكليس وأرستيديس ، والطغاة : بير ياندر وبولوكراتيس وبيزستراتوس وامايسيس ملك مصر ، وكروبيوسوس ملك ليديا .

ولم تتصور شتى الوان الخلق والذوق الشرقيين بأروع من الصورة التي قدمها لنا هيرودوت عن أربعة الملوك الاخاهيمينيين الاولى ، وهم : كوروس الزعيم الجبلى الساذج الشديد الباس البالغ النشاط ، والموهوب بالطموح البالغ والنبوغ الحربي العظيم ، الذي تغير عندما اتسعت مملكته انى ملك تبيب القلب وصدق يعتبر نفسه ابا لشعبه .. فكان حليماً مؤدبًا في معاملة رعاياه . وقمبيز الذي كان الصورة الاولى لطغاة الشرق ، ورث عن ابيه

القوة وكثيراً عن مواهبه، غير أن ظروف مولده وتربيته العسكرية أفسدته فصار قاسياً متهوراً عنيداً لا يكبح جماح نفسه، يثور أذا عورض، ولم يكن قاسياً فحسب، بل ومتوحاً أيضاً، وداريوس الذي كان مثال الأمير الشرقي، شجاعاً ذا عقل راجح وداهية، بارعاً في كل من فنون الحرب والسلم، نظم ووحد إمبراطوريته، كما عمل على توسيع رقعتها، وعلاوة على ذلك، كان رقيق الاحساس محباً لاصدقائه حليماً وكريماً في معاملاته لاعدائه المذحوبين ولم يلجاً قط إلى القسوة إلا في مراعاة النظام عندما يحتاج كيان امبراطوريته إلى قيادة، وكسيركسيس، الذي كان الصورة التالية للطاغية وأقل منه كان ضعيفاً طائشاً في عقلية الأطفال، كما كان أناانياً وفاسياً وجباراً ومتقلباً ومنحل الأخلاق ومتراضاً. تلعب به النساء وكذلك رجال الحاشية في سهولة، وعلاوة على ذلك كان يعتقد في الغرافات مفترأ بنفسه خالياً من الشهامة والنخوة الحقة، ولا يبدى كرم الخلق إلا في بعض المناسبات النادرة عندما لا يحدث ما يذكر صفو مشاعره.

علاوة على مهارة هيرودوت في تصوير الشخصيات، نراه قوي التأثير على العواطف وهي ميزة لا يدانيه فيها إلا قليل من الكتاب سواء أكانوا مؤرخين أم غير مؤرخين، ومن أمثلة ذلك قصة زوجة انتافيرنيس وهي تبكي وتقول باستمرار أمام باب الملك، وقصة بسامينيتوس وهو جالس في ضاحية عاصمة يشاهده بعيني رأسه ابنته تخدم كهدية، وأبنه يساق إلى الموت، ومع ذلك «لا يبدى أية علامات على الحزن»، وإنما ينغرط في البكاء عندما يمر به صديق قديم ويسأله صدقة. هاتان القصتان مثلان لروعته في ذلك المصمار، في محيط كتاب واحد، يصعب أن نجد لهما مثيلاً في جميع مؤلفات أي مؤرخ آخر. بيد أن أعظم نموذج لجدارته في هذا المجال، موجود في قصة كرويسوس، ومما استرعى انتباها تماماً أن المجلد الخاص باشهر الروايات، يتضمن حكايات جميلة القصص علاوة على قصة موت آتيس.

وكذلك يشمل تقريرتنا قصة حياة كرويسوس، منذ زيارة سولون إلى منظر وضع الجثة فوق كومة الحريق، التي هي من أروع قصص آثار العواطف، إذ تتجلى فيها قوة تراجيدية من الطراز الأول.

ربما كان أعظم مظهر جذاب في جميع مؤلف هيرودوت هو التنوع العجيب. فلا يسترسل قط في السرد مدة طويلة دون أن يضمه مادة استطرادية طريقة من غير أن يطيل فيها اطاله تبعث على الملل. وكمؤرخ، نراه ييز غيره في تنوع معلوماته، إذ يحاول أن يضع العالم المعروف كلها تقريباً في نطاق قصته، ويلقى نظرة على الماضي في بدء قصة كل دولة وكل امبراطورية. فيوضع أسماء

هيوننا منظراً شاملًا للتاريخ ، به محل الجميع الماضي والحاضر ، والقريب والبعيد ، والممالك المتحضرة والقبائل البربرية ، والملوك والكهنة والحكماء والشرين والقواد ورجال البساط والإفراد العاديين ... محل يصور ببراعة ما لهم وما عليهم ، ويقدمهم لنا في مهارة جذابة . كذلك ، من أعظم ما يلفت الانظار تنوع أسلوبه الذي استخدمه بنجاح متساوٍ في كل من الوصف والقصص . ونلاحظ فيه بوضوح علاجه الفذ للموضوعات العاطفية ، وانهماكه بين آونة وأخرى في الموضوعات التراجيدية دون أن يكون عاطفياً كما في حالة أسطورة جوجيس ، وقصة موت كوروس ، وانتخار كليومينيس وفوق كل هذا ، المشهد الرائع الذي يصور آخر لحظات في حياة بريكسابسيس حيث بلغ هيرودوت الذروة في هذه ، وفي روايته قصة موت آدراستوس .

أعظم ميزة مؤلفنا ، آخر ما يستحق انتباها خاصاً ، بساطته وسهولته . فسرده وأفكاره ينسابان في سلاسة طوال مؤلفه . فنراه يكثر من استعمال الكلمات الشائعة والمألوفة ، ويتھاشي المحسنات اللغوية والصور البلاغية ، الامر الذي استرعى انتباه جميع النقاد ونان اعجابهم . ليس الانشاء فنا عند هيرودوت ، بل هو تدفق تلقائي للالفاظ والعبارات . فلا يضفي رشاقة مصطنعة على أسلوبه ، ولا يتكلف العبارات البلاغية بل يكتب كما يقوده موضوعه . يرتفع معه ، ولا يعلو فوق مستوى الحشمة الطبيعية او يصل الى حد الالفاظ الزخرفية ، ليست كلماته بسيطة وعادية فحسب ، بل وتركيب جمله في غاية البساطة والبعد عن التعقيد . وكما لاحظ أرسطو ، لا يكتب هيرودوت بعبارات متکلفة ، وإنما بجمل مستمرة التدفق لا تنتهي الا عندما يتم المعنی . ولهذا كان أسلوبه واضحًا ورقائقاً ، ليس بمتكلف ولا جاف ، ولا يترك مجالاً للشك في معانيه .

لا تتضمن بساطة أسلوب هيرودوت من عدم التكليف والعبارات المألوفة الى الفظاظة والخشونة . فالأسلوب كامل حر متدقق ، ونامس فيه اختلافاً واضحـاً عن الاسلوب الجاف والعبارات المقتضبة للمؤرخين السابقين . ولو أقينا نظرة على بعض قطع من مؤلفات كتاب الاشريك المبكرين ، التي وصلت اليـنا ، لدهشنا لجفاف أسلوبها وبداءيتها وعدم حيويتها ، حتى ولو كان ذلك من أعمال أشهر المؤرخين السابقين أو المعاصرين لمؤلفنا وإذا قارنا أسلوب هيرودوت بأسوأـك الكتاب العاديين في عصره ، حصلنا على وسيلة دقيقة لتقدير الفترة التي تفصل بين هيرودوت كتابـه ، وبين من سبقـه . وهذه فترة عظيمة بدرجة تجعل الاسلوب الانثـاني الذي كتبـه هيرودوت ، نوعـاً من الفن الجديد وتجعلـه جديـراً حقـاً باللقب الذي لم ينـازعـه فيه أحد وهو « أبو التاريخ » .



فِرْوَان

الفصل الاول

أسطورة أيو وجوجيس

هذه هي أبحاث هيرودوت الهاليكارناسي ، التي نشرها أولاً في المحافظة على أعمال الغابرين من الضياع ، وكثيراً فقد عظام الاعمال التي قام بها الأغارقة والبرابرة حقها من التقدير والاجلال . وعلى العموم، لكن يسجل أسباب عدائهم ومنازعاتهم .

تبعاً لأكثر رجال الفرس معرفة بالتاريخ ، كان الفينيقيون هم الذين بدعوا بتلك المعاكسات ، فما أن هاجر أولئك القوم إلى بلاد البحر المتوسط ، واستقروا في المناطق التي يقيمون فيها الآن ، حتى شرعوا ، كما يقال ، في القيام برحلات طويلة ، يحملون سفنهم من منتجات مصر وأشمور . فنزلوا في عدة أماكن على ساحل ذلك البحر ، ومنها أرجوس التي كانت ضمن الولايات المنضمة وقتذاك تحت الاسم العام « هيلاسى » . عرض الفينيقيون بضائعهم على سكان أرجوس ، وظلوا يتاجرون هناك مدة خمسة أو ستة أيام . وفي نهاية تلك المدة ، وكانت قد باعوا كل ما معهم تقريباً حضر إلى الشاطئ عدد من السيدات ، من بينهن أيو (ابنة الملك ايناخوس الذي كان ، كما قيل ؛ متفقاً مع الأغارقة في رواية نفس هذه القصة . وقف النساء عند مؤخر السفينة منهملات في مشترياتهن ، فإذا بالفينيقيين يصرخون جميراً صرخة واحدة ، وينقضون عليهن . فهـ رب أغلب السيدات ، بيد أن المعتدين خطفوا كثيراً منها وحملوهـن إلى عرض البحر . وكانت أيو نفسها ضمن المقبوض عليهم . حمل الفينيقيون النساء في سفينتهم وأقلعوا بهن إلى مصر . وهـكذا كان ذهاب أيو إلى مصر تبعاً للقصة الفارسية التي تختلف اختلافاً بيناً عن رواية الفينيقيين . وهـكذا بدأت أيضاً سلسلة من أعمال العنف ، تبعاً لروايتهم .

بعد ذلك بزمن ما ، نزل بعض الأغارقة في مدينة تورى على الساحل

الفيينيقى ، ولا يعرف الرواة أسماء هؤلاء الاغريق . ولكن ربما كانوا من الكريتيين . فخطفوا يوروبي ، ابنة ملكها . وبهذا انتقموا لخطف آيو ابنة ملکهم . بيد أن الاغارقة ، كما يقولون ، قاموا بعمل عدواني ثان . اذ استقلوا سفينه حربية وأبحروا الى آيا احدي مدن كوالاخيس الواقعه على نهر فاسيس وبعد أن أنجزوا المهمه التي حضرها من أجلها خطفوا ميديا ابنة ملك تلك البلاد . فأرسل الملك رسولا الى بلاد الاغريق يطلب التعييض عن تلك الاساءه واعادة الطفلة . بيد أن الاغريق ردوا عليه بأنهم لم يتسلموه تعويضا عن اساءه خطف آيو الارجوسية ولذلك فهم لن يدفعوا تعويضا عن اساءتهم هذه .

في الجيل التالي لذلك الجيل ، تبعا لنفس الرواية ، كان الكسندر بن بريام يحتفظ بهذه الامور في ذهنه ، وعزم على أن يخطف لنفسه زوجة من بلاد الاغريق . ومما قوى عزمه هذا أن الاغريق لم يكفروا عن أعمالهم العدوانية وعلى ذلك لا يحق له أن يكفر عن أي عمل عدواني يقوم به . وهكذا خطف هيلين وعند ذلك قرر الاغارقة قبل الاتجاه الى أية اجراءات أن يوفدوا من قبلهم رسلا يطلبون اعادة الاميرة وترضية عن تلك الاهانة فقبل طلبهم بالاشارة الى العداون السابق بخطف ميديا ، وسئلوا بأية ترضية أو اعادة من خطفوهن .

بناء على هذا ، كانت الاضرار الحادثة كلها مجرد اعتداءات عاديه بين الطرفين غير أن الفرس يعتبرون الاغارقة مخطئين أبلغ الخطأ فيما تلا ذلك من اعتداءات ، اذ أرسلوا جيشا الى آسيا قبل أن يحدث أي اعتداء على أوربا . أما خطف النساء فهو كما يقولون من أعمال الاولغار ، بينما أعمال الاستفزاز التي حدثت ، من أعمال المجانين . فلا يهتم الحكماء بمسائل النساء تلك ، اذ لا يمكن أن تخطف سيدة بغية رضاها . فعندما خطف الاغارقة نساء الاسيوبيين ، لم يهتم هؤلاء بمثل هذه السفاسفات ؛ الا أن الاغريق بسبب قتلة لاكياديونيه ، جمعوا جيشا في عدد الحصى وغزوا به آسيا ، وخرموا مملكة بريام . ومنذ ذلك الحين ينظر الاسيويون الى الاغارقة كاعدائهم اللدودين . يعتبر الفرس آسيا بشتى قبائلها البربرية التي تقيم فيها ، مواطنين واخوانا لهم ، ولكنهم ينظرون الى أوربا والامة الاغريقية كبلاد وأمم متفصلة عنهم .

هذه هي رواية الفرس لتلك الاعتداءات ، ويذكرون أن الهجوم على طروادة كان سببه تلك العداوة القديمة . ومع ذلك فان الاغارقة يرون

قصة أخرى عن خطف ايتو مختلف عن رواية الفرسن لها . فهم ينكرون استخدامهم لأى عنف فى نقلها الى مصر ، ويقولون ان الفتاة نفسها كانت علاقه غرامية مع ربان السفينه عند ما كانت راسية فى أرجوس ولما وجدت نفسها حبلى صحبت الفينيقين بمحمد ارادتها عند مغادرتهم لبلدها خشيه العار عندما يفتضح أمرها أمام والديها وخوفا من زجرهما ايها . وسواء أكانت هذه الرواية الاخيرة صحيحة أم كانت على خلاف ذلك ، فلن أتعرض لمناقشتها .

انتقل الحكم الملكى فى ليديا من أسرة هرقل الى أسرة كرويسوس بالكيفية الآتية : كان يحكم سارديس ملك اسمه كانداوليس ، أطلق عليه الاغريق اسم مورسيلوس .

أحب كانداوليس زوجته حباً جماً ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؟ بل كان يتوهם أنها أجمل امرأة في العالم كلها . فكان لهذا الوهم نتائج غريبة . إذ كان ضمن حرسه الخاص رجل اسمه جوجيس بن داسكولوس ، حباء الملك بعطفه وثقته فكان يسند إليه جميع عظائم أموره ، ويفضي إليه بجمال زوجته الفذ . سارت الأمور على هذا المنوال ردحاً من الزمن . وأخيراً شاعت الاقدار أن ينتهي الموضوع علىأسوء حال . فقال الملك لتابعه ، ذات يوم : « أرى أنك لا تقدر ما أخبرتك به عن فتنة زوجتي وجمالها الرائع ، ياجوجيس . وبما أن أذني المرء أقل تصديقاً من عينيه عادة فتتعال ، ودبر لنفسك طريقة تشاهد بها زوجتي عارية » . عندئذ صاح جوجيس قائلاً : « ما هذا الهراء الذي أفلت من بين شفتيك يا سيدي ؟ أتريدني أن أنظر إلى سيدتي وهي عارية ؟ ترو فيما تقول ، يا سيدي . إن المرأة تتخل عن حياتها وهي بملابسها . لقد ميز آباءنا في سالف العصور الصواب من الخطأ في وضوح تام . ومن الحكمة أن تخضع لتعاليمهم . ثم إن هناك مثلاً قديماً يقول : « ولينظر كل أمرء إلى ما يملكه اتنى أعتبر زوجتك أجمل مخلوقة على ظهر البسيطة . ولكننى أرجوك يا سيدي ، ألا تأمرنى بمثل هذا العمل الشرير » .

هكذا حاول جوجيس التنجي عما اقترحه عليه الملك . وكان يرتجف خشية أن يناله أذى من جراء هذا الرفض . بيد أن الملك رد عليه بقوله : « تشجع يا صديقى ! لا تظن اتنى أقصد اختبارك بهذا . كما لا تخف أى أذى على يد سيدتك . تأكد اتنى سأدبّر الأمر بحيث لا تعرف أنك رأيتها . سأجعلك تقف وراء باب حجرة نومنا المفتوح . فعندما أدخل لأنام ، ستحتبعنى زوجتى . وبجانب الباب كرسى تضع عليه ملابسها وهي تخلعها

قطعة . سيمكنك أن تراها بهذه الطريقة . وعندما تسير من جانب الكرسي إلى الفراش ، وقد أدارت ظهرها نحوه ، تسلل خارجا ، واجتهد ألا ترك وأنت تمر من الباب » .

لم يسع جوجيس أن يرفض . فأبدى استعداده لطاعة سيداه . وعندما حان موعد النوم ، صحب كانداولييس حارسه إلى مخدعه . وما هي إلا لحظة حتى دخلت الملكة وبعد برهة اتجهت نحو السرير . وما إن أدارت ظهرها حتى تسلل جوجيس خارجا . ألا أن الملكة رغب هذا ، لمحته وهو يخرج من الحجرة وتكهنت في الحال بما حدث . ومع ذلك فلم تصرخ كما يقتضي منها حياؤها ، ولم تظهر أنها لاحظت شيئا . ولكنها اعتزرت في قراره نفسها أن تنتقم من ذلك الزوج الذي كشف عورتها أمام رجل غريب . اذ كان من العار بكل العار عند الميديين وحتى عند البرابرة عادة أن يرى الإنسان عاريا حتى ولو كان رجلا .

لم تبدر من الملكة أية بادرة تنس عن معرفتها بما حدث ، ولم تتفوه بأى كلام يشي بها غير أنه ما أن أشرقت شمس الصباح حتى اختارت من بين حاشيتها من تشق في أخلاقهم أكثر من غيرهم ؛ فأخبرتهم بما انتهت فعله حتى يكونوا على بينة بما سيحدث ثم أمرت بمنشول جوجيس في حضرتها . وكان من عادة الملكة أن تطلبها كثيرا لتنحيت اليه في أمور شتى . وكان متعددا أن يلبى طلبها . ولذلك أطاع الامر دون أن يساوره أى شك من ناحية علمها بما تجرا عليه . ولما مثل بين يديها ، قالت له : « اختر لنفسك أى الطريقين ، يا جوجيس . أما أن تقتل كانداولييس وتتزوجنى ، وتحصل على تاج ليديا ، واما أن تموت فى هذه اللحظة فى غرفة نومه ، جزاء طاعتكم جميع أوامر سيدك ، فنظرت إلى ما ليس من حقلك . والآن ، تسنلزم الضرورة اما أن يموت ذلك الذى أشار عليك بما حدث ، أو تموت أنت يا من رأيتني عارية وخرقت تعاليدنا ». عند ذلك وقف جوجيس لفترة من الوقت حائرا مبهوتا . وبعد أن أفاق من ذهوله ، أخذ يتسلل إلى الملكة ألا تجبره على اتيان مثل هذا العمل الشاق . ولما رأى أن توسلاته ذهبت أدراج الرياح ، وأنه ينبغي له اما أن يقتل أو يقتل ، اختار الحياة لنفسه ، قائلا : اذا كان لابد من أن يكون الامر على

هذا النحو ، وأنك تلزمني كرها على قتل سيدي ؟ فأخبريني بالطريقة
التي أنفذ بها ذلك . » فقالت الملكة : « اقتلته فى نفس الموضع الذىرأيتني
فيه عارية ، ول يكن اغتياله وهو نائم » .

دبر كل شيء لاغتيال الملك . وعندما خيم الظلام على الكون ، ورأى
جوبيس أن لا مفر من أن يقتل كانداوليس ، أو يقتل نفسه ، تبع سيدته
إلى حجرة النوم . فأعطيته خاتمها ، وخاتمها وراء نفس الباب . وعندما
استغرق الملك في النوم ، تسلل جوبيس إلى داخل مخدعه وغيب الخاتم
في صدره ، فقتلته . وبهذا انتقلت زوجة كانداوليس ومملكته إلى جوبيس .

الفصل الثاني

أَسْطُورَةُ أَرِيُونْ

كان برياندر بن كويسيلوس ملكاً على كورنثيا وكان طاغية جباراً . ويقال ان حادثاً عجيباً جداً حدث في عصره . ويتفق الكورنثيون والليسيبيون في روايتهم له . فيقولون ان أريون ، الذي بلده ميثومنا كان موسيقياً بارعاً في العزف على القيثارة ؛ لا يدانيه فيه أى شخص آخر على وجه الأرض في عصره . وكان تبعاً لما نعلمه ، أول من ابتكر البحر الشعري المعروف باسم *dithyrambi* ، ليطلق عليه اسمه ولينشده في كورنثيا . وذات مرة حمله دلفين فوق ظهره حتى وصل إلى تايناروم .

عاش أريون عدة سنوات في بلاط برياندر ، إلى أن استبد به الشوق للسفر إلى إيطاليا وصقلية ، وبعد أن جمع أموالاً طائلة في تلك من البحارة الكورنثيين ، اذ رأى أنهم خير من يشق فيهم ويكون في أمان بينهم . فركب السفينة وأقلع راجعاً من ثارنتوم ، ولما وصلت السفينة البلاد ، أراد أن يعبر البحر عائداً إلى كورنثيا . فاستأجر سفينتين لجماعة إلى عرض البحر ؛ تأمر البحارة فيما بينهم على أن يقذفوا به في اليم ويستولوا على ثروته . ولما علم بتدبيرهم ، جثا على ركبتيه وأخذ يستعطفهم وينوسل إليهم أن يتركوه حياً ويأخذوا أمواله حلاً لهم . غير أنهم رفضوا وطلبو منه ، أما أن يقتل نفسه في الحال إن كان يرغب في أن يدفن على اليابسة ؟ أو لا يضيع الوقت فيقفز من فوق ظهر السفينة في الماء . فتوسل إليهم ثانية أن يسمحوا له ، ما دامت هذه هي مشيئتهم ؛ بأن يصعد إلى السطح الأوسط للسفينة مرتدياً كاملاً ثيابه الرسمية ، ويعزف ويغني ؛ حتى إذا ما انتهت أغنيته ؛ أغرق نفسه . فسر البحارة لفرصة سمعاهم أعظم موسيقى في العالم ، ومنحوه ذلك الطلب ، وانسحبوا من كونتل السفينة إلى وسطها ، بينما ارتدى أريون ثيابه الرسمية كاملة ،

كما لو كان ذاهبا لاحياء حفل عظيم ، وأخذ قيسارته ، ووقفت على أعلى سطح بوسط السفينة وشرع يغنى الانغنية الاورفية ، ولا انتهى منها ، قذف نفسه الى البحر وهو في تلك الملابس . عندئذ أكمل الكورنشيون ابحارهم الى كورنث . أما أريون ، فيقال ان دلفينا حمله فوق ظهره وظل سابعا به حتى أوصله الى تايناروم ، حيث خرج الى الشاطئ وأتم رحلته الى كورنث ، في ثيابه الموسيقية . وهناك قص كل ما حدث له . بيد أن برياندر لم يصدق روايته ووضعه تحت الحراسة ليمنعه من مغادرة كورنث ، وظل يرقب عودة البحارة في لففة . وعندما وصلوا الى هناك استدعاهم اليه وطلب منهم أن يخبروه بأية أنباء عن أريون ، ان كانوا يعلمون عنه شيئا . فأجابوه بأن أريون حي يرزق وفي صحة جيدة باليطاليا ، وأنهم تركوه في ثارينتوس حيث يعمل بنجاح ويكسب أموالا كثيرة . في تلك الآونة ظهر أمامهم أريون بنفس الصورة التي كان عليها عندما قفز من فوق ظهر السفينة . فذهب الرجال وأسقط في أيديهم وعرفوا أن أمرهم افتضح ، فاعترفوا بجريمتهم .

هذه هي الرواية التي يحكىها الكورنشيون والديسيبيون . وحتى اليوم يقدم أهل تايناروم التقدمات أمام محراب أريون حيث يقف تمثال صغير من البرونز يمثل رجلا على ظهر دلفين .

الفصل الثالث

أسطورة سولون

تولى كرويسوس بن ألياتيس مقاليد الحكم بعد موت أبيه ، وكان إذ ذاك في الخامسة والثلاثين من عمره . فكانت افسوس أول مدينة أغريقية هاجمتها . وعندما حاصرها ، كرسها أهلها للربة ديانا بأن مدوا حبلًا من سور المدينة إلى معبد تلك الربة (١) ، الذي كان على مسافة بعيدة من تلك المدينة القديمة التي حاصرها كرويسوس وقتذاك . وتبلغ تلك المسافة سبعة فورلونج (الفورلونج $\frac{1}{8}$ ميل) (٢) كان أهل افسوس كما ذكرنا أول من هاجمهم كرويسوس ، وبعد ذلك تذرع ، بحجة ما وشن الحرب على الولاية الإيونية والאיولية مبدئيا سببا للشكوى كلما استطاع فإذا لم يجد سببا للشكوى احتاج ببعض الأعذار الواهية .

بهذه الطريقة جعل كرويسوس نفسه سيدا على جميع المدن الاغريقية في آسيا ، وأجبرها على أن تتبعه . بعد ذلك أنشأ يفكرون في بناء أسطول ليهاجم به سكان الجزر الاغريقية . فأعاد عدته لتنفيذ تلك الرغبة ، بيد أن بياس البرياني أحبط مسعاهم في ذلك المشروع ، فقد سأله الملك عندما عاد من سارديس عما إذا كان قد سمع أخبارا من بلاد الإغريق ، فأجابه بقوله : « نعم يا سيدي . يجد سكان الجزر في جمع عشرة آلاف حسان للقيام بحملة عليك وعلى عاصمة ملكك » . واذا اعتقاد كرويسوس أن بياس

(١) يذكر بلوطارخ (سولون ، الباب الثاني عشر) قصة مماثلة لهذه إذ يقول ان اللاجئين الذين اتهموا بقتلة كولون في آثينا ، ربطوا أنفسهم الى المذبح بحبل . فإذا قطع الحبل فقدوا صفتهم المقدسة . كذلك عندما كرس بولوكرايتيس جزيرة دينيا الى أبو لو الديلياني وصلها بدilos بسلسلة (ثوكريديس الباب الثالث صفحة ١٠٤) .

(٢) نعلم من هذا أن موقع مدينة افسوس تغير من مهد كرويسوس الى عهد هيرودوت والمبنى التي شاهدها هيرودوت هي التي احترقت في سنة ٣٥٦ ق.م

يقول الحقيقة ، صاح قائلا : « عسى أن تضع الآلهة هذه الفكرة في أذهانهم كى يهاجموا أبناء الليديين بالفرسان ! » فرد عليه بياعس ، يقول : « يبدو أنها الملك ، أنك تريد مهاجمة سكان الجزر بالفرسان فوق الأرض الأصلية - وانك لتعلم حق العلم ماذا ستكون النتيجة . وماذا تظن أن يأمل فيه أهل الجزر خيرا من هذا ، بعد أن سمعوا أنك تزمع ببناء أساطيل لتهاجمهم به وتنتفع منهم جراء اساءة إخوانهم الذين استعبدتهم ؟ » « ... » وقع ذلك الكلام في نفس كرويسوس موقع السحر ، واعتقد أن هناك ما يبرر جمعهم للخيول ، فصرف من ذهنه فكرة بناء أساطيل ، وأبرم معاهدة صداقة مع أيوني الجنز .

عندما ضمت كل هذه الفتوحات إلى الامبراطورية الليدية ، وبلغت سارديس أوج عظمتها ، وفدى إليها جميع حكماء الإغريق في ذلك العصر ، واحدا بعد آخر ، ومن بينهم سولون الأثيني (١) عندما خرج في رحلاته ، إذ غادر أثينا ليغيب عنها عشر سنوات بمحنة رغبته في رؤية العالم . ولكن الحقيقة هو أنه هرب من أثينا لثلاثة يضطر ، بناء على طلب أهلها ، أن يلغى أي قانون من القوانين التي سنها لهم . ولم يكن بوسع الأثينيين ، أن يلغوا أيها بدون موافقته ، لأنهم أقسموا أيمانا مغلظة أن يخضعوا للقوانين التي يفرضها عليهم سولون ، لمدة عشر سنوات .

لهذا السبب ، ولكي يرى العالم ؛ خرج سولون في رحلاته . فذهب إلى مصر ، إلى بلاط أماسيس وذهب أيضاً لزيارة كرويسوس في سارديس فأكرمه كرويسوس وفادته واستضافه في قصره الملكي . وفي اليوم الثالث أو الرابع ، أمر كرويسوس خدمه أن يطموا سولون على كنوزه وعظمته وأبهته . فلما رأى سولون كل ذلك وفحص بنفسه كل شيء ، سأله الملك : « أيها الغريب الأثيني ، لقد سمعنا الكثير عن حكمتك ورحلاتك خلال البلدان حبا في المعرفة ورغبة في مشاهدة غرائب الدنيا لهذا تجذبني متلهفا لا أعرف منك ؟ من هو أسعد رجل رأيته ؟ » ألقى كرويسوس هذا السؤال على سولون ؟ لانه كان يظن نفسه أسعد رجل على ظهر الغراء . بيد أن سولون أجابه بلا نفاق ولا تملق ، بل تبعاً لشعوره الحق ، فقال : « أسعد رجل شاهدته هو قيلوس الأثيني ،

(١) أهملنا زيارة سولون لكرويسوس قبل عهد بلوطارخ (سولون الباب ٢٧) إذ اعتبرت خرافية بناء على الصعوبات التاريخية . فمن المحتمل جداً أن يكون كرويسوس قد حكم من سنة ٥٦٨ ق.م إلى ٥٥٤ ق.م ولاشك في أن سولون هاش بعد أن افتسب بيسبيستراوس مقاليد الحكم في أثينا ، سنة ٥٦٠ ق.م .

يا سيدى . » فدخل كريوسوس مما سمع ، وقال محتدا : « ولماذا تعتبر تيلوس أسعد رجل ؟ » فأجاب سولون بقوله : « أولا ، لأن مملكته ازدهرت في عصره ، وله هو نفسه أولاد على قدر بالغ من الجمال والصلاح ؛ ولا أنه عاش ورأى كل منهن يتوجب أطفالا ، ورأى أولئك الأطفال وقد كبروا وترعرعوا وزيادة على ذلك ، فبعد أن قضى حياته فيما يعتبرها شعبتنا حياة مريحة ، مات بمجد منقطع النظير اذ هب لنجدته شعبه في قتال بين الاثنين وجرانهم قرب اليوسippus فمات شجاعا في حومة الوغى . » فدفنه الاثنين باحتفال رائع ، في البقعة التي سقط فيها ، وقدموا له أعظم فروض التمجيل والاحترام . »

هكذا نصّ سولون كريوسوس بالمثل الذي قدمه له عن تيلوس ، معددًا مميزات السعادة الكثيرة المظاهر . وبعد أن انتهى سولون من ذلك ، سأله كريوسوس مرة ثانية عنمن يعتبره في المرتبة الثانية من السعادة بعد تيلوس ، متوقعا أن يكون هو في تلك المنزلة ، مهما كانت الظروف . غير أن سولون خيب ظنه بقوله : « كليوبيس وبيتو . انهما شبابان من سكان أرجوس . كانا ذا أموال تكفي لسد حاجاتهما ، وقد وهبا علاوة على ذلك قوة بدنية نala بواسطتها الجوائز في المباريات الرياضية ويروى القوم عنهمما هذه القصة : كان الشعب يحتفل بعيد الرببة جونو في أرجوس . وكان لابد من أن تذهب والدتهما إلى المعبد في عربة . بيده أن الشبان التي تجر العربة تأخرت في المجيء من العazel . فخشى الشبان أن يمنع ذلك ذهاب أمها إلى المعبد في الوقت المناسب . فما كان منها إلا أن وضع النير على عنقيهما وجرا العربة التي ركبتها أمها لمسافة خمسة وأربعين فورلنجا (الفورلننج $\frac{1}{8}$ ميل) حتى وقفا بها أمام المعبد . وهكذا قاما بعمل مجيد أمام كافة جمهور المختلفين بتكريم الرببة ، كما أن حياتهما انقضت على خير ما تكون عليه نهاية الحياة . وكذلك أوضحت الرب أن الموت أفضل للإنسان من الحياة . فقد أثنى الرجال المختلفون حول العربة على شجاعة وقوة الشابين ، وأنثت النساء الارجوسيات على تلك الأم التي حوبيت بنعمة مثل هذين الآباء . واغتبطت الأم نفسها بذلك العمل وبالشأن الذي نالته فوقفت أمام تمثال الرببة ، وتسللت إليها أن تمنح ولديها كليوبيس وببيتو ، اللذين كرمها وشرفاها ؛ أقصى نعمة يمكن أن ينالها البشر . وما ان انتهت من صلاتها حتى قدمت الذبائح واشتراك الجميع في الوليمة . وبعد ذلك غلب النعاس الشابين فناما في المعبد . ولكنهما لم يستيقظا من التوم بعد ذلك ، بل غادرا الدنيا واذ يعتبرهما

الارجوسيون من بين افضل الرجال صنعوا لهم تمثالين اقاموها في
محراب دلفي » .

عندما وضع سولون هذين الشابين في المرتبة الثانية من السعادة
صاح كرويسوس غاضبا ، فقال : « اذن فماذا تكون سعادتي أيها الغريب
الاتيني ، اذ لم تقدرها بشيء ؛ ولم تضعها حتى في مستوى الرجال
العاديين ؟ »

فقال سولون : « أى كرويسوس ! انك لتسأل عن حال الانسان ،
وتوجه سؤالك الى رجل يعرف أن السلطة هي أكثر شيء مليء بالحسد ،
ومولعة بالتنكيد علينا غاية التكيد . فالحياة الطويلة تمكّن المرأة من أن يرى
كثيراً ويُجرب كثيراً ، ما لا يحبه ، التي اعتبر أقصى حياة للإنسان سبعين
عاماً . فيكون مجموع الأيام التي يقضيها في ذلك العمر ستة وعشرين
ألفاً ومائتين وخمسين يوماً . لا يمر منها يوم إلا ويرى فيه حادثاً مختلفاً
عن سائر الأحداث التي شاهدها قبل ذلك . وعلى ذلك يكون المرأة مجموعه
من الأحداث . أما عن نفسي ، فأرى أنك واسع الغنى بدرجة مدهشة ،
 وأنك سيد على عدة أمم . وأما بخصوص السعادة التي تسألني عنها ،
فليس عندي ما أرد به عليك الا بعد أن أسمع أنك أنهيت حياتك نهاية
سعيدة . فمن المؤكد أن من يملك خزائن الدنيا من الكنوز ليس أقرب
من السعادة من يملك ما يكفي حاجته اليومية فحسب ، الا اذا حالفه
حسن الحظ ؛ وبذا يستمر يتمتع بخيراته الى آخر أيام حياته . فقد عاكس
الحظ كثريين من يملكون ثروات طائلة ، كما ساعد الحظ كثريين من
متوسطي الحال . ولا يتفوق النوع الاول من هذين على النوع الثاني الا في
ناحيتين . أما النوع الثاني فيتفوق على الاول في عدة نواحٍ . فالرجل
الغنى أقدر من متوسط الحال على نيل كل حاجاته والتأغل على المصائب
المفاجئة . أما النوع الثاني فأقل مقاومة لهذه النوائب (التي يحظى به حسن
حظه منها) غير أنه يتمتع بكل النعم التالية : انه كامل الصحة ، وأقوى
على مقاومة الامراض ؛ وحال من سوء الحظ ، سعيد بأولاده وبحسن
منظره . فلو أنهى حياته علامة على ذلك ، نهاية طيبة ، كان حقيقته هو
الرجل الذي تنشده . الرجل الذي يصح بحق أن يوصف بالسعادة .
والى أن يموت ذلك الرجل، يمكنك أن تطلق عليه أى اسم قل انه محظوظ ؛
وليس سعيداً . والحقيقة أنه من النادر أن يتصرف أى رجل بجميل هذه
الميزات . مثله في ذلك مثل الدول بما من دولة تملك في بلدها كل
ما تحتاجه . فبینما تملك كل منها أشياء معينة ؛ ينقصها أشياء أخرى .
وأفضل دولة هي التي تملك معظم احتياجاتها . كذلك الامر؛ ما من مخلوق

بشرى واحد كامل من جميع الوجوه - لا بد من وجود نقص ما . فمن يضم أكبر عدد من الميزات ؟ ويحتفظ بها إلى يوم مماته؟ حيث يموت هادئا، هو وحده ؟ تبعا لحكمي يا سيدي ؛ من يصح أن يقال عنه انه سعيد . إننا ننتظر النهاية في كل حالة ؛ فالرب يمنحك البشر قبسا من السعادة ؛ ثم يغمرهم بعد ذلك في الحراب » .

هكذا تحدث سولون إلى كرويسوس ، وهو حديث لم يجعل عليه مالا ولا أمجادا فعندما رحل عن البلاد ، لم يهتم به الملك ، اذ كان يعتقد أن من لا يحكم بالغنى الحاضر ، وينتظر معرفة النهاية أولا ، لا شك معنوه غشى الله على بصيرته .

الفصل الرابع

قصة أدرستوس

بعد أن غادر سولون بلاط كرويسوس ، انتقم الرب من هذا الملك المغرور انتقاماً فظيعاً عقاباً له على اعتباره نفسه أسعده رجل . بدأ ذلك الانتقام بأن رأى كرويسوس حلماً أبان لهحقيقة الكوارث التي توشك أن تتحقق به في شخص ولده . فقد كان لكربيادس ولدان : أحدهما مصاب بعاهة طبيعية إذ كان أصم وأبكم . أما الابن الثاني فيمتاز على سائر أترابه في جميع الصفات . كان اسمه آتونس وهو الذي أشار إليه الحلم بأنه سيموت بضرر من سلاح حديدي . فلما استيقظ كرويسوس من نومه ذعر ذعراً بالغاً فقام في الحال يخطب عروسها لابنه . وكان من عادة ذلك الابن في السنين الماضية أن يخرج مع القوات الليدية إلى ميدان القتال . بيد أن والده الآن لم يسمح له بمرافقتهم وزيادة في الحيرة ، انتزع الأب جميع العراب والرماح وأسلحة القتال من مساكن الرجال بالقصر ، ووضعها في أكواام بغرف السيدات ؟ لئلا تسقط أحدهما وهي معلقة على الحائط فوق ابنه فتقتله .

حدث أنه عندما كان كرويسوس مشغولاً في الاستعداد لحفلات الزواج ، أقبل رجل من سارديس يحمل على رأسه لعنة الدماء . كان فروجي الأصل من أسرة أحد ملوك فروجيا . جاء إلى قصر كرويسوس متسللاً أن يسمح له بأن يتظاهر تبعاً لعادة تلك البلاد . وكانت طريقة التطهر الليدية هي الطريقة الأغريقية نفسها تقريباً . فمنحه كريوسوس أمنيته وقام له بالطقوس المألوفة . وبعد أن تظاهر ذلك الغريب ، سأله كرويسوس عن نسبة وعن مملكته ، بقوله : « من أنت ، أيها الغريب ؟ ومن أى أجزاء فروجيا هربت لاجئاً إلى وطني ؟ وزيادة على ذلك ، أى رجل أو امرأة قتلت ؟ » فأجاب الفروجي قائلاً : « أيها الملك ! أنا ابن جوردياس

ابن ميداس ، وأسمى أدراستوس (١) وأما من قتلته فهو شقيقى . لذلك طردنى أبي من مملكته وفقدت كل شيء ، فهربت إلى هناك » . فقال كرويسوس : « إنك سليل بيت صديق لي . وقد أتيت إلى أصدقاء . لن تحتاج إلى شيء طالما أنت في حمای . اصبر على سوء طالعك وتحمله على أحسن ما يناسبك قدر طاقتك » . ومن تلك اللحظة عاش أدراستوس في قصر ذلك الملك .

حدث أن ظهر في الوقت نفسه خنزير بري ضخم في أوليمبوس الموزية ؛ كان يهبط من المنحدرات الجبلية ويعيث فسادا في حقول القمح التي يملكها الموزيون . وكثيرا ما تجمع الفلاحون ليصيدوه . ولكن بدلا من أن يصيدوه بالاذى كان هو يمنيهم بخسائر فادحة في الأرواح . وأخيرا أوفدوا رسلا إلى كرويسوس يقولون له : « أيها الملك ! لقد ظهر في بلادنا وحش ضخم عبارة عن خنزير بري ، خرب مزروعات أراضينا . وقد حاولنا جهدا ان نفتك به ولكن دون جدوى . والآن ، نتوسل إليك أن تبعث إلينا بابنك ليصيحبنا . ومعه نخبة من الشبان الأقوباء وكلاب الصيد ، حتى نستطيع أن نخلص بلدنا من ذلك الوحش » هكذا كان نص توصتهم .

بيد أن كرويسوس تذكر حلمه ، فرد عليهم بقوله : « تتحدثوا بعد الآن عن ذهاب ابني معكم ؛ فليس هذا من الحكمة في شيء لقد تزوج حديثا ، وهو جد مشغول في زواجه . سأمنحكم فئة منتخبة من الدييين وجميع رجال الأخصائين في الصيد وكذلك كلاب الصيد . وسأأمر من أرسلهم بأن يقدموا لكم كل مساعدة لتخليص بلادكم من ذلك الوحش » .

قنع الموزيون بهذا الرد . غير أن آتونس سمع بطلب الموزيين ، وبرفض أبيه أن يرسله معهم . فدخل على أبيه فجأة ، وحااطبه بقوله : « ابا ! كانت أشرف وانسب مهمة لي من قبل ، أن أرافق الجنود في الحروب وأشتراك في فرق الصيد ، وبذا أنا أجل المجد لنفسى إلا أنك تحرم مني الآن كليهما ، مع أنك لم تشاهدني قط جبانا . بأى وجه أسيء جيئه وذهابا ؟ ماذا يظن بي المواطنون ، وماذا تظن بي عروسي الشابة ؟ فاما تسمح لي بمطاردة ذلك الخنزير ، أو تقنعني بأنه من الخير لي أن أسيء تبعا لرغباتك » .

قال : « اسمع يابنى ! لم أمنعك بسبب أتنى رأيت منك جبنا أو

(١) معنى أدراستوس هو « المحكوم عليه » - أو « الرجل غير القادر على الهروب »
اما آتونس فمعناه « الشاب الخاضع لسلطة اتى » أو « الرجل الاعمى شرعا » .

نحوه أغضبني وجعلنى أمنعك الذهاب ولكنى أمنعك لأننى رأيت حلمًا فى نومى ، حذرنى من أنك ستموت فى ريعان شبابك بطعنة من سلاح حديثى . هذا هو ما حدا بي أن أسرع بتزويجك ، ثم جعلنى أمنعك الآن أن تذهب فى هذه الرحلة . إننى أبدل كل جهوى فى مراقبتك عسى أن بعد عنك القضاء بكل وسيلة فى مدة حياتى ، لأنك ابنى الوحيد أما آخر الآخر الفاقد السمع فلا اعتبره موجودا » .

فقال الشاب : « لن ألومنك يا أبا شاه ، على مراقبتك أيامى بعد أن رأيت مثل ذلك الحلم المزعج . ولكن ماذا لو كنت مخطئا ؟ ولو أخطأت فى فهم الحلم فهما صحيحا ، فلا لوم على أن أوضحت لك موضع خطئك ... يتکهن الحام الذى رأيته أنت نفسك ، بأننى سأقتل بسلاح حديثى ، فهل للخنزير البرى يدان يضرب بهما ؟ وأين له بسلاح من الحديد يضرب به ؟ هذا ماتخافه على . لو قال الحلم إننى سأطعن بناب لحق لك أن تمنعنى الذهاب لصيد ذلك الوحش . ولكنه قال إننى سأطعن بسلاح . وإن نقاتل رجالا فى هذه الرحلة ، بل حيوانا متواحشا . إذن ، أرجوك أن تصرح لي بالذهاب معهم . »

فقال كريوسوس : « الحق معك يا ولدى . إن تفسيرك للحلم لا صحة من تفسيرى . إذن فإننا أخضع لهذا التفسير ، وأغير رأىي ، وأصرح لك بالذهاب . »

عندئذ أرسل الملك لطلب أدراستوس الفروجى فلما جاء قال له : « عندما ضربت بقضيب اللعنة طهرتك وجعلتكم تعيش معى في قصرى ولم أمنعك شيئا . والآن ينبغي أن ترددلى هذا الجميل بأن تقبل مراقبة ولدى في رحلة الصيد هذه ، وأن تحرسه فيها أو هاجمتمكم عصابة لصوص في خلال الطريق وفضلا عن هذا ، فمن حقك أن تذهب حيث تستطيع أن تنال الشهرة لنفسك بالاعمال النبيلة . هذه تقاليد أسرتكم ، وإنك لشجاع وقوى . »

فأجاب أدراستوس بقوله : « لولا طلبك يا مولاي لا بتعدت عن مغامرة الصيد هذه ، إذ أرى أنه لا يليق برجل منجوبي الطالع مثلى أن يرافق زملاء أسعد منه حظا وعلاوة على هذا ، فليست لي الجرأة على مثل هذا العمل . لقد تخلفت عنها في مرات كثيرة ولاسباب عده . ولكن بما إنك تحتم على الذهاب فيها ، فأنا ملزم بعمل ما يرضيك (اذ الحقيقة أنه يجب على أن أرد الجميل) . وعلى ذلك ، فأنا طوع أمرك أما عن ابنك

الذى تضنه فى عهدى ، فتأكد أنه سيعود اليك سالما ، بقدر ما
توقف هذه السلامة على عنانة حارسه . »

ما ان أطمأن كرويسوس على سلامه ولده حتى سمح لهم بالرحيل
برفقه فئة من الشبان المختارين ، ومعهم عدد من كلاب المطاردة . ولما بلغ
الجمع أوليمبوس ، انتشروا في طلب ذلك الحيوان . وسرعان ما عثروا
عليه . فالتف حوله الصيادون في دائرة ، وأخذوا يمطرونها وابلأ من
أساحتهم . فحاكمتهم الرجل الغريب ، الذى تظهر من لعنة الدماء ،
والذى يسمى أدراستوس ، فقذف رمحه نحو الحنزيز ؛ ولكنه أخطأ
الهدف فطاش الرمح وأصاب آتونس . وهكذا قتل ابن كرويسوس
بسلاح حديدي وتحققت نبوءة الحلم فأسرع رسول يحمل النبأ الى
الملك في سارديس . وأخبره بقصة القتال وبالقضاء الذى أصاب ولده .

وكان وقع الصدمة بالغا على كرويسوس ، أن يعلم بموت ولده .
ولكن الله كان أشد واتكى عندما عرف أن الشخص الذى ظهر هو
بنفسه ، الذى قتل ولده . وفي ذروة حزنه نادى جوبيرت كاثارسيوس
ليكون شاهدا على ما أصابه على يدى ذلك الرجل الغريب .

ولم يمض وقت طويل حتى عاد الليديون يحملون جثة الشاب؛ ومن
خلفهم القاتل وما ان صار في حضرة الملك حتى اتخذ موقفه أمام
الجمع ، ومد يديه نحو كرويسوس مسلما نفسه إليه ، وتوسل إليه أن
يصحى به فوق جثة ابنه - « كانت جريته الأولى عبئا ثقيلا ، فإذا به
يضيف إليها جريرة أخرى ، وجلب الخراب على الرجل الذى ظهر ،
وعلى ذلك لا يستطيع أن يعيش . » وعندها سمع كرويسوس كلامه ،
تأثير غاية التأثر ؛ فأخذته السفقة على أدراستوس برغم الله الشديد على
فقد فلذة كبده ، فقال : « كفى ؛ يا صديقى ! لقد نلت كل ما أريده من
انتقام ، اذ حكمت على نفسك بالموت . بيد أن الحقيقة هي أنت لست
بالشخص الذى ضرني ؟ بل الفاعل الحقيقي والمتسبب فيما أصابنى من
نحس هو أحد الآلهة ، وقد حذرت منه منذ زمن طويل . أما أنت فكنت
الأداة التى قامت بالضربة عن غير قصد . » بعد ذلك دفن كرويسوس
ابنه بالاحتفال والامجاد اللاقعة به . أما أدراستوس بن جوردياس بن
ميداس ، قاتل أخيه وجالب الخراب على من ظهره ، فقد اعتبر نفسه
أتعس مخلوق عرفه ، انتظر حتى شمل الهدوء ذلك المكان ، ثم قتل
نفسه فوق قبر آتونس . وأما كرويسوس فلزم الحداد سنتين كاملتين
حزنا على ولده .

الفصل الخامس

كرويسوس

بعد مرور عامين على موت آتوس ، نُسفَل كرويسوس عن حزنه بسبب الأخبار التي وصلته عن الأحداث الجارية في الخارج . فقد علم أن كوروس بن قمبيز خرب امبراطورية آسياجيس بن كياكساريس وأن قوة الفرس تزداد يوما بعد يوم . فأخذ يفكر في نفسه عما يستطيع فعله ليوقف ازدياد قوة أولئك القوم قبل أن تبلغ الذروة . واذ بدأت هذه الفكرة تعتمل في ذهنه عزم على أن يختبر كل وحى في بلاد الاغريق، ووحى ليبيا (١) . وعلى ذلك بعث رسلا إلى مختلف الجهات . فذهب بعضهم إلى دلفى ، والبعض الآخر إلى أبيات (٢) في فوكيس ، وبعض ثالث إلى دودونا ؛ وآخرون إلى أمفياراوس وغيرهم إلى تروفونيوس ، وكذلك إلى برانكيداي في مياليزيا . وهذه جموعا هي التي أرسل يختبرها في بلاد الاغريق . كما أوفرت رسلا آخرين إلى ليبيا لاختبار وحى آمون . ذهب أولئك الرسل ليعرفوا قدرة كل وحى على التكهن . فإذا ما ظهر صدق اجابة أي وحى منها ، أوفرت إليه رسلا آخرين يسألونه عما إذا كان بوسعه أن يهاجم الفرس .

أمر كرويسوس من أوفرهم بأن يعدوا مائة يوم ابتداء من يوم سفرهم من سارديس وفي اليوم المائة يسألوا الوحى عما يفعله كرويسوس ابن الياتيس ملك ليديا في تلك اللحظة . وعند ذلك ينبغي لهم أن يكتبووا الرد ويعودوا به إليه . ولم يسجل التاريخ من هذه الردود غير رد وحى

(١) الوحى الموجود في ليبيا (بافريقيا) هو وحى آمون . اذا كان هيرودوت يعتبر مصر من أسا ولسب دوله افريقيه .

(٢) يبدو أن وحى أبيات كان في المرتبة الثانية بعد وحى دلفى . ويبدو أنه لم يكن لدى السريين أي وحى في بلادهم .

دلفى . فما ان دخل الرسل المحراب (١) ، حتى قالت لهم السكاهنة فى أسلوب شعري سداسى التفعيلات ! قبل أن يسألوها عن أى شيء .

بوسعى أن أعد الرمال وأن أقيس المحيط

ولى آذان تسمع الصامتين وأعرف ما يجعل بخاطر الآباءكم وان حواسى لتشم رائحة سلحفاة ذات درقة تطبع الان فوق النار مع لحم خروف في مرجل الوعاء السفلى من النحاس والقطناء أعلىه من النحاس أيضا .

دون الليديون هذه الكلمات بمجرد أن خرجت من بين شفتي السكاهنة ، ثم عادوا أدراجهم الى سارديس وعندما رجع الرسل بالردد الذى تلقواها جمِيعا ، فض كرويسوس اللفافات وقرأ ما كتب في كل منها . فلم تثبت صحة غير رد واحد (٢) ، هو رد وحى دلفى . فما ان سمع ذلك الرد حتى شرع في تقديم فروض العبادة معلنا ان وحى دلفى هو الوحى الوحيد الصادق . انه الوحى الوحيد الذى عرفحقيقة مسائل عنه . اذ بعد اذ ان رحل الرسل فى مهمتهم ، أخذ كرويسوس يفكر فى الشئ الاكثر احتمالا ألا يتربأ اي وحى فى فى أنه يفعله . ثم انتظر حتى جاء اليوم المتفق عليه ، فأخذ سلحفاة وخروفا ، وقطعهما بيديه قطعا ، ووضعهما معا على النار في مرجل من النحاس ذى غطاء من النحاس أيضا .

هذا هو الرد الذى تلقاه كرويسوس من دلفى . أما الرد الذى تلقاه الرسل الليديون الذين ذهبوا الى محراب امفياوس ، وقاموا هناك بالطقوس المعتادة ، فلا يمكننى أن اذكره هنا اذ لم يسجل . وكل ما عرف عنه هو أن كرويسوس وجده يقول الحقيقة .

(١) *μόρφη* هو المحراب الداخلى أو الفرنقة المقدسة حيث تتطق الكاهنة بآقوال الوحى .

(٢) يستحيل أن نناقش موضوعا مثل طبيعة كل وحى قديم اذ كتبت عن ذلك الموضوع مجلدات عدة وكانت في حدود مذكرة . ولكن سأراعي في حكمي على هذا الموضوع نقطتين ليس غير وهما (أولا) أن الكاهنة التي قابلها القديس بولس عند أول نزوله بلاد الأفريق الاوربية كان بها حقيقة من الشيطان . فاخرج القديس بولس ذلك الروح الشير منها ، وبذا جرد سعادتها من كل امل في الربح (الفصل السادس عشر ١٦ - ١٩) (ثانيا) وجد انه ربما كانت ظاهرة التنويم المفناطيسي أبسط وأصدق تفسير لصدق تكهنات الوحى .

بعد ذلك عزم كرويسوس على ارضاه الاله الدلفي بالذبائح الفخمة ، فقدم له ثلاثة آلاف رأس من كل نوع من حيوانات الذبائح ؛ وعلاوة على ذلك صنع كومة ضخمة وضع فوقها مقاعد وأسرة مكسوة بالفضة والذهب ! وكثوس من الذهب وأثواب وصديريات من الحرير الارجوانى، أحرقها جمیعاً أملأ فى أن يضمن لنفسه الحظوظ لدى ذلك الرب . وبعد أن فرغ من كل هذا ، أصدر أوامره لجميع شعبه بأن يقدم كل منهم ذبيحة بقدر ما تستسمح به موارده . وبعد تقديم الذبائح صهر الملك كمية عظيمة من الذهب وصيّبها في قوالب مستطيلة الشكل؛ طول كل منها سنت راحات والعرض ثلاث راحات والسمك راحة يد واحدة . فكان مجموع هذه القوالب مائة وسبعة عشر قالباً . أربعة منها من الذهب الحالص، وزن كل قالب ثالنتان ونصف ثالنت (الثالث يعادل وزن ٥٧ رطلاً إنجليزياً) ، وبقيتها من سبائك الذهب غير النقي وزن كل منها ثالنتان . وفوق كل هذا ، أمر بصنع تمثال أسد من الذهب النضار وزنه عشرة ثالنتات . وعندما احترق معبد دلفي عن آخره ، سقط ذلك التمثال من فوق القوالب الذهبية التي كان يقف عليها ، وهو الآن محفوظ في خزانة المالية بمدينة كورنث ، ويزن الآن ستة ثالنتات ونصف ثالنت ؛ بعد أن فقد ثلاثة ثالنتات ونصف بفعل النار .

صدرت الأوامر إلى الرسل الذين عهد إليهم بتسليم هذه الهدايا ، أن يسألوا الوحيدين الصادقين عما إذا كان يصلح لكرسيوس أن يشتتبك في حرب مع الفرس ، فان جاء الرد بالإيجاب ، سئلاً ثانية عما إذا كان يجب عليه أن يقوى جيوشة بقوات حليفه . وبناء على هذه التعليمات ، عندما بلغ الرسل وجهتهم وقدموا الهدايا ، أخذت كل فئة منهم تستشير الوحي الذي ذهبت إليه بقولها : « لما كان كرويسوس ملك ليديا وغيرها من الممالك الأخرى ، يعتقد أن هذا هو الوحي الصادق الوحيد في العالم كله ، فقد أرسل لك هذه الهدايا التي تستحقها اكتشافاتك الصادقة ، ويطلب منك الآن أن تخبره عما إذا كان يصلح له أن يحارب الفرس . فان كان هذا من صالحه ، فهل ينبغي أن يقوى جيوشة بقوات دولة حليفه ؟ » فاتفق الوحييان في مضمون ردهما الذي ينص على أنه إذا هاجم كرويسوس دولة الفرس ، خرب امبراطورية قوية ، وأوصياه بأن ينتقمى أقوى الولايات الأفريقية ويتحالف معها .

عندما وصل الردان إلى كرويسوس ابتهج غاية الابتهاج ، إذ تأكد عندئذ من أن بوسعه أن يحطم الامبراطورية الفارسية .

بعد أن قدم كرويسوس تلك الهدايا إلى الدلفيين ، بعث يستشير الوحي لمرة الثالثة ، إذ لما تأكد من صدق نبوءاته رغب في أن يستغله باستمرار فكان السؤال الذي طلب الإجابة عنه هو : هل سيدوم عهد مملكته طويلا ؟ فجاء رد الكاهنة كما يلى :

انتظر إلى الوقت الذي يتبعوا فيه بغل عرش ميديا ، ثم أخرج أيها الليدي الرقيق إلى حصن هيرموس أسرع . . أصرع بالسير ولا تخجل ، أو تسلك مسلك الجبناء .

سر الملك بهذا الرد دون غيره ، إذ لا يبدو من المعقول اطلاقاً أن يأتي بغل ويصير ملكاً على الميديين ، فاستنتج من هذا أن الملك لن يفارقه أو يفارق نسله من بعده .

في تلك الأثناء فسر كرويسوس قول الوحي تفسيراً خاطئاً . فقد جيوشة إلى كبادوكيا متوقعاً أن يهزم كورس ويحطم أمبراطورية الفرس . وبينما هو مشغول في الاستعداد لهجومه ، تقدم منه رجل ليدي يدعى ساندانيس ، وكان الشعب ينظر إليه دائماً على أنه من الحكماء ، وبعد ذلك لمع اسمه حقاً بين مواطنيه ، فنصح الملك بقوله :

« أيها الملك ، إنك على وشك محاربة قوم يرتدون سراويل من الجلد ، وكذلك جميع ملابسهم الأخرى من الجلد أيضاً . انهم قوم لا يأكلون ما يشتهون ، وإنما يتغذون بما يمكنهم الحصول عليه من أرض جدباء قاسية . قوم غير مولعين بشرب الخمر ، بل يشربون الماء . قوم ليس لديهم تين ولا أية فاكهة أخرى يأكلونها . فإذا فرضت وهزمتهم ، فماذا يمكنك الحصول عليه منهم وقد رأيت أنهم لا يملكون شيئاً على الاطلاق ؟ أما إذا هزموك ، فانظر إلى جميع الطيبات التي ستختسرها . فان ذاقوا مرة واحدة ما لدينا من خيرات ، فلن يتذكروننا فقط ، ولن تستطعوا اطلاقاً أن تتحرر من قبضتهم أما عن نفسي ، فاني أشكر الآلهة على أنها لم تلتفت أنظار الفرس إلى غزو ليديا » .

كان ساندانيس كمن يضرب في حديد بارد ، إذ لم تشن نصيحته كرويسوس عن عزمه ، مع أن الفرس كانوا حقاً لا يملكون ، قبل غزو ليديا ، أي شيء من ترف الحياة ومباهجها .

عندما بلغ كرويسوس نهر هاليس ، نقل قواته إلى شاطئه الآخر عبر الجسور القائمة هناك إلى هذا اليوم ، تبعاً لما أعرفه . ولكن تبعاً للاعتقاد الشائع بين الأغارقة ، نقلها بمساعدة ثاليس الميليسى

غيرون أن كرويسوس كان في حيرة ، كيف يستطيع نقل قواته إلى الشاطئ الآخر ؟ اذ لم تكن تلك الجسور قد أقيمت بعد في ذلك الوقت ، وأن ثاليس ، الذي تصادف وجوده في المعسكر وقتذاك ، قسم مجرى النهر قسمين ، وجعله يجري على كل من جانبي الجيش ، بدلاً من جريانه على يسار الجيش فقط ، فعل هذا بالكيفية الآتية : حفر قناة عميقه على مسافة ما من المعسكر ، وجعلها منحنية في شكل نصف دائرة لكي تمر خلف المعسكر وبهذا العمل غير النهر مسيره إلى هذه القناة الجديدة حيث ترك مجراه الأصلي ودار حول الجيش ثم عاد ثانية إلى مجراه القديم . وبهذا سطر النهر إلى مجريين يمكن عبور كل منهما في سهولة ويسر . ويقول البعض أنه حول الماء تماماً من المجرى الأصلي إلى القناة . بيد أنني أخالف هذا الرأي ، اذ لا يمكنني أن أتصور كيف أمكنهم عبوره عند عودتهم .

بعد أن عبر كرويسوس نهر هاليس مع القوات التي تحت أمره ، دخل منطقة كبادوكيا التي تسمى بتيريا ، وتقع بجوار مدينة سينوبى التي تقع بدورها على نهر ايوكسينى ، وهى أقوى نقطة في جميع تلك المنطقة . فأقام كرويسوس معسكره فيها وأخذ يخرب حقول السوريين . ثم حاصر أهم مدينة في بتيريا واستولى عليها ، وأخذ أهلها عبيداً . كما جعل نفسه سياداً على القرى المحيطة بها . وهكذا جر الحراب على السوريين الذين لم يجنوا ذنبًا في حقه . في تلك اللحظات جمع كوروس جيشاً وسار به لمواجهة كرويسوس ، وكان يزيد من أعداده في كل خطوة يتقدمها بقوات جديدة من الأمم التي يمر بها في طريقه . وقبل أن يبدأ بالمسير ، بعث رسلاً إلى الإيونيين يدعوهم إلى الثورة ضد ذلك الملك الليدي ، غير أنهم رفضوا دعوته . ومع هذا ! سار كوروس لمواجهة العدو ، وعسكر أمامه في منطقة بتيريا حيث اختبرت قوة كل من الجيشين المترابطين . كان القتال حاراً مريباً . فوصل عدد القتلى من كل فريق إلى رقم بالغ . وكانت الحرب سجالاً بينهما فلما خيم الظلام على ميدان القتال ، لم يكن أيهما قد أحرز انتصاراً ما . وهكذا حارب كل من الفريقين بشجاعة وبسالة .

عزا كرويسوس عدم نجاحه في الحرب إلى قلة عدد قواته عن قوات عدوه . ولما لم يكرر كوروس هجومه في اليوم التالي ، رجع كرويسوس أدراجة إلى سارديس معتزماً أن يجمع حلفاءه ويعاود الكرة في الربيع . فيما أن بلغها حتى أوفد الرسل إلى شتى حلفائه يطلب منهم أن ينضموا إليه في سارديس ، في خلال خمسة شهور من رحيل رسليه . ثم سرح

جيشه — المكون من الجنود المرتزقة — الذي اشتباك في القتال مع الفرس، ثم سار معه إلى العاصمة؛ وأمّر الجنود بالعودة إلى بيوتهم، ولم يتصور قط أن كوروس سيتجرأ بعد معركة تساوت فيها القوتان؛ على السير لهاجمة سارديس.

بينما كان كرويسوس لا يزال على ذلك الرأي، اجتاحت الأفاغى جميع الضواحي المحيطة بسارديس. فلما رأتها الخيول تركت مراعيها وهرعت إلى الضواحي لتأكل تلك الأفاغى. وعندما أبصر الملك هذا المنظر الغريب، اعتبره علامة من لدن الإلهة فأرسل في الحال مبعوثين إلى عرافي تلميسوس ليستشيرهم في معنى ذلك الأمر. فوصل الرسول إلى تلك المدينة وحصلوا على تفسير لهذا الموضوع من العرافين. بيد أن القدر لم يمكنهم من العودة إلى سيدهم، إذ أسر كرويسوس قبل أن يعودوا إلى سارديس. قرر العرافون التلميسيون أنه يجب على كريسيوس أن يتوقع دخول جيش من الغزاة الأجانب في مملكته، وأنهم سيستعبدون شعبه عند مجئهم لأن الأفعى هي طفل الأرض أي ساكن البلد، والخصان محارب أجنبى. وكان كرويسوس قد وقع في الأسر عندما أفضى العرافون بتفسيرهم، ولم يكونوا يعرفون ما حدث في سارديس، ولا مصير ملكها.

عندما انصرف كرويسوس فجأة بجيشه بعد موقعة بتيريا معتزماً تسريح الجنود ظنا منه أنه قد تخلى عن القتال وانتهى الأمر عند هذا الحد، بيد أن كوروس أخذ يفكر قليلاً، فرأى من الحكمة أن يهاجم سارديس بغاية السرعة قبل أن يتمكن الليديون من جمع فلول جيشه مرة أخرى. فما أن قرر ذلك، حتى أسرع دون أن يضيع وقتاً، في تنفيذه خطته. فسار حثيثاً حتى كان هو أول من أعلن مجئه إلى الملك الليدي. فارتبك الملك ووقع في حيرة من تطور الأحداث بتلك السرعة. هذه الأحداث التي لم يعمل لها حساباً، والتي جاءت على عكس ما كان يتوقع. ومع ذلك؛ قاد الليديين إلى القتال. ولم يكن في آسيا كلها، في ذلك الوقت؛ شعب أشجع ولا أقدر على القتال من شعب ليديا. كانوا يقاتلون وهم على صهوات جيادهم، ويحملون مزاريق طويلة القنا، وكانوا بارعين في قيادة تلك الجياد.

التقى الجيشان في السهل الواقع أمام سارديس، وكان سهلاً منبسطاً فسيحاً خالياً من الأشجار، يرويه نهر هولوس وبعض الروافد الأخرى التي تصب في مجرى متسع يسمى هيرموس.

لما أبصر كوروس الليديين ينظمون صفوفهم للقتال، خشي قوة الفرسان، فعمد إلى حيلة أشار بها عليه أحد الليديين المدعو هاربا جوس.

جُمِعَ كُافَةُ الْجَمَالِ الَّتِي كَانَتْ تَحْمِلُ الْمَوْنَ وَالْأَمْتَعَةَ لِجِيشِهِ، وَرُفِعَ عَنْهَا أَحْمَالُهَا، وَجُعِلَ جَنُودُهُ يَرْكِبُونَهَا بِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَرْكِبُ بِهَا الْفَرَسَانُ الْخَيْولُ . ثُمَّ أَمْرَ بَأْنَ يَتَقَدِّمُ هَؤُلَاءِ أَمَامَ الْجَيْشِ لِمُقَاتَلَةِ الْفَرَسَانِ الْلَّيْدِيَّينَ ، عَلَى أَنْ يَتَبَعُهُمُ الْمَشَاةُ ، وَيَكُونُ فَرَسَانَهُ فِي الْمُؤَخِّرَةِ . وَبَعْدَ أَنْ نَظَمَ جِيشُهُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ ، أَمْرَ قَوَاتِهِ بَأْنَ يَقْتَلُوا كُلَّ مَنْ يَقْعُدُ فِي طَرِيقِهِمْ مِنَ الْلَّيْدِيَّينَ دُونَ شَفَقَةٍ وَلَا رَحْمَةٍ مَاعِدًا كَرْوِيسُوسَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَقْبضُوا عَلَيْهِ حَيَا وَلَا بَقْتَلُوهُ أَبْدًا حَتَّىٰ وَلَوْ أَبْدَى مَقَاوَمَةً .

والسبب فى مواجهة الفرسان بالجمال ، هو أن الحصان يخاف الجمل بطبيعته لا يستطيع احتمال رؤيته أو شم رائحته . وبهذه الطريقة كان يأمل فى أن يجعل الفرسان عديمة النفع لكره ورسوس الذى كان يضع جل أمله فى النصر على أولئك الفرسان . فما ان التحشم الجيشان فى القتال ، وأبصرت الخيول الليدية الجمال وشمت رائحتها ، حتى جفلت وهربت مذعورة . وبهذه الحيلة ذهبت جميع آمال كرويسوس أدراج الرياح . ومع ذلك ، فقد حارب الليديون ببسالة . فعندما أدر كوا ماحادث ، قفزوا من فوق ظهور جيادهم ، وواجهوا الفرس راجلين . وقد استغرقت المعركة لوقتنا طويلا . غير أن الليديين لم يستطعوا الصمود أمام الفرس فنكصوا على أعقابهم وأطلقوا العنان لاقدامهم يسابقون الريح . فطاردهم الفرس حتى أسرارهم ، وحاصرروا سارديس .

هكذا بدأ الحصار . وفي تلك اللحظات ، رأى كريسيوس أن المدينة لن تصمد طويلا أمام الحصار . فبعث رسلا آخرين إلى حلفائه . كانت التعليمات التي تلقاها الرسل الأولى أن يأمروا الحلفاء بالاجتماع في سارديس في الشهر الخامس . أما الذين أرسلهم الآن ، فكان عليهم أن يخبروهم بأنه محاصر فعلا ، وأن يهبو لنجادته بأقصى ما يمكنهم من السرعة . ومن بين جميع الحلفاء ، لم ينس كريسيوس أن يرسل في طلب النجدة من لاكرياديون .

حدث في ذلك الوقت أن كان الإسبرطيون أنفسهم مشغولين في نزاع مع الارجوسيين حول موضع يقال له ثوريا فقد جمع الارجوسيون قوات ليمنعوا الإسبرطيين من احتلال ثوريا . فاتفاق الطرفان على أن يختار كل منهم ثلاثة جندي من رجاله ، ويتقاول هؤلاء . فمن تكون له الغلبة يصبح ذلك الموضوع ملكا له . كما اتفقا أيضا على أن تعود بقية القوات الأخرى إلى بلادها ولا تبقى لمشاهدة القتال ، إذ الخطر في بقائهما هناك . لأن الجيش الذي يرى فريقه مهزوما سيضطر إلى مساعدته . وبعد الاتفاق

على هذه الشروط ، انصرف الجيشان تاركين ثلاثة جندي مختار من كل فريق ليتقاسموا من أجل تلك البقعة . فبدأت المعركة ، وظل الجانبان متعادلين في القوة ، حتى أنه عندما أقبل المساء وتغدر القتال بسبب الظلام ، لم يبق حيا من كل أولئك المستماثلة غير ثلاثة رجال : اثنين من الارجوسين هما الكانور وكروميوس ، واسباطي واحد هو أوثرياداس فاعتبر الارجوسيان أنهم منتصران ، وعلى ذلك أسرعوا بالعودة إلى أرجوس . أما أوثرياداس الاسباطي فبقى في الميدان ، وجرد جثث قتلى الارجوسين من أسلحتهم ، وحملها إلى المعسكر الاسباطي . وفي اليوم التالي عاد الجيشان لمعرفة نتيجة المعركة . فتنازعا في أول الأمر إذا دعى كل منهما أنه المنتصر . وكانت حجة أحدهما أن عدد الأحياء من فريقه يزيد على عدد الأحياء من الفريق الآخر . أما حجة الثاني فلان الرجل الباقى من فريقه ظل في الميدان وجرد قتلى أعدائه من أسلحتهم بينما هرب الرجال الباقيان من الفريق المعادى . وأخيراً تطور النزاع من الكلام إلى الضربات ، ونشأت معركة بين الجانبين كانت خسائرهما فيها فادحة . وفي النهاية انتصر اللاكيديمونيون . عند ذلك قص الارجوسيون شعر رؤوسهم ، وكان من عادتهم أن يحتفظوا بشعورهم طويلاً ، واتخذوا قانوناً لهم أيديوه بلعنة لا يطيلوا شعورهم ، ولا تلبس نساؤهم الذهب إلا إذا استردوا ثورياً . وفي الوقت ذاته آلى اللاكيديمونيون على أنفسهم عكس هذا العهد تماماً ، أن يطيلوا شعورهم التي اعتادوا أن يقصوها ويقال إن أوثرياداس ، الشخص الذي بقى حيا من الثلاثمائة ، أحسن بالعار بعد أن رأى ماصاب مواطنه من قتل وخسارة ، فلم يستطع العودة إلى اسبطة ، وقتل نفسه في ثورياً .

ولو أن الاسباطيين كانوا مشغولين بهذه الأحداث ، الا أنهم عندما حضر إليهم رسول سارديس يرجوهم في أن يهبوا لمساعدة الملك المحاصر ، بدعوا من فورهم في العمل على تقديم المعونة . وعندما أتموا استعداداتهم ، وكانت السفن على أهبة الرحيل ، جاءهم رسول آخر وأخبرهم بأن المدينة قد سقطت في يد العدو ، وأن كروبيوس وقع في الأسر . فحزن الاسباطيون كثيراً على سوء حظ ذلك الملك ، وأوقفوا إرسال النجدة .

أما الطريقة التي سقطت بها سارديس في يد الأعداء فهي كما يأتى: في اليوم الرابع عشر من بدء الحصار ، أمر كوروس بعض الفرسان أن يمروا بين صفوفه ويعلنوا على الجيش كله أن الملك سيمنح جائزة لأول جندي يتسلق الجحائط . ثم أمر بالهجوم على الأسوار ، ولكن دون جدوى . فانسحبت قواته إلى موقعها . بيد أن رجلاً مارديا يسمى هوردياديis

صمم فى قرارة نفسه على أن يجرب تسلق الحصن فى مكان ليس به أحد من الحراس اطلاقاً كانت هناك صخرة شاهقة شديدة الانحدار فى موضع ما من سور الحصن ، وكان الحصن (كما يبدو) متيناً يستحيل تسلقه فى ذلك الموضع بحيث لم يخش الليديون اقتحامه اطلاقاً . كان ذلك المكان هو الموضع الوحيد الذى لم يطف به ملكهم ميليس meles مع الأسد الذى أحضرته له معشيقته . فعندما قرر العرافون التلميسيون أنه اذا طاف الأسد حول وسائل الدفاع امتنعت سارديس على العدو . ولهذا سار ميليس بالاسد حول جميع سور الحصن ماعدا ذلك الموضع الذى بدا الحصن فيه منيع الاقتحام . احتقر ميليس فكرة الطواف بالاسد عند ذلك الجانب الذى كان ينظر اليه ك مجرد هوة سخيفة فى غاية الأمان . كان ذلك الموضع فى جانب المدينة المواجه لجبل تمولوس ومع ذلك فقد رأى هورياديس جندياً ليدياً ، فى اليوم السابق ، يهبط من تلك الصخرة بعد أن تدرجت خوذته من فوق قمتها ، ورأه يلتقطها ويصعد بها ثانية . عند ذلك بدأ يفكر فيما شاهده ، ووضع فى نفسه خطوة . فقام وتسلق الصخرة بنفسه ، وهذا حذوه الرجال الفارسيون الآخرون ، حتى صار فوق قمتها عدد كبير . وهكذا سقطت سارديس ونهب جميع ما فيها .

أما كرويسوس نفسه ، فهذا ما أصابه من جراء سقوط عاصيته . كان له ابن سبق أن تحدثنا عنه ، وكان شاباً قوياً ، إلا أن غيبة الوحد هو أنه كان أصم وأبكم وقد عمل كرويسوس ، فى أيام عزه ، كل مافي وسعه من أجل هذا الابن . ومن بين ماعمله أنه أرسى يشتير وحي دلفي بشأنه ، وهاك الرد الذى جاءه من الكاهنة :

أيها الملك الليدى الواسع السلطان، يا كرويسوس الساذج المدهوش لا ينبغي قط أن تسمع فى قدرك صوت من تتوسل من أجله أن ينطق بأصوات حكيمه . فمن الأفضل أن يظل ابنك صامتاً ! ياويلاته ! ويع اليوم الذى تسمع فيه أذنك صوته لأول مرة .

عندما سقطت المدينة ، كان أحد القرس على وشك أن يقتل كرويسوس غير عارف شخصيته . ورأى كرويسوس الرجل منقضاً عليه ، وتحت ضغط مصيبيته لم يهتم بأن يتحساشى الضربة ، اذ لم يكتثر لأن تكون هي الضربة القاضية . بيد أن ابنه الأبكم ، عندما أبصر الفارسي مندفعا نحو والده ارتعى خوفا ، ومن هول ذغره انطلق لسانه فقال : « ابتعد ، أيها الرجل ، ولا تقتل كرويسوس . » فكانت هذه أول مرة

تطق فيها بكلمة في حياته كلها ، وبعد ذلك استعاد قوة الكلام بقيمة
عمره .

هكذا سقطت سادريس في يد الفرس ، ووقع كرويسوس نفسه في
قبضتهم بعد أن حكم أربعة عشر عاما ، وحصور في حاضرة ملكه أربعة عشر
يوما . وبهذا تحققت نبوة الوحي الذي قال : انه سيخرب امبراطورية
قوية ، فقد خرب امبراطوريته هو نفسه وليس امبراطورية الفرس . بعد
ذلك قام جنود الفرس الذين أسروا كرويسوس بنقله إلى ملكهم كوروس .
فأمر هذا الأخير بعمل كومة حريق ضخمة ، ووضع كرويسوس فوقها
مقيدا بالسلاسل ، ومعه أربعة عشر من أبناء ليديا . ولست أدرى ما إذا
كان كوروس قد اعتزم تقديم القرابين لاله ما ، من باكرة ثمار انتصاره ،
أو إذا كان قد نذر نذرا وشرع يوفيه عند ذاك ، أو ما إذا كان قد سمع
أن كرويسوس رجل مقدس ، ورغم في أن يرى ما إذا كان أحد الشخصيات
السماوية سيظهر لإنقاذه من الحرق حيا . وبينما كان كوروس مشغولا
في عمله ، وكان كرويسوس فوق الكومة ، مرت بذهن هذا الأخير وهو
في أشد حالات محنته أن هناك تحذيرا مقدسا في الالفاظ التي سمعها
من فم سولون : « ما من أحد يكون سعيدا وهو حي » . فعندما تذكر هذه
العبارة تنفس نفسا عميقا ، وخرج عن صحمته الطويل ، وصاح بأعلى
صوته مرددا اسم سولون ثلاث مرات . فطرقت سمع كوروس تلك
الاصوات ، وأمر المترجمين بأن يستفهموا من كرويسوس عنمن كان
ينادي . فاقربوا منه وسائلوه ، ولكنه لزم الصمت ، وظل مدة طويلة
لا يجيب عن أسئلتهم ، حتى اضطر أخيرا إلى أن يقول شيئا ، فصاح
 قائلا : « انه رجل ، أدفع أعز ما عندي لأراه يتحدث إلى كل ملك » . ولما
لم يفهم المترجمون المعنى الذي يقصد بهدا الرد ، رجوه في أن يفسر لهم
كلامه . ولما ألحوا عليه في طلب الرد وبدأ عليهم القلق ، أخبرهم
كرويسوس كيف جاءه سولون الآثيني منذ مدة طويلة ، ورأى كل عظمته ،
فاستخف بها . وكيف أن كل ما قاله قد تحقق الآن . وبرغم أن ذلك كان
شيئا خاصا به وحده ، إلا أنه ينطبق على الجنس البشري عامه ، ولا سيما
على من يعتبرون أنفسهم سعداء . وبينما كان يتكلم ، أضرمت النار في
الكومة ، وبدأ جزؤها الخارجى يشتعل . بعد ذلك سمع كوروس من
المترجمين ما قاله كرويسوس فلانت غريكته وتحركت في نفسه عاطفة
الشفقة ، وفكر في أنه هو نفسه انسان ، وأن كرويسوس انسان مثله ،
وكان من قبل ممتنعا بتعيم الحظ مثله أيضا ذلك الذي سيحرق حيا ،
واذ خاف تبكيت الضمير ، وتسلطت على ذهنه فكرة أن كل ما هم بشر

فليس بأمن . وعلى ذلك أمر رجاله باطفاء النيران المتأججة بكل مافي مكتفهم من سرعة ، وأن ينزلوا كرويسوس ومن معه من الليديين من فوق الكومة . بيد أن أحدا لم يستطع التغلب على اللهب المستمر .

بعد ذلك ، كما يقول الليديون ، عندما رأى كرويسوس الجهد الذي بذله الجنود في اخماد النيران ، عرف أن كوروس قد ثاب إلى رشده وعادته الشفقة ، ولما رأى كذلك أن لا فائدة من جهودهم ، وإن أولئك الرجال لن يستطيعوا السيطرة على النيران ، صاح بأعلى صوته ينادي الإله أبوالوهاب Apollo وصل إلى ان كان قد تسلم على يديه أية هدايا مقبولة ، أن يأتي ويخلصه من ذلك الخطر المحدق به . ولما كان يتولى إلى ذلك الإله والدموع تنهر غزيرة من عينيه ، وعلى الرغم من أن السماء كانت صافية الأديم وقتذاك ، وليس في الجو أي نفحة من الريح ، فقد تجمعت السحب الدكنا وذهبت العاصفة فوق رؤوسهم ، ونزل المطر وابلأ حتى أطفئت النيران بسرعة . واذ اقترب كوروس بتلك الظاهرة تأكد أن كرويسوس لا بد أن يكون رجلا طيبا ومحبوبا لدى السماء . فسألته بعد أن أنزلوه من فوق الكومة : « من الذي حرضك على أن تقود جيشا وتهاجم به مملكتي فصررت عدوى بدلا من أن تستقر صديقان لي ؟ » فأجاب كرويسوس قائلا : « اعلم ، أيها الملك ! أن ما فعلته قد أتي عليك بالنفع وباء على بالخسران . فان كان هناك لوم فانما يقع على الله الأغريق الذي شجعني على أن أبدأ الحرب . لم تبلغ درجة الغباء بأحد أن يفضل الحرب على السلم . تلك الحرب التي جعلت الآباء يدفنون أبناءهم ، بدلا من أن يدفن الآباء آباءهم بيد أن هذه هي مشيئة الإلهة » .

هذا ما قاله كرويسوس . فأمر كوروس بفك قيوده ، وأجلسه قريبا منه ، وبالغ في احترامه ، ناظرا إليه بكل تقدير واعجاب ، وكذلك فعلت العاشية . فظل كرويسوس غارقا في التفكير لا ينبس ببنت شفة . وبعد برهة حانت منه التفاتة فأبصر الجنود الفارسيين منهمكين في نهب المدينة ، فقال لكوروس : « أتسماح لي ، أيها الملك ، بأن أصارحك بما يحول في خاطري ، أم السكوت أفضل ؟ » فأمره كوروس بأن يتكلم بما في ضميره بكل جرأة . فسأله كرويسوس : « ماذا يفعل أولئك الرجال ، وما الذي يشغلو أنفسهم به إلى هذه الدرجة ، يا كوروس ؟ » قال : « إنهم ينهبون المدينة ويخذلوا أموالها ونفائسها » . قال : « ليس هذه مدineti ولا أموالي . لم تصبح هذه ملكا لي بحال ما . إنها ثروتك هذه التي ينهبونها » .

أعجب كوروس بما قاله كرويسوس، فأمر جميع حاشيته بالانسحاب بعيداً، ثم سأله عن أنساب شيء يمكن أن يفعله أزاء هذا النهب . فاجاب كرويسوس بقوله : « بما أن الإلهة جعلتنى عبداً لك ، يا كوروس ! يبدو لي أنه من واجبى أن أوضح لك ما أراه من صالحك . ان رعاياك الفارسيين قوم فقراء ذوو روح مزهوة . فإذا سمحت لهم بنهب المدينة وامتلاك أموالها وكنوزها ، فلا تتوقع منهم الا أن يتغلب عليك من ينال منهم من الشرفة أكثر من الجميع . فإن راقيك حدثى هذا ، فافعل ما أشير به عليك ، أيها الملك : ضع بعضاً من حرسك الخاص عند كل باب من أبواب المدينة ، ومرهم بأن يأخذوا الغنائم من الجنود وهم خارجون ، وأن يخبروهم بأنهم يجمعون الغنائم لأنه يجب تقديم العشور لجوبيتر . بهذا يمكنك أن تتجنب العداوة التي يشعرون بها نحوك لو أخذت الغنائم منهم بالقوة . وعندهما يجدون أن ما اقترحه عليك عدل وواجب ، فانهم سيقدمون مانهبوه عن طيب خاطر » .

أما سرور كوروس بهذه النصيحة ، فحدث عنه ولا حرج ، اذ رأها عين الصواب فأثنى على أصلالة رأى كرويسوس أجمل النساء وأعظمه وأمر حرسه الخاص بأن يفعل كما اقترح . ثم استدار إلى كرويسوس ، وقال له : « أيا كرويسوس ! إنك لبالغ الحكم حقاً في أقوالك وفي أفعالك . وإنك لمعتم حقاً أن تبرهن على أنك أمير مخلص وفي . أطلب مني ما تشاء كهدية لك » . فقال كرويسوس : « أى سيدى ! أرجو أن ترسل هذه السلسل والأصفاد إلى الله الأغارة الذي كنت أجله فوق سائر الإلهة ، واسأله ما إذا كان يهمه أن يخدع من يقدمون له الخيرات - سيكون هذا أعظم معرفة يمكنك أن تمنحي إياه » . وعندهما سمع كوروس كلامه هذا ، سأله عن التهمة التي يوجهها إلى ذلك الرب . فقصص عليه كرويسوس كل ما فعله ، والردود التي جاءته من الوحي ، والهدايا التي أرسلها إليه ، والذبائح التي قدمها له . كما أخبره كيف شجعه الوحي على أن يشن الحرب على فارس . روى له كل هذا ، وفي النهاية طلب السماح له بزجر ذلك الإله على مسلكه . فقال كوروس ضاحكاً : « سأمنحك هذا ، بغير شك ، وكل ما تطلبه مني في أي وقت » . فلما رأى كرويسوس أجابتة إلى طلبه ! أرسل بعض الليديين إلى دلفي وأخبرهم بأن يضعوا أغلاله على عتبة المعبد ويسألوا الإله بقولهم : « ألا يخجل من تشجيعه كرويسوس على تخريب امبراطورية كوروس بأن يشن الحرب على فارس . فكانت أولى ثمرات تلك الحرب هذه السلسل ؟ » . وبعد أن

يقولوا هذا ، عليهم أن يشيروا إلى السلسل ، ويقولوا : « هل من عادة آلله الأغريق أن ينكروا الجميل ؟ »

ذهب الليديون إلى دلفى ، وقاموا برسالتهم ، فرددت عليهم الكاهنة بقولها : « من المستحيل ، حتى على أى الله ، أن يفلت من القضاء المحتوم . لقد عوقب كرويسوس عن جريمة اقترفها خامس أسلافه ، ذلك الذى عندما كان حارسا خاصا في الأسرة الهرقلية ، اشترك فى مؤامرة قامت بها سيدة ، فقتل سيده واغتصب عرشه بغير حق . فقرر أبولو ألا تسقط سارديس فى حياة كرويسوس ، بل أجلسها إلى عهد ابنه . ومع ذلك ، فلم يستطع مقاومة الأقدار . لقد وهب كرويسوس كل ما سمحت به الأقدار . أخبروا كرويسوس بأن أبولو أجل سقوط سارديس ثلاث سنوات كاملة ، وأنه صار أسيرا بعد الموعد الذى حدد ليقع فيه فى الاسر ، بثلاث سنوات . وعلاوة على هذا ، فإن أبولو هو الذى خالصه من الاحتراق حيا فوق الكومة ولا حق لكربيادوس فى أن يشكوا من الاجابة التى تلقاها من الوحي . اذ عندما أخبره الوحي بأنه اذا هاجم فارس خرب امبراطورية قوية ، كان يجب عليه ان كان حكيمًا ، أن يرسل ثانية ويستفهم عن الامبراطورية التى يقصدها الوحي : هل هي امبراطورية كوروس ، أو امبراطوريته هو نفسه . وبما أنه لم يفهم ما قيل ، ولم يكلف نفسه مثونة السؤال عن تفسير ما غمض عليه ، فلاحق له فى آن يلوم غير نفسه عما حدث . وزيادة على هذا ، فقد أساء فهم الرد الاخير الذى قيل له عن البغل لأن والدى كوروس كانا من جنسين مختلفتين ومن طبقتين مختلفتين أيضا : فأنمه أميرة ميدية ، هي ابنة الملك استياجيس ، وأبوه فارسى من عامة الشعب ، تزوج من سيدته الملكة رغم جميع الاعتبارات . »

هكذا كان رد الكاهنة . فلما رجع الليديون إلى سارديس وأفضوا إلى كرويسوس بكل ما سمعوه ، اعترف بأنه المخطئ وليس الإله هذه هي الكيفية التى هزمت بها أيونيا لأول مرة . وبهذا انتهت امبراطورية كرويسوس .

الفصل السادس

أَسْطُوْرَةٌ كُورُوسٌ

أوضحنا فيما سبق كيف وقع الميديون تحت نير الحكم الفارسي . ومن سياق التاريخ ، أرانى مضطراً إلى البحث عنمن يكون كوروس هذا ، الذى خرب الامبراطورية الليدية ، وبأية وسائل صار الفرس سادة آسيا كلها . وستأتى هنا روايات المصادر الفارسية التى يبدو أن هدفها ليس تفخيم الفتوحات الفارسية ، بل ذكر الحقيقة المجردة وعلاوة على هذا ، فانى أعرف ثلات طرق أخرى تروى بها قصة كوروس ، وكلها تختلف عن روايتها لها .

كان يعيش فى فارس رجل ميدى يدعى ديوكيس ، ابن فراورتيس و كان على قدر بالغ من الحكمة . فأدرك حاجته إلى التمتع بسلطان الملك ولکى يحصل على ما يطمح إليه ، كون لنفسه خطة وعمل على تنفيذها بالطريقة الآتية : لما كان الميديون يعيشون ، فى ذلك الوقت ، فى قرى متنتشرة دون أن تحكمهم أية سلطة مركزية ، سادت الفوضى وانتشرت السرقة والنهب والقتل فى جميع أنحاء البلاد و كان ديوكيس لهذا ذا مكانة محترمة فى قريته . فقرر أن يلتزم هو نفسه الاستقامة والجد ، ويراعى العدل فى الحكم بين المتنازعين من زملائه . كان العدل والظلم فى حرب دائمة . وعلى ذلك شرع يسلك مسلكاً مستقيماً ظاهراً . وسرعان ما لاحظ أهل قريته أمانته ونزاحته ، فانتخبوه قاضياً يفصل فى منازعاتهم . وما كان يضع نصب عينيه أن يصير ملكاً ، أبدى منتهى الأمانة والعدل فى أحکامه . وبذا نال منزلة سامية بين أهل قريته ، حتى جذب إليه أنظار أهالى القرى المحيطة . كان الأهلون فيما مضى يعانون الأمرين من الظلم وأحكام الاستبداد ، لدرجة أنهم عندما سمعوا عن استقامة ديوكيس

واحقيقه الحق بصورة منقطعة النظير ، صاروا يلجهون اليه فى شئى منازعاتهم وقضياهاهم ، حتى أصبحوا لا يشقون فى أحد غيره .

كان عدد الشكاوى التى تقدم اليه فى ازدياد مطرد ، كلما عزم الناس بعدل أحكامه . فلما شعر بأهميته بين مواطنه ، أعلن أنه لن ينظر فى القضايا بعد ذلك ولم يعد يظهر فى المكان الذى اعتاد الجلوس فيه للفصل فى القضايا واقامة العدل قائلا : « إن مما يتعارض ومصالحه أن يقضى اليوم كله فى تنظيم شئون غيره من الناس ويهمل أمور نفسه » . ولذلك اجتمع الميديون من كافة البلاد وعقدوا مجلسا يتشاورون فيه فى أمور دولتهم . وكان معظم الخطباء على ما اعتقد من أصدقاء ديوكييس . فكانوا يقولون : « لا يمكننا الاستمرار فى المعيشة بهذه المملكة فى حالتها الراهنة . وعلى ذلك ، هيا بنا نعين لـنا ملكا يحكم البلد بالعدل ويضرب على أيدي المفسدين . وبـذا نستطيع ، نحن أنفسـنا أن نلتـفت إلى شـئونـنا الـخـاصـة ولا نضـطر إلى ترك وطنـنـا بـسبـبـ هذهـ الفـوضـى » . فـتأـتـرـ المجلسـ بهـذهـ الحـجـيجـ وـقـرـرـ تعـيـينـ مـلـكـ .

بعد ذلك كان على الجميع أن يتشاوروا فيما ينتخبونه لهذا المنصب وعندما فتح باب المناقشة ، كان كل لسان يذكر اسم ديوكييس ويفيض عليه بالثناء والمديح حتى أجمعوا كلهم على تنصيبه ملكا عليهم . عند ذلك وجد أنه بحاجة إلى قصر يتافق ومنزلته ، وحرس خاص له . فأجاب الميديون رغبته وبنوا له قصرا عظيما قوى البناء^(١) فى الموضع الذى اختاره بنفسه ، وأعطوه الحرية فى انتقاد حرسه الخاص من بين أفراد الأمة كلها وبعد أن جلس على العرش ، طلب منهم بناء مدينة كبيرة واحدة وان يهجروا القرى الصغيرة التى كانوا يقيمون فيها من قبل ، وبـذا تكون العاصمة الجديدة موضع اهتمامهم فأطاع الميديون هذه المشيـةـ أـيـضاـ ، وـبنـواـ المدينةـ التـىـ أـطلـقـواـ عـلـيـهاـ اسمـ أجـباتـاناـ Agbatanaـ وكانتـ ضـخـمةـ الاسـوارـ قـويـتهاـ ، تـرـتفـعـ فـىـ دـوـائـرـ ، وـاحـدةـ دـاخـلـ أـخـرىـ . كانـ تصـمـيمـ المـديـنـةـ أـنـ يـرـتفـعـ كـلـ سـورـ عـنـ الآـخـرـ بـمـقـدـارـ الـأـبرـاجـ المـقـامـةـ فـوقـهـ وـسـاعـدـ عـلـىـ ذـالـكـ بـعـضـ الشـىـءـ ، طـبـيـعـةـ أـرـضـ التـلـ الذـىـ بـنـيـتـ عـلـيـهـ المـديـنـةـ ؛ اـذـ كـانـ مـعـتـدـلـ الـانـحدـارـ ، أـمـاـ الـفـضـلـ الـأـكـبـرـ فـىـ اـتـمـاـهـاـ عـلـىـ تـلـكـ الصـورـةـ فـكـانـ لـلـفـنـ . كانتـ الاسـوارـ مـكـوـنـةـ مـنـ سـبـعـ دـوـائـرـ يـتوـسـطـ آـخـرـ دـائـرـةـ مـنـهـاـ قـصـرـ المـلـكـ

(١) يقول بوليبوس ان محيط القصر الملكي في أجباتانا كان سبعه استادات (الاستاد = ٥٨٢ فدما)، فيكون طول محيطه اكثـرـ مـنـ أـربـعـةـ أـخـمـاسـ المـيلـ أـيـ حـوـالـيـ ١٢٥٠ مـترـاـ .

وبيت المال . كان السور الخارجي على غرار سور اثينا . وكانت أبراجه بيضاء اللون ، وابراج السور الثاني سوداء ، والثالث حمراء ، والرابع زرقاء ، والخامس برتقالية . وقد طلبت كل هذه الابراج بالطلاء الملون . أما أبراج السورين الآخرين فقد كسيت بالفضة والذهب على الترتيب .

صنع ديوكييس كل هذه التحصينات من أجل نفسه ومن أجل قصره . أما الشعب فكان عليه أن يبني بيته خارج نطاق الاسوار . ولما انتهى من بناء المدينة بدأ ينظم قواعد التشريفات الملكية . فلم يسمح لأحد بالاتصال بالملك مباشرة ، وإنما يكون اتصال الشعب به عن طريق الرسل . وحرم على أفراد الرعية رؤية ملكهم . كما حرم على أي فرد ، مهما كانت منزلته أن يضحك أو يبصق في حضرة الملك . وضع ديوكييس هذه المراسيم ، التي كان أول من ابتدعها ، ضمانا لسلامته . لأن نبلاء مملكته الذين نشروا وتربوا معه ، و كانوا من أصل عريق حقا ، وليسوا أقل منه في صفات الرجولة ، اذ اختلطوا به كثيرا ، تأثروا من رؤيته متفوقا عليهم . وبذا لا يستبعد أن يدبروا المؤامرات ضده . بينما اذا امتنعت عليهم رؤيته ، ظنوه من طينة غير طينتهم .

بعد أن أتم ديوكييس هذه الترتيبات ، ووطد مرکزه على العرش ، استمر يفصل في القضايا بنفس العدل الذي كان يحكم به من قبل . كانت القضايا ترسل إليه كتابة ، فيفصل فيها ويصدر حكمه . ثم تبلغ الأحكام إلى أطراف النزاع . وعلاوة على هذا ، كان له جواسيس وعيون في جميع أنحاء مملكته ، يبلغونه عن كل ما يرون من أعمال الظلم والترويج على القانون ، وعندئذ ينال الأئم العقاب الذي يتفق وما ارتكبه من آثم .

وهكذا جمع ديوكييس الميديين في أمة واحدة ، وحكمهم بمفرده .

توفي ديوكييس بعد أن حكم ثلاثة وخمسين عاما فتولى الحكم بعده ابنه فراورييس . لم يقنع هذا الامير بمتلكاته التي لم تتجاوز الامة الميدية فحسب . فبدأ في توسيع مملكته بمحاجمة الفرس . سار اليهم على رأس جيش فأخضعهم تحت نير الحكم الميدي قبل أية دولة أخرى . فاصبح بعد نجاحه في تلك الحرب ملكا على أمتين بالمعنى القوة . ثم شرع في فتح آسيا ، متغلبا عليها منطقه بعد أخرى . واخيرا اشتربك في حرب مع الآشوريين الذين كانت تتبعهم نينوى والذين كانوا من قبل سادة آسيا ، في ذلك الوقت تمرد عليهم حلفاؤهم وتخلىوا عن مساعدتهم ، فوقفوا وحدهم في القتال . ومع ذلك ، كانت أحوالهم الداخلية مزدهرة كما كانت من

قبل . ولما هاجمهم فراورتيس، هلك في حملته عليهم هو ومعظم جيشه . وبذا مات بعد أن حكم الميديين اثنتين وعشرين سنة .

بعد موت فراورتيس خلفه على العرش ابنه كياكساريس ويروى عنه انه كان محبا للقتال أكثر من أي ملك آخر من أسلافه . وأنه أول من نظم الجيوش في آسيا ، وقسم الجنود إلى كتائب . وجعل الرماحين قسما منفصلا عن النبالين وعن الفرسان بعد أن كانوا مختلطين معا قبل ذلك ، كان ذلك الملك هو الذي حارب الميديين عندما تحول النهار فجأة إلى ليل . وأخضع لحكمه جميع دول آسيا إلى ما بعد بحر هاليس . جمع ذلك الملك كل الأمم الخاضعة لحكمه وسار بهم لمحاربة نينوى ، معتمداً على الأخد بشار أبيه ، ومؤمناً أن ينتصر في غزو هذه المدينة ، فالتحسم البيشان في معركة هزم فيها الآشوريون . وبذل كياكساريس بحصار المدينة ، فإذا بجيشه عرم من السكوثيين يهجم عليهم بقيادة الملك ماديس ، وكاد يطارد الكيميريين من أوربا . وهكذا دخل السكوثيون الأراضي الميدية .

بعد أن غزا السكوثيون ميديا ، وجدوا معارضة قوية من الميديين الذين اشتربكوا معهم في حرب شعواء . ولكنهم هزموا في النهاية وفقدوا أمبراطوريتهم . وبذل أصبح السكوثيون سادة آسيا .

لم يقنع السكوثيون بذلك النصر ، فتقىدوا في سيرهم قاصدين غزو مصر . بيد انهم عندما وصلوا إلى فلسطين ، قابلهم بساميتيكوس ملك مصر بالهدايا والتضرعات . وبذل نجح في وقف تقدمهم إلى بلاده . وعند عودتهم مرروا بمدينة اسكالون في سوريا^(١) فسار الجزء الأكبر منهم في طريقه دون احداث أي ضرر . أما القلة التي كانت في المؤخرة فنهبت معبد فينيوس السماوي^(٢) وقد استفسرت عن هذا الامر فعلمت أن معبد اسكالون هو أقدم المعابد المكرسة لتلك الربة . اذ بني معبدها في قبرص باعتراف القبرصيين انفسهم محاكاة لمعبدتها في اسكالون . أما معبدها الموجود في كثيرة فبناء الفينيقيون التابعون لذلك الجزء من سوريا . وقد عاقبت هذه الربة السكوثيين الذين نهبوها بأن سلطت عليهم المرض

(١) كانت اسكالون من أقدم مدن فلسطين(القناة ١، ٨، ١٤، ١٩، وغيرها). جاء ذكر اسكالون لأول مرة في المخطوطات المسماوية في مصر سيناكريب الذي فتحها في حملته الشهيرة التي قام بها في السنة الثالثة من حكمه .

(٢) ربما يقصد هيرودوت الربة السورية ايرجليس او ديركينو التي كانوا يعبدونها في اسكالون وفي سائر المدن السورية . وتصور في هيئة حورية - بحرية نصفها الملوى لامرأة والسفلي لسكة . ويمكن تشبيهها باسترائي ومن ثم بفينوس الاغريقية .

الانثوى (ربما يقصد هيرودوت بهذا المرض ، الولع الشديد بالنساء) الذى لا يزال عالقاً بذريتهم . ويعترف أولئك السكوثيون بأنهم أصيروا بهذا المرض بسبب نهبهم ذلك المعبد . ويستطيع السائحون الذين يزورون سكوسياً أن يعرفوا أي نوع من الامراض هذا الذى سلطته عليهم تلك الربة . ويطلق على من يصابون به اسم *Inarees*

ظل السكوثيون يحكمون آسيا مدة ثمان وعشرين سنة ظهروا فيها منتهى الوقاحة والغطرسة والاستبداد حتى عم الخراب كل مكان . ففضلاً عن الجزية المعتادة فرضاوا كثيراً من الضرائب الإضافية على عدة أمم ، وكانوا يحددونها حسبما يتراهى لهم . وعاثوا فساداً في طول البلاد وعرضها ونهبوا من جميع الأفراد كل ما أمكنهم نهبه . واخيراً وقد بلغ السيل الزيبي ، دعا كياكساريس والميديون أكبر عدد منهم إلى وليمة قدموا لهم فيها كميات وافرة من الخمر حتى سكرروا . عندئذ أعملوا فيهم التقطيل حتى أبادوهم عن بكرة أبيهم . وبعد ذلك استعاد الميديون إمبراطوريتهم بكلام حدودها السابقة . فأخذوا نينوى - وسأروي كييفية أخذهم إليها في باب آخر - وفتحوا جميع آشور ماخلاً منطقة بابل . وبعد ذلك مات كياكساريس وقد حكم الميديون أربعين سنة بما فيها المدة التي حكم فيها السكوثيون .

ورث استياجيس ابن كياكساريس العرش بعد أبيه . وكان له ابن تدعى ماندانى وذات ليلة ، رأى فيما يراه النائم حلماً عجيباً بخصوصها رأى أن تياراً عظيماً من الماء تدفق منها ، ولم يملأ عاصمتها فحسب ، بل وغمر جميع آسيا . فعرض رؤياه على الكهنة Magi الذين لهم موهبة تفسير الأحلام . فأخبروه بمعناه تماماً . فلما سمع تأويلهم ذعر ذرعاً بالغاً . وعلى هذا عندما كبرت ابنته وبلغت سن النضج ، لم يزوجها لأحد من الميديين ذوى المستوى المناسب ، لئلا يتتحقق الحلم . وإنما زوجها لرجل فارسي من أسرة طيبة حقاً ، وكان هادىء الطباع يعتبره الملك أثلي منزلة من أي رجل ميدى متوسط الحال .

هكذا تزوج قمبيز (وهو اسم الرجل الفارسي) ماندانى ، وفي السنة الأولى لزواجه ، رأى استياجيس حلماً آخر . رأى كرمة نبتت من رحم ابنته وطللت جميع آسيا . وبعد أن عرضه أيضاً على مفسرى الأحلام ، أرسى في استدعاء ماندانى " التي كانت وقتناك حبل في شهورها الأخيرة . وعندما حضرت إليه ، أقام عليها الحراسة معتزماً قتل الطفل الذي تلدده . لأن الكهنة أخبروه بأن مولود ابنته سيحكم آسيا بدلاً منه . ولكن يتحاشى استياجيس حدوث هذا ، ما أن ولدت ابنته طفلها كوروس ، حتى أرسى

يستدعي هارباجوس وكان رجلا من أفراد بيته ، كما كان أخلص ميدى للملك الذى اعتاد أن يعهد إليه بجميع شئونه فقال له : « انى آمرك يا هارباجوس ألا تهمل فى العمل الذى سأعهد به إليك . لا تخن مصالح مليكك من أجل خاطر الآخرين ، لئلا تجلب الحراب على رئيسك فى أى وقت تظهر فيه خيانتك . خذ الطفل الذى ولدته ابنتى ماندانى ، معك الى بيتك حيث قتله ؛ ثم ادفعه . » فأجاب الآخر ؛ قائلا : « لم يحدث أن عصى هارباجوس لك أمرا فى وقت يا ميدى . كن على يقين من أنه سيظل كذلك فى المستقبل جميعه ولن يأتي أمرا قط يمكن أن تستثنى منه . فطالما كانت مشيئتك أن يتم هذا الامر ، فمن واجبى أن أنفذ أمرك بكل أخلاص . »

عند ما سمع الملك اجاية هارباجوس هذه ؛ سالمه الطفل ملفوفا فى ثياب الموت . فأسرع الاخير الى منزله يبكي . فاما بلغه ، وجد زوجته ، فقص عليها الخبر ، فقالت : « وماذا تنوى ، في دخيلة نفسك ، أن تفعل الآن ؟ » قال : « لن أنفذ رغبة استياجيس . فلن يكون فى أى وقت ، أشد جنونا ولا تهورا ، منه الآن . ولكنني لست بذلك الرجل الذى يوافقه على هذا أو يساعده على القتل بهذه الصورة . هناك عدة أسباب تمنعنى من قتل الطفل . فأولا : ينتمى الى هذا الطفل من ناحيتى القرابة والصداقه وثانيا : ان استياجيس رجل عجوز لا ولد له . فإذا مات ، ورثت ابنته التاج - ابنته التى يريد أن يستخدمنى فى قتل ابنها هذا - فماذا يبقى لي اذن ، غير الخطير ، وأشد الاخطار هو لا ؟ حقا ، يجب أن يموت الطفل حفظا لسلامتى . ولكن شخصا ما ، من أتباع استياجيس ، هو الذى سيقتلها ، ولست أنا ، أو أحد من أتباعى . »

ما ان قال هذا حتى بعث رسولا يطلب حضور رجل يقال له ميترادايس وهو أحد الرعاة التابعين لاستياجيس ؛ اذ كان هارباجوس يعرف أن مراعيه أنساب مكان يتم فيه هذا الفرض ، لأنها تقع وسط الجبال وتؤمها الودوش الكاسرة . وقد تزوج هذا الرجل احدى اماء الملك واسمها الميدى سباکو ؛ ومعناه بالاغريقية كونو ومعنى المفظ الميدى « خنزيرة » وتقع الجبال التى ترعى الماشية على جوانبها ، شمالى أجباتانا ! جهة ايوكسين وهذه الاخيره منطقة ميدية على حدود ساسيريا عبارة عن مرتفع كثير الجبال ومكسو بالغابات ، بينما سائر الاراضى الميدية الاخرى سهل منبسطة .

أسرع ذلك الراعى بتلبية نداء هارباجوس . فلما وصل اليه ، قال

له الاخير : « يأمرك استياجيس بأن تأخذ هذا الطفل وتضعه في أكثر مناطق الجبال خطرا ، حيث تفتت به الوحش بسرعة . كما أمرني أن أخبرك بأنك اذا لم تقتل هذا الطفل ، وسمحت له بالهروب ، بطريق ما ؛ فسيقتلك أشنع قتلة . وقد عيننى ، أنا نفسى لأنك من موت الطفل » .

بعد أن سمع الراعى هذا الكلام ؛ أخذ الطفل على ذراعيه ؛ وعاد به من الطريق التى جاء منها ؛ حتى بلغ الموضع الذى ترعى فيه قطعانه . ولحسن الحظ ، كانت زوجته حبل فى آخر شهورها فجأها المخاض فى غياب زوجها ، ووضعت طفلًا ذكرًا وكان كل من الراعى وزوجته فى قلق على الآخر . أما هو ، فيسببت ان زوجته كانت فى آخر أيام الحمل ويتوقع أن تلد طفلها الاول فى أية لحظة . وأما هي ؟ فلأن هارباجوس لم يسبق أن أرسل فى طلب زوجها قبل ذلك . فلما وصل إلى بيته ورأته زوجته يعود اليها على غير انتظار ، كانت أول من بدأ بالكلام ، ورجته فى أن يخبرها لماذا أرسل هارباجوس فى طلبه بهذه السرعة ، فقال لها : « زوجتى ! عندما ذهبت الى المدينة ، رأيت وسمعت أشياء – أقسام بالسماء ، أنتى لم أر مثلها يحدث لسادتى من قبل . كل فرد فى بيت هارباجوس كان يبكي ففزعنا غاية الفزع ، ولكنى برغم هذا دخلت البيت . وماذا رأيت بمجرد دخولى غير طفل فوق الأرض ؟ يصرخ ويتلوى ؟ وقد غطى كله بالذهب ؟ ولف بملابس جميلة الالوان . وما أن رأى هارباجوس حتى أمرنى بأن أحمل الطفل بين ذراعى وأنصرف به . وماذا تظنين أن أفعل به ؟ لأن أترى أنه فى الجبال حيث تكثر الوحش المفترسة ؟ وأخبرنى بأن الملك نفسه هو الذى أمر بهذا . وهددنى بالوعيد المخيف إن لم أطع أمره . وهكذا حملت الطفل على ذراعى وجئت به . وكنت أعتقد أنه ابن احدى اماء الملك . وقد أدهشتني حقا رؤية الذهب وملابس الطفل الجميلة . ولم أستطع تعليل مثل ذلك البكاء فى منزل هارباجوس . ولكن سرعان ما عرفت الحقيقة كلها . فقد أرسلوا معى خادما يدلنى على الطريق الى خارج المدينة ، ويسلمنى الطفل . فأخبرنى ذلك الخادم أن أم الطفل هي ماندانا ابنة الملك ، وأن أباه قمبيز بن كوروس . وأن الملك هو الذى أمر بقتله . وانظرى ، هنا هو الطفل » .

عند ذلك كشف الراعى الغطاء عن الطفل لترأه زوجته . فما أن رأت جماله وحسن شكله، حتى انحرفت فى البكاء وتعلقت بركمبى زوجها متسللة ألا يتصرف فى هذا الطفل بحال ما . فأجابها بأنه لا يستطيع أن يفعل غير ما أمر به . اذ من المؤكد أن هارباجوس سيرسل من يتأكد من تنفيذ الامر . وان خالف ، فلا ينتظر غير أشنع ميزة . فلما وجدت

الزوجة أنها أخفقت في أولى محاولاتها ، قالت ثانية : « اذن ؟ فبما أنه لا فائدة من أي توسل أو رجاء ، ولابد من رؤية طفل مقتول فوق الجبال فلا أقل من أن تفعل ما سأشير به عليك . خذ الطفل الذي ولدته ميتاً منذ لحظات ، ووضعه على الجبل . وبذا نربى نحن مولوداً ابنة استياجيس ، ولا تنهم أنت بعدم الاخلاص للملك ، ولا تكون قد أساءنا التصرف في صالح أنفسنا . سيحيطى ابنا الميت بجنازة ملكية ، ولا يقتل هذا الطفل العي . »

ووجد الراعي أن هذه المشورة هي خير رأى يمكن العمل به في مثل هذه الظروف . وعلى ذلك عمل بها في الحال . فأعطي زوجته الطفل الذي كان عليه أن يقتله ، وأخذ طفليه الميت ووضعه في المهد الذي حمل فيه الآخر ، بعد أن ألبسه جميع الملابس الملكية الفاخرة ، ثم انصرف بهفتركه في أشد مواضع الجبال وحقبية ، وبعد ثلاثة أيام ترك أحد مساعديه لحراسة الجهة ؛ وانطلق إلى المدينة ؟ فذهب مباشرة إلى بيت هارباجوس وأعلن استعداده لاطلاعهم على جثة الطفل . فأرسل هارباجوس رجال من حرسه الخاص ، كان يثق به أكثر من غيره ، ليرى الجثة بنفسه . ولما اقتنع برؤيتها ؟ أمر باقامة الجنازة . وهكذا دفن ابن الراعي . أما الطفل الآخر ، الذي عرف بعد ذلك باسم كوروس ، فأخذته زوجة الراعي ونشاته باسم آخر .

لما بلغ الصبي العاشرة من العمر حدث أمر ، سارويه الآن ، كان سبباً في اكتشاف حقيقة شخصيته . « كان يلعب ذات يوم في القرية حيث ترعى قطعان الماشية مع بعض غلمان من نفس سنّه . فاختار الصبيان ابن الراعي ، كما كانوا يسمونه ، ليكون ملكهم . فأخذ يصدر أوامره إليهم - بعضهم يبني له البيوت ، وآخرون يعملون حرساً له . ويكون أحدهم جاسوساً للملك ، وآخر يقوم بتوصيل الرسائل ، وهكذا كان لكل غلام من أصدقائه عمل في مملكته . وكان بينهم ابن أرتيمباريس أحد أعيان الميدلين المبرزين . ففرض ذلك الولد أن يقوم بما خصصه له كوروس من عمل . فما كان من كوروس إلا أن أمر بالقبض عليه . ولما نفذ أمره ، أخذ السوط فضربه به ضرباً مبرحاً وما أن أخل سبيل ابن أرتيمباريس حتى أسرع إلى المدينة وهو في أشد حالات الغضب مما أصابه على يدي ابن الراعي من ضرب لا يليق بمنزلته . وشكراً إلى والده والدموع تنهمر غزيرة من ماقية ، مالقيه من كوروس . وطبعاً لم يقل أن اسمه كوروس إذ لم يكن قد سمي بهذا الاسم بعد ، بل قال انه ابن راعي أبقار الملك . فانطلق أرتيمباريس والشرر يتطاير من عينيه ودخل

على استياجيس ، ومهه ولده ؛ فشكا اليه ما حل بابنه ؛ وأشار الى كتف الصبي وقال : « هكذا ، أيها الملك ؛ أهان كرامتنا أحد عبيدك .. ابن راع » .

عندما رأى الملك آثار الضرب ، وسمع هذه الالفاظ ، أراد أن ين擿ص لابن أرتيمباريس أكراما خاطر والده . فأرسل يستدعي الراعي وابنه . فلما مثلًا بين يديه ، أحدق استياجيس في عيني كوروس ، وقال له : « كيف أتتك الجرأة ، وأنت ابن رجل حقير كهذا ، أن تفعل ما فعلت يابن هذا النبيل ، الذي هو من أعظم أفراد حاشيته ؟ » فأجاب الصبي قائلاً : « مولاي ! لم أفعل به غير ما يستحق : لقد انتخبني صبيان القرية سلكا عليهم في اللعب لأنهم اعتقدوا أنني خير من يصلح لهذا المنصب . وكان هذا الغلام نفسه واحداً من انتخبواني . وقد فعل سائر الصبيان الآخرين ما أمرتهم بعمله الا هذا الصبي الذي رفض أمرى واستخف به ، حتى نال جزاءه الوفاق . فان كنت تستحق العقاب على هذا العمل ، فهأندا على استعداد لتنزله بي » .

بينما كان الصبي يتكلم ، شك استياجيس في شخصيته . خيل إليه أنه يرى في وجه الغلام ملامع تشبه ملامحه هو نفسه . كما أن هناك نيلاً في احبابه . وعلاوة على ذلك فإن سنه تنطبق وسن حفيده الذي أمر بقتله . واذ دهش استياجيس من كل هذا ، ظل صامتاً لا يستطيع الكلام فترة من الوقت . ثم استعاد قدرته بصعوبة ، ورغب في التخلص من أرتيمباريس كى يستطيع استجواب الراعي على انفراد ، فقال للالو: « أعدك ، يا أرتيمباريس ، بأن أسوى هذه المسألة بحيث لا تكون لك أو لابنك أي شكوى بعد ذلك . » فخرج أرتيمباريس من حضرته . ثم أشار الملك الى الخدم ، فأخذوا كوروس الى جناح داخلى . ولما بقى الملك والراعي وحدهما ، سأله من أين حصل على ذلك الصبي ، ومن الذي أعطاه ايابه . فأجاب الراعي بأن الصبي ابنه ، أنجبه هو بنفسه ، وأن الام التي ولدته لاتزال على قيد الحياة ، وتعيش معه في بيته . فلاحظ استياجيس أن الرجل وقع فريسة مشورة سيئة فأوقع نفسه في مثل هذا المأزق . فأصدر الملك أمره الى الحراس بالقبض عليه . وبينما كانوا يجرونه الى السجن ، بدأ القصة من اولها ، وقصن على الملك القصة من بدايتها كما حصلت فعلا دون أن يخفى شيئاً . وفي النهاية توسل الى الملك متضرعاً أن يمنحه العفو .

لما عرف استياجيس الحقيقة من الراعي ، لم يهتم بعقابه بعد ذلك ، ولكن غضبه كله انحصر في هارباجوس . فأمر الحراس باستدعائه

إلى حضرته ، فلما جاء سأله الملك : « بآية ميّة ، ياهارباجوس ، قتلت طفل ابنتي الذي سلمته إليك ؟ » « فلما أبصر هارباجوس راعي البقر في الحجرة ، لم يعمد إلى الكذب لثلا يظهر افتراوه وخيانته ، فأجاب بقوله : « مولاي ! عندما وضعت الطفل بين يدي ، أخذت أفكر من فورى في الطريقة التي أنفذ بها رغبتك ، فرأيت لا أحمل في رقبتي جرم تلويث يدى بالدم ، الذي كان في الحقيقة دم ابنتك ، ودمك أنت نفسك ، وأكون في الوقت ذاته مخلصاً لشخصك . وهكذا الطريقة التي عمدت إليها . استدعيت هذا الراعي وأعطيته الطفل ، وأخبرته بأن يقتله بأمر الملك . ولست كاذباً في هذا لأنك أمرت به وفضلاً عن هذا ، فلما أعطيته الطفل ، أمرته بأن يتركه في مكان موحش بالجبال ، ويراقبه من كثب حتى يموت وهددته بأقسى أنواع العقاب إن أهمل . وبعد أن نفذ كل مأمورته به ، ومات الطفل ، أرسلت أحد خصيانى الذي أثق به أكثر من غيره ، فرأى الجثة نيابة عنى . وبعد ذلك دفنت الطفل . هذه يا مولاي ؟ هي الحقيقة الخالصة . وهذه هي الميّة التي مات بها ذلك الطفل » .

هكذا روى هارباجوس القصة كلها بطريقة بسيطة صادقة . وعند ذلك لم يظهر استياجيس أية أمارة تنم عن غضبه الشديد ، بل أخذ يكرر على مسامعه ما عرفه من الراعي ثم أردف قائلاً : « وهكذا بقى الطفل حيا . وهذا خير ماعمل ، إذ سبب لي قتل الطفل حزناً شديداً ، وحزت في قلبي تعنيفات ابنتي حقاً ، لقد لعب الحظ دوراً خدمنا به في هذه المسألة ، انصرف إلى بيتك الآن ، وأرسل ابنك ليكون بصحبة هذا الضيف العزيز . وأنى لاعتزم تقديم الدبائح إلى الآلهة الذين يستحقونها شكراً على سلامه الطفل . ويسرنى أن أدعوك الليلة إلى الوليمة » .

عندما سمع هارباجوس قول الملك ، تنفس الصعداء ورجع إلى بيته مبتهجاً إذ وجد أن عدم طاعته أمر الملك كان من حسن حظه ، وأنه بدلاً من العقاب مدعو إلى مأدبة تقديم الشكر للآلهة بمناسبة هذا الحادث السعيد فما أن وصل إلى بيته حتى نادى ابنه ، وكان شاباً في حوالي الثالثة عشرة من العمر ، وحيد والديه ، وأمره بأن يتوجه إلى قصر استياجيس ويقوم بكل ما يطلب منه . وفي غمرة سروره ، ذهب إلى زوجته وأخبرها بكل ما حدث . في تلك الاثناء ، أخذ استياجيس الفلام ابن هارباجوس ، وذبحه ثم قطعه قطعاً ، شوى بعضها على النار ، وسلق بعضاً آخر منها . ولما أنهى من إعدادها جميعاً ، حفظها لوقت الحاجة إليها . ولما أقبلت ساعة الوليمة ، جلس المدعوون جميعاً إلى المائدة

وقدمت اليهم صنوف اللحم . أما هارباجوس فجلس وحده إلى مائدة خاصة ، لم يقدم له سوى لحم ابنه ليس غير . وضع أمامه جميع اللحم ماعدا اليدين والقدمين والرأس ، التي حفظت في سلة ووضع فوقها غطاء . ولما أكل هارباجوس كفايته من اللحم ، استدعاه إليه أستياجيس ليعرف منه كيف التذ بالوليمة . فأجاب بأنه تمنع بوليمة فاخرة . وعندئذ أحضر المختصون السلة ووضعوها أمام هارباجوس وطلبوها منه أن يكشف غطاءها ، ويختار لنفسه ما يحب منها . فرفع الغطاء عن السلة فرأى بداخلها بقايا جثة ابنه . ومع ذلك ، فلم يفقده منظرها رشده أو يخرجه عن صوابه . ولما سأله الملك عما إذا كان يعرف أي حيوان هذا الذي أكل من لحمه . أجاب بأنه يعرف حق المعرفة . وأن كل ما يفعله الملك جميل مقبول . وبعد أن رد عليه هكذا ، حمل معه بقايا الجثة وبعض قطع اللحم الطهية التي لم يأكلها ، وعاد إلى بيته ودفن تلك البقايا .

ذلك كان عقاب أستياجيس لهارباجوس . بعد ذلك ، شرع الملك يفكر فيما يعمله بحفيده كوروس . فأرسل إلى الكهنة الذين سبق أن فسروا له حلمه ، وسألهم عما يهم خاطره ، وكيف فسروه له . فأجابوه أجاية لا تختلف قط عما سبق أن قالوه : « يجب أن يكون هذا الولد ملكاً إذا كبر ولم يمت صغيراً . » فقال لهم أستياجيس : « ولكن الصبي أفلت من الموت ولا يزال حياً . لقد ربى في الريف ، واقامه أطفال القرية الذين يلعب معهم ملكاً عليهم . كان له حرسه الخاص ، وحجابه ، ومراسلوه ، وجميع الموظفين الآخرين اللازمين لخدمة الملك . فأخبروني أذن ، ما معنى هذا الأمر ؟ وماذا ينطوي عليه ؟ فأجاب الكهنة : « إذا كان الغلام قد عاش وحكم ملكاً دون تدبير أحد ، فإننا نبشرك بالفرح . لا تخف منه بعد ذلك فلن يحكم مرة ثانية . فقد سبق أن رأينا تكهنت كثيرة تتم بطريقة غريبة ، وأحلاماً أكثر منها تحققت بصورة عجيبة » . فلما سمع أستياجيس ردهم ، قال : « هذا ما فكرت فيه أنا نفسي ، وأميل إلى تصديقه . لقد صار الغلام ملكاً ؛ وبذلنا تم تحقيق الحلم ، وليس هناك ما يدعوا إلى الخوف منه بعد ذلك . ومع هذا ، فأرجو أن تهتموا بذلك الأمر غاية الاهتمام . ثم انصحوني بخيار النصائح الازمة لسلامة بيتي ومصالحكم ! انتم أنفسكم . فأجاب الكهنة قائلاً : « حقاً ، أيها الملك ، انه لمن صالحنا جداً أن تظل مملكتك ثابتة على أساس راسخ . اذ لو ذهبت الى هذا الصبي ، لوقعت في أيدي أجنبية ، لانه فارسي ؛ وعندئذ نفقد حريتنا نحن عشر المليدين ، ويحتقرنا الفرس ويعتبروننا أغراها . ولكن ، طالما تبقى ، يامواطننا ، فوق العرش ، فإننا نحظى بكل ما يحفظ شرفنا ، ومع ذلك فلسنا محرومين

«من نصيب فى حكمتك . اذن ؟ فهناك كثير من الاسباب تدعونا الى التنبؤ بعنایة من أجلك ومن أجلى مملكتك وان وجدنا أى داع للمخوف فى الوقت الحاضر ، فلن على يقين من أننا لن نخفى عنك . بيد أننا اقتتننا حقاً بأن الحالم قد تحقق بهذه الطريقة البريئة ، وبذا زالت جميع مخاوفنا واطمأنت نفوسنا ، ونطلب منك أن تترك مخاوفك أنت أيضاً . أما بخصوص الولد نفسه فاننا نصحح بارساله الى أبويه فى فارس » .

سر استياجيس عندما سمع تأويل السهرة ، وأرسل يستدعي كوروس ليتمثل بين يديه . فلما جاء قال له : «أى طفل ! دعاني حلم الى أن الحق بك الأذى ، غير أن ذلك الحلم انتهى الى لا شيء . وقد أنقذك من هذا الأذى حظك الحسن ارحل الآن مطمئنا الى فارس . وسأرسل معك من يرافقك في رحلتك وستحظى في نهاية تلك الرحلة برؤية أبيك وأمك الحقيقيتين ، وهما يختلفان تمام الاختلاف عن مفتراداتيس؟ راعي البقار ؛ وزوجته » .

صرف استياجيس حفيده بهذه الكلمات . وعندما وصل الغلام الى بيت قمبيز ، شاهد والديه اللذين عندما عرفا شخصيته ، عانقاوه بحرارة بعد أن كانا يعتقدان أنه قتل بعد ولادته مباشرة . وعلى هنا سؤاله كيف نجا من الموت . فأخبرهما بأنه لم يكن يعرف من أمره شيئاً الى ما قبل ذلك بفترة وجيزة . وكان مخطئاً كل الخطأ فيحقيقة نسبة ، ولم يعرفه إلا في أثناء الطريق وهو آت من ميديا . كان يعتقد انه ابن راعي البقار الملك . غير أن رسول الملك الذي رافقه في الرحلة قص عليه كل شيء . ثم تحدث عن زوجة الراعي التي ربيته ، وأفضى في الثناء عليها فكان يكرر دائماً ، في حديثه عن نفسه ؛ اسم كونو . كانت كونو كل شيء – فلما سمع أبواه الاسم من فمه ، أذاعا بين الفرس انه عندما ترك كوروس بين الجبال ، أرضعته خنزيرة . هذا هو منشأ تلك الاشاعة .

عندما بلغ كوروس مبلغ الرجال ، واشتهر بأنه أشجع وأبرز شخصية بين مواطنيه بدأ هارباجوس ، الذي صمم في دخلة نفسه على الانتقام من استياجيس؛ يتودد إليه ويبدى اخلاصه له بالهدايا وبالرسائل اذ كانت منزلته متواضعة لا يأمل بواسطتها في الانتقام بغير مساعدته أجنبية . فلما وجد أن كوروس ، الذي لقنه من الضرر ما يماثل ضرره ، قد أكبر بهذه الصورة ؟ رأى فيه من ينتقم له . فأخذ يعمل على تأييده ومساعدته في ذلك الأمر . ومهد الطريق فعلاً لتنفيذ خطته بأن أوعز إلى كثير من عظام النبلاء المدينيين ، الذين استأدوا من فظاظة ملوكهم وحكمة

الاستبدادي أن خير ما يمكنهم عمله هو أن يقيموا كوروس ملكاً عليهم ويخلعوا أستياجيس . فلما تمت هذه الاستعدادات ، وصار هارباً جوس مستعداً للثورة ؟ تلهف إلى ابلاغ نوایاه إلى كوروس الذي كان لا يزال مقيناً بفارس . بيد أن الحراسة كانت شديدة على الطريق بين فارس وميديا . ولذا كان عليه أن يتذمر وسيلة لتنصيل الكلمة إلى كوروس . فليجاً إلى الوسيلة الآتية : آخذ أربنا وشق بطنه دون أن يتلف فراءها . ثم وضع بداخل البطن خطاباً بكل ما يريد أن يقوله له . وبعد ذلك خاط البطن بعناية وأعطي الارنب إلى عبد من أخلص عبيده فتنكر العبد في زى صياد يحمل شبلاً الصيد ، وذهب إلى فارس يحمل ذلك الصيد هدية إلى كوروس . وأمره بأن يخبر كوروس شفويًا ، أن يفتح بطنه الارنب بنفسه دون أن يكون معه أحد في ذلك الوقت .

تم كل شيء كما أراد هارباجوس . عندما شق كوروس بطن الارنب، وجد بداخله الخطاب ، فقرأ فيه : « يا ابن قمبيز ! لا شك أن الآلهة ترعاك والا لما اجتازت كل هذه المغامرات العديدة العجيبة — هذا هو الوقت الذى تأخذ فيه بشأرك من استياجيس قاتلك . تذكر أنه كان ي يريد موتك . وانك لتدرين بحياتك الآن لي وللآلهة ، ولا أظنك جاهلا مافعله بك ، ولا مأصادبى على يديه بسبب أنى سلمتك لراعى الابقار ولم أقتلك . اصفع الى الآن وأطع مشورتى ، تصبح امبراطورية استياجيس كلها ملكا لك ادفع راية العصيان فى فارس ، ثم سر مباشرة الى ميديا . فسواء اختارنى استياجيس لقيادة قواته ضدك ، أو اختار غيري من أمراء ميديا ؛ فكل شيء سيعتم حسبما ترغب . سيعكونون أول من يتخللى عنده وينضمون الى جانبك ، وسيحاولون جهدهم تأليب قواته ضده . تأكد أن كل شيء ، من جانبنا ، على أتم استعداد . وما عليك الا أن تقوم بدورك وتقوم به على وجه السرعة .

ما ان علم كوروس بمضمون الخطاب حتى شرع يفكك فى السكيفية
التي يحيث بها الفرس على الثورة . وبعد تفكير طويل ، عزم على الفكرة
الآتية : كتب ما رأه لازما على قرطاس . ثم طلب عقد اجتماع للفرس .
فلما اجتمعوا أفضى اليهم بمحتويات القرطاس ، وقرأ فيه ان استياجيس
قد عينه قائدا عليهم . ثم قال : « والآن ؛ بما أن الامور صارت على هذا
النحو ، فاني آمر كل فرد منكم أن يحضر منجله ويهدود » . وبعد ذلك حرف
الاجتماع .

أطاع الفرس أمر كوروس ، وعادوا اليه بمناجلهم . فقد لهم الى يقعة من الأرض مربعة الشكل طول ضلعها ثمانية عشر أو عشرون

فور لنجا ، مليئة بالشوك . وأمرهم بتطهيرها من الاشواك قبل أن ينصرم النهار . ولما أنجزوا ما أمرهم به ، أصدر إليهم أمرا ثالثا : أن يستحم كل واحد منهم في صباح اليوم التالي ويأتي إليه . وفي أثناء ذلك ، جمع كل قطاع والده من الأغنام والماعز ، وكل ثيراه ، وذبحها جميعا ، واستعد لتقديم وليمة للجيش الفارسي برمته . كما أعد لهم خمرا وخبزا من أجود الانواع . وعند مطلع الغد ، جاء الفرس . فأمرهم بالجلوس على الحشائش والتتمتع بالوليمة وبعد أن أنهوا من الطعام والشراب ، طلب منهم أن يخبروه : « أيهما أللذ لهم ، عمل اليوم أم عمل الامس ؟ » فأجابوا على الفور « إن التناقض لعظيم حقا : فلم يأت لهم عمل الامس ، الا بكل قبيح شاق ، أما عمل اليوم فجاءهم بكل ما هو حسن لذيد » . فيما أن سمع كوروس منهم هذا حتى تمسك بأقوالهم وأفضى إليهم بما يهدف اليه ؛ قائلا : « هكذا ، يارجال فارس ستتصير الامور معكم . ان اخترتم طاعة أمري استمتعتم بهذه الحيرات وبعشرات الآلاف مثلها ولم تعرفوا للمسفات بعد ذلك طبعا . أما اذا رفضتم العمل بمشورتي فاستعدوا من الآن لأعمال متعبة كثيرة ، شبئهة بعمل الامس . وعلى ذلك ، أطیعونني الآن وكونوا أحراجا . أما عن نفسي ؛ فانيأشعر بأن العناية الإلهية قد اختارتني لتحريركم . وأما أنتم ، فلا أعتقد أنكم أقل من المدينين في كل شيء ؛ ولا سيما في الشجاعة . جاهروا بعصيانكم لاستياجيس دون أن تتأخروا في ذلك لحظة واحدة » .

كان الفرس يتذرون تحت نير الحكم الميدي . فلما وجدوا من يقودهم الآن ، سرهم أن يدفعوا عنهم ذلك النير . في أثناء ذلك ، علم استياجيس بأفعال كوروس . فأوفد إليه رسولا يطلب مثوله بين يديه . فأجاب كوروس : « قل لاستياجيس أنتي سأحضر إليه بأسرع مما يحب » . وعندما تسلمه استياجيس الرد ، قام في الحال وسلح جميع رعاياه . وكأنما قد جرده الإلهة من كل ادراك ، فعين هارباجوس قائدا لجيشه ؛ ناسيا أنه سبق أن جره جرحا لا يلتئم . وعندما التقى الجيشان واشتباكا ، قاتلت فئة قليلة من المدينين لم يكونوا على علم بالسر . وانضم آخرون علينا إلى جموع الفرس . أما الجزء الأكبر الباقي ، فألم به الذعر والخوف ، فأطلق العنان لقدميه .

لما علم استياجيس بفرار جيشه المهزى ، وتشتت شمله ؛ أخذ يكيل التهديد والوعيد ضد كوروس ، قائلا : « لن يجد كوروس داعيا لفرحه بعد ذلك » . فقبض في الحال على الكهنة الذين أشاروا عليه بالسماح لكوروس بالهرب ، وقتلهم . ثم سلح جميع المدينين الباقيين في

المدينة ؛ صغاراً وكباراً ؛ وهاجم بهم الفرس في معركة هزم فيها هزيمة ساحقة ؛ إذ أبى جيشه ووقع هو نفسه في أيدي العدو .

عندئذ اقترب منه هارباجوس وأخذ يعلن له شماتته، ويتهكم عليه؛ وينذكره بأعمال الظلم التي كان يأتيها ، ومنها ذلك العشاء الذي قدم له فيه لحم ابنه وسأله كيف يتمتع وقتنفذ بالعبودية بعد أن كان ملكاً ؟ فسألته استياجيسس بدوره لماذا ينسب إلى نفسه أعمال كوروس ؟ فأجاب هارباجوس يقول ، لأن خطابي هو الذي جعله يتائب ضدك . وهكذا يكون لي شرف هذا التدبير . » فاتهمه استياجيسس بأنه أذن أغبي وأظلم رجل . أغبي ؛ لأنه كان في مقدوره أن يلبس التاج على رأسه إن كانت هذه المؤامرة كلها من تدبيره ؛ يدلاً من أن يضعه على رأس رجل آخر . وأظلم ، لأنه بسبب وليمة جلب العبودية على الميديين . فلو فرض أنه اضطر إلى تحويل السلطان إلى شخص آخر ، لكان الأولى أن يكون لهذا الشخص ميديا وليس فارسيا وعلاوة على ذلك ، فقد استبعد كل الميديين الذين لم يشتراكوا في المقاومة بدلاً من أن يصيروا سادة ، كما استبعد جميع الذين غدوا رعايا حتى ذلك الوقت . »

وهكذا فقد استياجيسس تاجه بعد أن حكم خمسة وثلاثين عاماً ، وأوقع الميديين تحت حكم الفرس نتيجة لقصوته فقد ظلت إمبراطوريتهم في آسيا إلى ما بعد نهر هاليس مدة مائة وثمان وعشرين سنة ، باستثناء الفترة التي حكمهم فيها السكوثيون . بعد ذلك ندم الميديون على خضوعهم للإجنبى ، فشاروا ضد داريوس ولكنه هزمهم في المعركة التي دارت رحاتها ، وأخضعهم . وعلى ذلك حدث في عهد استياجيسس أن ثار الفرس على الميديين بزعامة كوروس ، وصاروا نتيجة لهذا حسقام آسيا . أما استياجيسس فقد أبقيه كوروس في بلاطه بقية حياته ، ولم يصبه بأى أذى بعد ذلك .

هذه هي ظروف مولد وتنشئة كوروس وتلك هي الخطوات التي أوصلته إلى العرش . وفي تاريخ متاخر هاجمه كرويسوس ، بيد أنه هزم كما سبق أن أوضحنا في باب متقدم . وكانت هزيمته لكرويسيوس سبباً في جعله سيداً على آسيا كلها .

الفصل السادس

*****-

الفِرَسُ

كان الفرس يتبعون عادات وتقالييد . أعرف منها ما يلي : لم يكن لديهم أية صور أو تماثيل للآلهة ، ولا معابد ولا مذابح ؛ اذ كانوا يعتبرون استعمالها علامة من علامات الحماقة . وأظن هذا راجع الى عدم اعتقادهم بأن طبيعة الآلهة من نفس طبيعة البشر، كما يتصور الغريق . ومع ذلك، كان من عادتهم أن يصعدوا الى قمم أعلى الجبال ، ويقدموا الذبائح لجوبينز وهو الاسم الذي يطلقونه على المجموعة الكونية كلها . كما كان من عادتهم أيضاً أن يقدموا الذبائح للشمس وللسمير وللأرض وللنار وللماء وللرياح . هذه فقط هي الآلهة التي توارثوا عبادتها عن أسلافهم منذ أقدم العصور الغابرة .

أما أعظم يوم يحتفلون به ، من بين أيام السنة كلها فهو يوم عيد ميلادهم فكان من عادتهم أن يقيموا وليمة في ذلك اليوم ، تقدم فيها أطعمة أفحمر من أطعمتهم العادية . فكان ذوو اليسار يشونون ثوراً وحصاناً وجملًا وحماراً كاملاً (١) ويقدمونها في ذلك اليوم على هذه الصورة . أما الطبقات الأفقر فيقدمون أنواعاً من الحيوانات أصغر من تلك . وكان من عادتهم أيضاً أن يأكلوا قليلاً من الأطعمة الجافة وكثيراً من الحلويات والفاكهة ، يقدمونها على المائدة ، على عدة دفعات ؛ بضعة أطباق في كل دفعه . ولهذا كانوا يقولون : « عندما يأكل الاغارقة ؛ يتركون المائدة وهي جياع ، اذ لا يقدمون زيادة على اللحوم سوى القليل . أما اذا وجدوا أمامهم مزيداً من الاطعمة ، فانهم لا يكفون عن الاكل » . والفرس مولعون

(١) من العادات المتتبعة في الدول الشرقية اليوم ان يشونوا الخروف كاملاً ، حتى على الموائد العادية . وتتبع هذه العادة في الاعياد في دنالشيا وبعض دول أوروبية أخرى .

بالخمر ؟ يعبون منها كميات كبيرة (١) ويحرمون القيء واطاعة مطالب الطبيعة (كالتجشّؤ والعطاس وما إليها) في حضور الغير . هذه عادتهم في تلك الأمور .

كذلك من عادتهم أن يتناقشوا في الأمور الهامة وهو سكارى . وعندما يفيقون في الصباح يوضع أمامهم القرار الذي اتخذوه ليلاً بوساطة صاحب الدار التي اتخد فيها . فإن وافقوا عليه عملوا به والا ترکوه . ومع ذلك فأحياناً تحدث المناقشة الأولى وهم في حالة اتزانهم ، ولكنهم في تلك الحالة لا بد أن يتخدوا القرار وهم تحت تأثير الخمر (٢) .

إذا قابل الفارسي فارسياً آخر ، أمكنك أن تعرف ما إذا كان الشخصان المتقابلان من درجة واحدة بالعلامات الآتية : إذا قبل كل منهما الآخر من شفتيه بدلاً من التحية بالكلام . أما إذا كان أحدهما أقل درجة من الآخر فإن القبلة تكون على الحد . وإذا كان البون شاسعاً بين الدرجتين ، استلقى الأقل درجة على الأرض (٣) وأعظم تقديرهم للأمم الأجنبية هو لأقرب جيرانهم . أما الأمم التي تعيش بعد أولئك الجيران ، في الموقع ، فيكون تقديرهم لها في المرتبة الثانية وهكذا مع بقية الأمم ، كلما بعد مكان الأمة عنهم قل تقديرهم لها . والسبب في ذلك أنهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم متفوقون على بقية البشر في كل شيء ، ويقترب الآخرون منهم في الميزات بنسبة قربهم من بلادهم . أما الأمم النائية المواقع عنهم فأكثر البشر انغماساً في الرذيلة والانحطاط .

لاتباري أمة الفرس في محاكماتهم للتقالييد الأجنبية (٤) فقد اقتبسوا زى ملابسهم عن الميديين ، اذ وجدوه أرقى من زيهם . ويلبسون في الحرب درع الصدر المصرية . وما أن يسمعوا عن صنف من صنوف

(١) من عادة الفرس المترفين اليوم أن يجلسوا إلى المائدة قبل العشاء بعده ساعات يشربوا الخمر ويأكلون الفواكه المجففة كالجوز والبندق واللوز والفتق واللب وغيرها . والحقيقة أن الأكلين يجلسون إلى المائدة في الساعة السابعة ، ولا يقدم لهم العشاء إلا في الساعة الحادية عشرة .

(٢) يؤكد تاكستوس أنه كان من عادة الجرمانيين أن يتناقشوا في مواضع السلم وال الحرب وهم تحت تأثير الخمر ، ويحتفلون بقرارهم إلى الصالح .

(٣) لا يزال الفرس مشهورين باتباع الرسميات وآداب المعاشرة .

(٤) يبدو من الباب الخامس أن زى الفرس الوطنى القديم كان سترة ضيقة وسروراً من الجلد أما الرى الميدى فكان ، تبعاً لكتابيوفون يخفى تقاطيع الجسم ويعطيه مظهر العظمة والأناقة ويبدو أنه كان جلباباً فضفاضاً .

الترف حتى يحاکوه . و على هذا ، فمن العادات الجديدة عليهم أنهم تعلموا الانخماص في الأمور الجنسية من الأغريق فاقتني كل منهم عدداً من الزوجات ، و عدداً أكبر من المحظيات .

أما الرجولة الكاملة فأولى خواصها البساطة في استخدام الأسلحة ويليها في المرتبة أن يكون الرجل كثير الابناء . وفي كل عام يقدم الملك هدايا ثمينة لمن يبرهن على أنه أب لأكبر عدد من الابناء ، إذ يعتبرون كثرة العدد قوة . ويعلم الابناء بعنتاية منذ عامهم الخامس حتى يبلغوا العشرين من العمر ، ثلاثة أمور ليس غير ؛ هي: ركوب الخيل ؛ واستخدام القوس ، وقول الصدق (١) . ولا يسمح للأبناء ، قبل الخامسة من العمر ، بأن يرahlen أبوهم ، بل يقضون حياتهم إذ ذاك وسط السيدات ، و ذلك حتى إذا مات الطفل صغيراً لم يحزن أبوه على موته .

في اعتقادى أن هذه قاعدة تنطوى على كثير من الحكمة ، وكذلك القاعدة الآتية : لا يحكم الملك على أي فرد بالموت من أجل هفوة واحدة . ولا يعاقب الرجل الفارسى عبده عقاباً شديداً على هفوة واحدة . بل تقارن حسناته وسيئاته في كل حالة ، فان رجحت كفة السيئات على كفة الحسنات ، عوقب العبد .

يتمسّك الفرس بأنه لم يحدث قط أن قتل أحد أباء أو أمه . ولكنهم على يقين من انه اذا حدث ذلك ، وحققت المسألة من أساسها ظهر أن الولد اما أن يكون مجنوناً أو ابن زنا . اذ يقولون انه لا يمكن أن يهلك الاب الحقيقي بيدي ولده .

كذلك يحرمون الكلام في الأشياء التي لا يحل فعلها . ويليها في مرتبة الرذيلة أن يكون المزع مديوناً . فمن الأسباب الأخرى أن يضطر المدين إلى الكذب . وإذا أصيب رجل فارسي بالجزام ، فلا يسمح له بدخول أية مدينة أو بالتعامل مع أي فارسي آخر . لا بد أن يكون ذلك الشخص حسب قولهم قد أذنب في حق الشمس . أما الاجانب المصابون بهذا المرض فيجبرون على مغادرة المملكة كلها . وحتى المصابون بالبرص يطردون كذلك ، للذنب نفسه ولا يلوثون قط نهرأ بأفرازات أجسامهم

(١) نقاش لارنر تقدير الفرس للصدق من قوة خطبة داريوس في الكتاب التالى (الباب ٢٤) . ومع ذلك ، فلا يوجد في التاريخ ذكر لهذه الخطبة اطلاقاً . ويتضح تقدير الفرس الخاص لقول الصدق ، وضوحاً بينا من مخطوطات داريوس التي تذكر أن الكذب عنوان الشر .

ولا حتى يغسلون أيديهم في نهر ، ولا يسمحون للغير بفعل ذلك ، لأنهم يبجلون الانهار تمجيلاً عظيماً . وهناك شيء غريب آخر لم يلاحظه الفرس أنفسهم ، ولكنه لم يفتنى : تنتهي جميع اسمائهم الدالة على بعض الميرات الجسدية أو العقلية بنفس الحرف - الحرف الذي يسميه الدوريون « سان » San ويسميه الأيونيون سيما Sigma (حرف س في اللغة العربية) . ومن يرغب في التتحقق من هذا ، يجد أن جميع الأسماء الفارسية بغير استثناء تنتهي بهذا الحرف .

هذا هو ما أستطيع ذكره عن الفرس . وأنا على يقين منه تبعاً لعلوماتي الواقعية . وهناك عادة أخرى يتكلمون عنها بتحفظ ولا يذكرونها جهراً ، وتحتفي بموتاهم . يقولون : إن جثة الفارسي الذي لا تدفن اطلاقاً الا بعد أن يمزقها كلب أو طائر جارح . ولا شك في أن هذه العادة معروفة لدى الماجي (الكهنة الميديون) إذ يمارسونها علينا دون ما اخفاء . وبعد ذلك تطلي أجسام الموتى بالشمع ثم تدفن في الأرض .

والماجي فئة غريبة الأطوار ، بختلفون تمام الاختلاف عن الكهنة المصريين . والحقيقة انهم يختلفون عن سائر الناس مهما كانت جنسيةتهم . ويحرم الكهنة المصريون قتل أي حيوان حتى ، الا ما يقدمونه قربانا . أما الماجي ، فعلى نقىض ذلك ، يقتلون بأيديهم جميع أنواع الحيوان ما خلا الكلب والانسان . ويبعدوا أنفسهم يجدون لنفسه في قتل الحيوان ، اذ يقتلونه بسرعة كما يقتلون الحيوانات الأخرى كالنمل والافاعى والطيور والزواحف ومع ذلك ، فيما أن هذه عادتهم ، فلنحتفظ بها . ثم أرجع الى قصتي السابقة .

الباب الثامن

ثورة سارديس

ما ان غزا الفرس ليديا حتى أرسل الایونيون والایوليون سفراهم الى كوروس في سارديس يتسلون اليه في أن يكونوا تابعين له بنفس الشروط التي حصلوا عليها من كرويسوس . فأصغى كوروس بانتباه الى مقرحاتهم ، ورد عليهم بأسطورة ، فقال : « يحكي أن زاما كان يسير ذات يوم على شاطئ البحر ؛ فأبصر بعض الأسماك . فطفق يعزف لها على زمارته ، ظنا منه أنها ستخرج اليه فوق الأرض . ولما رأى أخيراً أن لا جدوى مما يؤمله ؛ أحضر شبكة وأحاط بها كمية كبيرة من السمك ، وسحبها الى الشاطئ . عندئذ أخذت الأسماك تقفز وترقص . ولكنه قال لها : « دعى عنك الرقص الآن ، اذ رفضت الرقص عندما عزفت لك على المزار » . رد كوروس هكذا على الایونيين والایوليين ، لانه عندما بعث اليهم الرسل يحثهم على الثورة ضد كرويسوس ، رفضوا طلبه . وما ان تم له الاستيلاء على سارديس حتى جاءوا يعرضون عليه الطاعة . اذن ؟ فقد رد عليهم بهذا الرد وهو غايب . فلما سمع الایونيون اجابتة شرعوا في الحال يحصنون مدنهم . وعقدوا اجتماعات في البانياونيوم ، كان يحضرها جميع الایونيين ماعدا الميليسين الذين عقد معهم كوروس تحالفًا منفصلا ، ومنهم بموجبه نفس الشروط التي حصلوا عليها من كرويسوس . فقرر الایونيون الآخرون أن يرسلوا السفراء الى أسبرطة يطلبون مساعدتها .

عندما وصل سفراء الایونيين والایوليين ، الذين ذهبوا الى أسبرطة بأقصى سرعة ؛ الى تلك المدينة ؛ اختاروا من بينهم رجلاً فيمنيقياً يدعى بوثيرموس ليتوب عنهم في الكلام . ولذلك يجذب اليه أكبر عدد من المستمعين ارتدى ثوباً من الأرجوان ، ثم وقف يتكلّم . فالقى خطاباً طويلاً

توسل فيه الى الاسبرطيين أن يهبووا لمساعدة مواطنيه . غير أنهم لم يكونوا على استعداد لقبول التوسل . فأعطوا أصواتهم ضد ارسال أية نجدة . وعلى هذا عاد السفراء أدراجهم بيد أن اللاكيديايمونيين ، بالرغم من رفضهم توسل أولئك الأقوام ، أرسلوا سفينه ذات خمسين مجدافا تحمل بعض الرجال الاسبرطيين ، الى ساحل آسيا . وكان غرضهم من ذلك ، على ما أظن هو مراغبة كوروس وآيونيا . فلما بلغ هؤلاء الرجال فوكيا ؛ أرسلوا الى سارديس أعظم رجل بينهم واسمه لاكرينيس ، ليحذر كوروس ؟ باسم اللاكيديايمونيين من التعرض لأية مدينة اغريقية لأنهم لن يسمحوا له بهذا .

يقال ان كوروس ، عندما سمع كلام ذلك الرسول ؟ سأله بعض الاغارقة الذين كانوا واقفين قريبا منه : « من يكون أولئك الاكيديايمونيين وما عددهم حتى يرسلوا اليه مثل ذلك الاعلان ؟ » ولما سمع اجابتهم التفت الى الرسول الاسبرطي وقال له : « لم يحدث حتى الآن أن خفت أى رجال لديهم ميدان وسط مدinetهم حيث يجتمعون معا ، ويخدع كل منهم الآخر ويختشون فى ايامهم . اذا قدر لي أن أعيش ، فسيكون لدى الاسبرطيين مشاكل تشغلهن بالتحدث فيها بدلا من الاهتمام بأمور الآيونيين » . قصد كوروس بهذا الكلام زجر جميع الاغريق لأن لهم أسواقا للبيع والشراء ، فى حين لا يعرف هذه العادة الفرس الذين لا يشترون من أسواق مكشوفة . والحقيقة أنه لا يوجد فى بلادهم ، ولا سوق واحدة .

بعد هذه المقابلة غادر كوروس سارديس . بعد أن عهد بها الى تابالوس الفارسى ، وعين باكتياس الليدى ليجمع الاموال الخاصة بكرويسوس وغيره من الليديين ويضرها اليه . أما كوروس فقد توجه بنفسه الى أجباتانا ومهه كرويسوس غير عابىء بأن يكون الآيونيون هدفه المباشر . كانت لديه خطط أعظم من هذه . كان يعتزم أن يحارب بنفسه بابل والباكتريانيين والسيكتينيين ومصر . وعلى ذلك ، اعتزم أن يعهد الى أحد قواه بموضوع غزو آيونيا .

ما أن غادر كوروس سارديس حتى حث باكتياس مواطنيه على الثورة علينا ضد كوروس ضد وكيله تابالوس . ولما كانت تحت تصرفه أموال ضخمة ، أبحر بها واستخدمها فى استئجار قوات من المرتزقة . وفي الوقت نفسه ، جعل سكان الشاطئين يتضمنون الى جيشه . وبعد ذلك سار للاستيلاء على سارديس ، حيث حاصر تابالوس الذى جبس نفسه فى قلعتها .

بينما كان كوروس فى طريقه الى أجباتانا ، بلغته هذه الانباء :

فالتفت الى كرويسوس وقال : « ماذا تظن ، يا كرويسوس ، أن تسفر عنه هذه الأمور ؟ » . يبدو أن هؤلاء الليديين لن يكفوا عن خلق المشاكل لأنفسهم ولغيرهم . أني لافكر فيما اذا كان من الخير لي أن أبيعهم كلهم عبيدا . أظن أن مافعلته الآن هو فعل من « يقتل الأب ويبيقى على حياة طفله » . لقد قبضت عليك ، أنت الذي كنت أكثر من أب لشعبك ، وحملتك معى ، وعهدت بالمدية الى أهلها . ألا يدھشنى الآن أن أسمع بقيام الفتنة فيها ؟ « هكذا صرخ كوروس بنوایاه الى كرويسوس ، الذي خشي أن يخرب كوروس . سارديس وييدهما » . فأجاب قائلا : « كلامك معقول ، يامولاي ولكن أرجوك ألا تترك الفضب يتملّك ، ولا تحكم بالدمار على مدينة قديمة لا ذنب لها في المشاكل الماضية أو الحاضرة . كنت أنا نفسي سببا في المشاكل الأولى وهأنذا أدفع ثمنها . وقام باكتياس بالمشاكل الأخرى ، وهو الذي عهدت اليه بسارديس مدة غيابك عنها . دعه يتحمل جزاء فعلته واعف عن بقية الليديين . ولكن تتأكد من عدم تمردhem علىك او معاكستهم ايّاك مرة أخرى ، ارسل اليهم وحرم عليهم الاحتفاظ بأسلحة القتال . مرهما بارتداء الجلابيب تحت العباءات ، ولبس أحذية في أقدامهم ، واجعلهم يربون أولادهم ويعلمونهم العزف على القيثارة والآلات الموسيقية الأخرى . والاشتغال بالتجارة . وعندئذ . سرعان ما ترى أنهم صاروا نساء وليسوا رجالا ، ولن يتطرق الخوف الى نفسك منهم بعد ذلك .

اعتقد كرويسوس أن هذا أفضل لشعب ليديا من أن يباعوا عبيدا . وعلى ذلك أبدى لكوروس هذه النصيحة ، اذ عرف أنه ان لم يشر عليه بشيء رادع فلن يستطيع ان يثنيه عن عزمه . كما انه خشي ان يقوم الليديون بشورة في المستقبل فيجلبوا المزراب على أنفسهم . فسر كوروس من هذه النصيحة ورضي بالتنازل عن غضبه وأن يعمل بما اشار به كرويسوس . فاستدعى اليه رجلا ميديا يسمى مازاريس ، وعهد اليه باصدار الأمر الى الليديين تبعا لنصيحة كرويسوس كما أمره بأن يبيع - كعبه - كل من انضم الى الليديين في هجومهم على سارديس . وبأن يجعل أول همه أن يرجع اليه باكتياس حيا عند عودته . وبعد ان أصدر كوروس هذه الاوامر ، استأنف رحلته الى الاراضي الفارسية .

الفصل التاسع

بابل

كانت أشور تضم عدداً كبيراً من المدن ، أهمها وأقواها في ذلك الوقت « بابل » التي نقل إليها مقر الحكومة بعد سقوط مدينة نينوى ، وهكذا وصفاً لهذا البلد :

تقع هذه المدينة في سهل فسيح ، وموقعها مربع الشكل تماماً ، يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه مائة وعشرين فورنجاً . وبذل يكون طول محيطها كله أربعمائة وثمانين فورنجاً . وعلاوة على مساحتها العظيمة هذه فإنها من ناحية الجمال لم تكن هناك مدينة أخرى تدانيها فيه . فأولاً : كان يحيط بها خندق عريض عميق مماؤه بالماء ، يرتفع وراءه سور من البناء عرضه خمسون ذراعاً ملكية ، وارتفاعه مائتا ذراع « الذراع الملكية أطول من الذراع العادي بعرض ثلاث أصابع (١) » .

يجب ألا يغيب عن بالى ، أن ذكر هنا الغرض الذي استعملت فيه الأتربة التي خرجت من حفر ذلك الخندق العظيم ، ولا الطريقة التي بني بها هذا السور . فإنه ما أن أتم القوم حفر الخندق حتى صنعوا من التراب المستخرج منه لينا (طوبا نينا) ولما تم صنع كمية كافية من البنات ، أحرقوها في قمائن حتى صارت آجراً (طوبا أحمر) ثم شرعوا في البناء ، مبتدئين ببناء حفارات الخندق أولاً . وبعدها مباشرة ، أخذوا يبنون السور نفسه ، متخددين ملاطthem كله من القار الساخن ، وواضعين طبقة من الغاب

(١) لو فرض أن القدم البابلية كانت تعادل القدم الإنجليزية ، فإن الذراع العادي تعادل قدماً وثمانين بوصات . أما الذراع الملكية فتعادل قدماً و٤٠ من البوصة وتقاس الذراع العادي بالمسافة ما بين الكوع ومتتصف الأصبع الوسطى .

(البوص) المضفور بين كل ثلاثة طبقات (مدماك) من الاجر(١) وأقاموا فوق سطح السور جميعه أبنية . . من حجرة واحدة . . تقابل كل منها الأخرى ، تاركين بينها مسافة تتسع لمرور عربة تجرها أربعة حيول . ويوجد في محيط السور كله مائة باب جميعها من النحاس الأصفر ، ذات قوائم واطارات من النحاس أيضا . وأحضروا القار المستعمل في ذلك العمل من نهر ايسن ، وهو أحد الروافد التي تصب في نهر الفرات عند المدينة المسماة بنفس اسمه ، وتقع على مسيرة نهانة أيام من بابل ، اذ توجد في هذا النهر كميات وافرة من كتل القار .

يجري نهر وسط تلك المدينة ، فيقسمها إلى قسمين . انه نهر الفرات . ويمتد سور المدينة إلى كل من جانبي النهر . وعلى ذلك يصل ركن السور إلى نهاية كل شاطئ في صورة حاجز من الاجر . ومجري نهر الفرات عميق سريع الجريان ، ينبع من أرمينيا ، ويصب في بحر اروثريا ، أما البيوت فيتكون أغلبها من ثلاثة أو أربعة أدوار وشوارعها كلها مستقيمة . منها الموازي لجري النهر ، ومنها المستعرض الموصل إلى شاطئيه . وتوجد في نهاية هذه الشوارع عند الشاطئ أبواب منخفضة الارتفاع مفتوحة في سور المحاذى للنهر ، تشبه الابواب العظيمة الموجودة في سور الخارجي . وهي كذلك مصنوعة من النحاس الأصفر ، وتفتح إلى المياه .

ت تكون وسائل الدفاع الرئيسية لتلك المدينة من سورها الخارجي .
ييد أن هناك سورا آخر، داخليا ، عرضه أقل من عرض السور الأول ، ويقل عنه قوة . ويحتل وسط كل قسم من قسمى المدينة حصن . في أحدهما قصر ملوك بابل الذي يحيط به سور عظيم الضخامة والقوة . وفي الحصن الآخر .. المعبد المقدس لجوبيتر بيلوس ، وهو على شكل مربع طول ضلعه فورلنجان . وله أبواب سميكه مصممة من النحاس الأصفر ، كانت موجودة أيضا في عهدي . وكان بواسطه المعبد برج مربع الشكل من البناء المتين ، طول كل من جوانبه فورلننج واحد ، أقيم فوقه برج ثان وفوق هذا ثالث ، وهكذا حتى ثمانية أبراج . ويصل الصاعد إلى القمة من الخارج بواسطة طريق يدور حول الإبراج . وفي منتصف هذا الطريق موضع للراحة به مقاعد لجلوس الصاعدين إلى أعلى الإبراج . وفوق أعلى برج . . معبد واسع ، به سرير خارق المجن مزخرف بأنفس الزخارف .

(١) توجد طبقات من القاب في بقايا أبنية الطوب الباقية الآن في بابلونيا ، ولكن المسافات بينها أقل من المذكورة هنا .

وبجانبه نضد من الذهب . وليس بالمعبد أى تمثال . ولا ينام في المعبد ليلاً غير سيدة وطنية واحدة ، تبعاً لما يؤكده جماعة الخليانيين ؛ وهم كهنة ذلك الرب^(١) .

تحت ذلك المعبد معبد آخر به تمثال جالس لجوبيتر ، مصنوع كله من الذهب الحالص . وأمام التمثال نضد من الذهب ، ضخم الحجم ، عليه العرش . وكذلك قاعدة التمثال من الذهب أيضاً . وقد أخبرني أولئك الكهنة أن مجموع وزن الذهب المستعمل ثمانمائة تالت (التالت = ٥٧ رطلاً إنجليزياً) . وخارج المعبد عمودان ، أحدهما مصنوع من الذهب لا يجوز أن تقدم فوقه أية ذبائح إلا من الحيوانات الرضع أما العمود الآخر فمدبح عادي كبير، تقدم عليه ذبائح من الحيوانات الكاملة النمو . ويحرق الكهنة فوق ذلك المذبح العظيم كميات كبيرة من اللبان الذكر يقدر وزنها بحوالى ألف تالت في كل عام ، فيعيد ذلك الرب . كما كان يوجد بهذا المعبد في عهد كوروس تمثال لرجل ارتقاءه اثنا عشر ذراعاً ، كله مصنوع من الذهب النضار . أما أنا نفسي ، فلم أر هذا التمثال ، ولكني سمعت عنه من السكينة . وقد تأمر داريوس بن هوسناسبيس على نقل ذلك التمثال . بيد أنه لم يجرؤ على أن يضع يديه فوقه . وقتل كسيروكسبيس ابن داريوس . . . الكاهن الذي منعه من نقل هذا التمثال ، وأخذه . وعلاوة على الزخارف التي ذكرتها ، يوجد عدد هائل من التقدمات الخاصة ، في ذلك المعبد المقدس^(٢) .

حكم مدينة بابل هذه عدة ملوك بذلوا جهوداً ومساعدات في بناء أسوارها وتزيين معابدها . وسألتكم عنهم في سردى لتاريخ أشور . وكان من بينهم سيدتان وتسهيءاً أولاهما سميرامييس ، تولت الحكم خمسة أجيال قبل أن تأتي بعدها الملكة التالية ومن أعمالها أنها أقامت بعض الجسور الجديرة بالذكر في السهل المجاور لمدينة بابل ، للشرف على النهر الذي كان ، حتى ذلك الوقت ، يفيض على جانبيه فيغرق جميع الأراضي المحيطة به .

(١) يبدو ، إذن أن الخليانيين فرع من جنس عقاد hamite الهميتي Akkad الذي كان يقطن بابلونيا منذ أقدم العصور . وهؤلاء القسم هم الذين اخترعوا في الكتابة وبناء المدن وطرق العبادة وتنمية جميع العلوم وخاصة علم الفلك . وهم الكلدانيون .

(٢) لا شك في أنه يمكن التعرف على معبد بابل العظيم ، الذي ترك الاغارقة كثيراً من الأدلة على وجوده ، بالرأبة الهاشمية التي يسميها العرب عامة باسم «بابل».

أما الملكة الثانية فهي نيتوكريس ، وكانت أكثر حكمة من سابقتها فلم ترك ورائها ، تخليداً لذكرى جلوسها على العرش ، ولكنها لما رأت قوة الميديين البالغة ومشروعاتهم العظيمة ، وأنهم استولوا على عدد كبير من المدن من بينها نينوى ، وتوقعت أن تهاجم بدورها ، بذلك كل مجهود مستطاع لتنقية وسائل دفاع أمبراطوريتها . فبدأت بنهر الفرات الذي كان يخترق المدينة في خط مستقيم . فحفرت بعض المجاري على مسافة من أعلى النهر : وبذا صار يدور ويحفر بالعريبة نفسها تلث مرات . وهى قرية فى أشور كانت تسمى أرديريكا . وإلى يومنا هذا ، كل من يذهبون من بحرنا إلى بابل ، عندما ينزلون إلى ذلك النهر ، يمرون بنفس تلك البقعة تلث مرات ، فى ثلاثة أيام مختلفة . كما أقامت جسراً بطول كل من جانبى نهر الفرات ، وكانا عجيبين فى عرضهما وفى ارتفاعهما . وحفرت حوضاً لبحيرة على مسافة بعيدة من بابل إلى جوار هذا النهر . وكان الحوض عميقاً فى كل نقطة يصل فيها إلى المياه . وكان عرضه هائلاً حتى ان محیطه ليبلغ اربعين وعشرين فورنجاً . واستخدمت الأتربة الناشئة من حفر هذا الحوض فى تعلية الجسور بطول مجرى الماء . وبعد أن أتمت حفريه ، أحضرت الأحجار وأقامت بها حوائط تبطن محیط الحوض بأكمله . وهكذا أتمت هذين العملين ، وهما التفاف النهر وحفر البحيرة ، حتى يصبر التيار أبطأ بسبب عدد الانحناءات التي يدور فيها ، وتندو الرحمة طويلاً دائرياً ، حتى يضطر القائم بها إلى المرور حول البحيرة فيقطع شوطاً بعيداً . كل هذه الاعمال تمت على جانب مدينة بابل حيث تقع الممرات . وكانت الطرق المؤدية إلى ميديا أكثر استقامه ، وفرض الملكة من هذاهو أن تمنع الميديين من الاتصال بالبابليين ، وبذا لا يكونون على علم بشئونها .

بينما استخدمت التربية المستخرجة من حفر البحيرة في اقامة وسائل دفاع المدينة ، شغلت نيتوكريس نفسها في عمل آخر ، هو في الحقيقة نابع للعمانيين السابقين وأقل شأننا منهما . بقسم النهر المدينة ، كما أسلفنا ، إلى قسمين منفصلين . فكان في عهد الملك السابقين إذا أراد شخص أن ينتقل من أحد القسمين إلى الآخر ، اضطر إلى عبور النهر في قارب . وهذه مسألة يبدو لي أنها كانت شاقة متعبة ، ما في ذلك ريب . وعلى هذا ، بينما كانت نيتوكريس تحفر البحيرة ، أرادت الانتفاع بها في التفاصي على هذه الصعوبة ، فتخلف ورائها تذكاراً آخر لجلوسها على عرش بابل . فأصدرت أمرها بقطع كتل من الأحجار بالغة الضخامة ، فلما قطعت وحفر الحوض ، حولت جميع مجرى نهر الفرات إلى مكان قطع الأحجار ، وبهذا بينما يمتلىء الحوض بالماء

يكون المجرى الطبيعي للنهر جافا تماماً . فأنشأت تنفذ هذا العمل . فبدأت أولاً بتطهين ضفتي النهر داخل المدينة بجسرین من الاجر ، وكذلك مواضع النزول أمام الابواب المطلة على النهر ، مستعملة طريقة البناء نفسها التي استخدمت في بناء سور المدينة . بعد ذلك بنت بالمواد التي أعددت ، قنطرة من الحجر ، قرية من وسط المدينة قدر المستطاع . وربطت أحجارها بعضها الى بعض بالحديد والرصاص وفي أثناء النهار كانت توضع معاير من الخشب بين الشاطئين يمر فوقها السكان عند عبور النهر من جانب الى آخر . بيد أن تلك المعاير كانت ترفع ليلاً لثلاثة يمر الناس من أحد القسمين الى الآخر بغية السرقة . وبعد أن ملأت مياه النهر مكان قطع الاحجار ، وتم انشاء القنطرة ، حول النهر ثانية الى مجراه القديم . وهكذا تحول الحوض فجأة الى بحيرة تفي بالغرض الذي أنشئت من أجله ، وحظي سكان المدينة ، بمساعدة ذلك الحوض ، بقنطرة تريحهم في عبور النهر .

كانت هذه الملكة نفسها هي التي ادبرت الخدعة الشهيرة . فقد شيدت مقبرة لها في الجزء العلوى من أحد الابواب الرئيسية للمدينة ، في مستوى يرتفع فوق رعوس المارين . ثم كتبت عليها هذه العبارة : « اذا احتاج أحد الملوك .. الدين سيخلدونى على عرش بابل .. الى الاموال ، فليفتح قبرى ويأخذ منه ما يشاء ، ولايفعلن ذلك الا اذا كان محتاجاً حقاً الى الاموال ، والا فلن يفيده منه شيئاً » . ظل ذلك القبر كما هو لا يمسه أحد ، حتى جاء داريروس الى المملكة فرأى من الوحشية الا يكون في مكتنته استخدام أحد أبواب المدينة ، وأن يبقى مبلغ من المال محبوساً دون الارتفاع به . وعلاوة على هذا ، شق على نفسه أن يمنع يده من الوصول الى ذلك الكنز . فامتنع عليه استخدام الباب ، لانه عندما يمر بعربته تكون الجثة الميتة فوق رأسه . وبناء على كل ذلك ، فتح القبر ، ولكن بدلاً من أن يرى الكنز ، وجد الجثة الميتة ليس غير ، وبجوارها كتابة تقول : « لو لم تكن جسعاً ومولعاً بجمع المال الحرام ، ولا يهمك من أي طريق تحصل عليه ، لما تجرأت على فتح ضريح الموتى » .

قامت حملة كوروس ضد ابن هذه الملكة ، الذي كان يسمى بنفس اسم أبيه لاينيتوس ، وكان هذا الابن ملكاً على الاشوريين وكان من عادة الملك العظيم عندما يخرج الى الحرب أن تأتيه من وطنه مؤونة تجهيز بعنابة هناك ، وتحملها درواب من ماشيته هو نفسه . كما كان يحمل معه الماء اللازم لشربه مأخوذاً من نهر خواسبيس ، الذي كان يجري في سوسا

(أوشوشانة ، وكانت عاصمة منطقة سوسيانا ، وكان من عادة ملوك الفرس أن يقضوا فيها فصل الشتاء) ، لانه الماء الوحيد الذى كان يذوقه ملوك فارس . وأينما رحل الملك ، تتبعه عربات ذات أربع عجلات تجرها البغال تحمل ماء نهر الخواصبيس ؟ مغلياً ومعداً للاستعمال ؟ ومعها قوارير من الفضة ، تنقل معه من مكان إلى آخر .

الفصل العاشر

سَقْوَطُ بَابِلَ

من كوروس فى طريقه الى بابل بشواطئ نهر الجونديس ، وهو نهر ينبع من الجبال الماتينية ، ويجري خلال مملكة الدردانيين ، ثم يصب فى نهر دجلة وبعد أن يأخذ دجلة الماء من الجونديس ، يجري مارا بمدينة أوبيس ويصب ماءه بعد ذلك فى البحر الایروثريانى (الخليج الفارسى) وعندما بلغ كوروس ذلك النهر الذى لا يمكن اجتيازه الا بالسفن ، جفل أحد الخيول البيضاء المقدسة المرافقة له فى حملته ، ونزل الى الماء ، وحاول عبور النهر بنفسه . بيد أن التيار جرفه معه وأغرقه ، فغاص الى الاعماق . فغضب كوروس من وقاحة ذلك النهر ، وهدد بكسر شوكته الى أن يستطيع كل فرد ، حتى النساء ، أن يعبره فى المستقبل بسهولة دون أن يبلل ركبتيه . وبناء عليه ، أرجأ هجومه على بابل مؤقتا . وقسم جيشه الى قسمين . ثم خطط بالحبار مواضع مائة وثمانين خندقا على كل من جانبي نهر الجونديس ، تتفرع منه الى جميع الجهات . فأمر جيشه بحفر هذه الخنادق ، على أن يعمل نصف الجيش على الضفة اليمنى والنصف الآخر على الضفة اليسرى . وهكذا نفذ وعيده بمساعدة ذلك العدد الهائل من الايدي . غير أنه قضى فى ذلك فصل الصيف كله .

بعد أن أخذ كوروس ثأره من نهر الجونديس بأن شتت ماءه فى ثلاثة وستين قناة ، انتظر حتى أقبل الربيع التالي ، ثم استأنف سيره الى بابل . فأقام البابليون معسكرهم خارج أسوارهم وانتظروا قدومه ونشبت بين الفريقين معركة على مسافة قصيرة من المدينة ، هزم فيها البابليون على يدى الملك الفارسى . وعلى ذلك انسحبوا الى داخل أسوارهم حيث أغلقوا الابواب ، وحبسوا أنفسهم داخل المدينة مستهرين بالمحصار ، اذ كانوا قد خزنوا فيها كميات كبيرة من المؤونة تكفيهم عدة سنوات ،

استعداداً لذلك الهجوم المتوقع ، اذ عندما رأوا ان كوروس يغزو أمة بعد أخرى ، صاروا على يقين من أنه لن يكتفى عن التقدم ، وسوف يأتي دورهم في النهاية .

حار كوروس عندئذ في أمره ، اذ من الوقت ولم يستطع الهجوم على ذلك المكان . وربما كان في هذا الضيق ، او اقتراح عليه أحد ؟ ما جعله يفكر في خطة وببدأ ينفذها : وضع جزءاً من جيشه عند مكان دخول النهر الى المدينة ، وجزءاً آخر عند موضع خروجه منها . وأمرهم بأن يسيروا نحو المدينة عن طريق مجرى النهر بمجرد أن يصير الماء ضحلاً بدرجة كافية . ثم سار هو نفسه بالجزء غير المحارب من جيشه الى الموضع الذي حفرت فيه نيتوكريس حوض النهر . وفعل نفس ما فعلته هي من قبل . فتحول مياه نهر الفرات ، عن طريق قناة ، الى الحوض الذي كان مستنقعاً وقت ذاك . فتدفق فيه النهر لدرجة أن مجراه الطبيعي أصبح ضحلاً سهل العبور . وعندئذ تدفق الجيش الفارسي – الذي تركه كوروس أمام بابل – عند مدخل ومخرج النهر لهذا الغرض ، عبر المجرى الذي لم يبلغ عمق الماء فيه الى منتصف فخذ الرجل . وبهذا دخل الجيش الفارسي المدينة . ولو فكر البابليون فيما قصد إليه كوروس ، أو لاحظوا الخطر المحدق بهم ، لما سمحوا للفرس بدخول مدینتهم . بل كان بوسعهم أن يبيدوهم عن بكرة أبيهم . اذ كان في امكانهم أن يقفلوا جميع الابواب المطلة من الطرق على النهر ، ويصعدوا الى أعلى سور بجانب النهر ، وبهذا كان يمكنهم أن يقبحضوا على العدو كما لو كان داخل مصيدة . ولكن الذي حدث ، هو أن الفرس أخذوهم على غرة . وبهذا استولوا على المدينة . ونظراً لاتساع المدينة العظيم ، فإن سكان الأجزاء الوسطى (كما قرر سكان بابل) ظلوا مدة طويلة ، بعد استيلاء العدو على الأجزاء الخارجية من المدينة ، لا يعلمون شيئاً عما حدث ، لأنهم كانوا مشغولين بالاحتفال بأحد أعيادهم . فاستمرروا يرقصون ويحتسرون الخمر ، حتى علموا بسقوط مدینتهم بعد فوات الأوان . هذه هي ظروف فتح بابل لأول مرة (١) .

هكذا أهم الأدلة التي تبين قوة البابليين وثراهم : علاقة على الجزيرة المحددة التي يجبيها الفرس من الملك التي فتحوها ، فإنهم قسموها جميعاً إلى أقسام . وفرضوا عليها أن تورد الطعام للملك العظيم ولجيشه

(١) يقصد هيرودوت أن يقارن بين هذا الفزو ، والفزو الثاني الذي قام به داريوس بن هوسناسيس .

في خلال فترات خاصة من السنة . كان على بابل أن تقدم الطعام مدة أربعة أشهر من شهور السنة الاتنى عشر . أما بقية مناطق آسيا فتورده خلال الشمانية الشهور الباقيه ومن هذا يبدو أن موارد أشور كانت تقدر بثلث موارد آسيا كلها . كانت هذه أفضل حكومة فارسية من حيث وجهة نظر البابليين . فعندما استولى عليها تريتاناخميس بن أرتا بازوس كانت تدر عليه كل يوم ارديا من الفضة . وكان يملك لنفسه خاصة ، علاوة على خيول الحرب ، ثمانمائة حصان للنتاج وستة عشر ألفا من الأفراس ، يواقع عشرين فرسا لكل حصان . وفضلا على كل هذا ، كان يحتفظ بعدد كبير من كلاب الصيد الهندية لدرجة أنه أعمى أربع قرى كبيرة ، من أرض السهول ، من جميع الالتزامات ، على شرط أن تكفل لها الطعام .

الامطار باشور قليلة لا تكاد تكفى لأنبات الحبوب . وبعد ذلك يتغدى النبات وت تكون السبابل بواسطة الري من النهر . لأن النهر لا يغمر الحقول بالماء من تلقاء نفسه كما يحدث في مصر ، بل ينشر الماء فوق المزروعات بالايدي أو بواسطة الآلات . وتخترق الترع جميع أراضي بابلونيا كما هو الحال في مصر . وتخرج أكبر هذه الترع التي تتوجه نحو « شمس الشتاء » والتي لا يمكن عبورها الا بالسفن من نهر الفرات وتصل الى مجرى آخر يعرف بدجلة ، وهو النهر الذى كانت تقع عليه مدينة نينوى . ولا نعرف قط أرضا أكثر انتاجا للحبوب من بابلونيا . والحقيقة أنها لا تدعى لنفسها انتاج التين أو الزيتون أو الكروم أو أية شجرة أخرى من تلك الانواع ولكن غالتها من الحبوب عظيمة بحيث تغل مائتها ضعف المحصول العادى . وعندما يكون المحصول فى أوجه تصيل الغلة الى ثلاثة ضعف . ويبلغ عندئذ عرض عود القمح او الشعير أربع أصابع ، أما الدرة المويجة والسمسم فلن أقول الى أي ارتفاع تصل عياداهما ، ولو أتني أعلم ذلك حق العلم ، اذ أعرف أن من لم يزر تلك البلاد لا يمكن أن يصدق ما كتبته عن غلة أراضي بابلونيا . ولا يستعمل البابليون زيتا غير المستخرج من بذور نبات السمسم . وينمو النخيل هناك بكثرة فى طول البلاد وعرضها ، وخصوصا النوع المثمر . وتمدهم ثماره بالخبز والخمر والعسل . وتشبه زراعته أشجار التين من جميع الوجوه ، ومن بينها : يربط الوطنيون ثمار النخيل الذكر - كما يسميه الاغارقة - في جرب النخيل الذى يشم البلح ، كى تدخل حبوب اللقاح إلى البلح فتعمل على نضجه ومنع سقوطه . وتشبه ذكور النخل أشجار التين البرية فى أن حبوب اللقاح توجد عادة فى ثمارها .

سأروي الآن ما أدهشني في تلك البلاد أكثر من غيره ، بعد المدينة نفسها : فالسفن التي تسير في النهر ذاهبة إلى بابل مستديرة الشكل ومصنوعة من الجلد . فتصنع هياكلها المكونة من خشب الصفصاف في بلاد أرمينيا الواقعة فوق أشور ، ثم تكسى الهياكل من الخارج بالجلد ، فلا تعرف لها حيز وما ولا كون تكون السفينة مستديرة تماما كالترس . بعد ذلك تماماً إلى حافتها بالقش وتوضع حمولتها فوق ظهرها ، ثم تترك لتسير مع التيار المنحدر إلى أسفل . والحمولة الرئيسية لهذه السفن هي الخمر معبأة في نواجيد مصنوعة من جريد النخل . ويقود السفينة رجال يقفان فوقها ويبد كل منها مدرة ، أحدهما يجر الآخر يدفع^(١) وتحتله هذه السفن في أحجامها . فمنها الكبير ومنها الصغير . وتصل حمولة السفينة الكبيرة إلى خمسة آلاف تالت . وتحمل كل سفينة على ظهرها حمارا حيا وتحمل السفن الكبيرة أكثر من حمار . إذ عندما تصلك السفن إلى مدينة بابل ، تفرغ شحنتها على البر وتعرض للبيع . وبعد أن تباع السلع ، يفكك الرجال السفن ويبينون هياكلها وما فيها من القش . أما العجلود فيضعونها على ظهور الحمير ويعودون بها ثانية إلى أرمينيا . لأن التيار في ذلك النهر بالغ القوة لا يسمح للسفن بالعودة صاعدة فيه . ولذلك تصنع السفن هناك من الجلد أفضل من الخشب . وما ان يعود الرجال إلى أرمينيا حتى يصنعوا سفنا جديدة للمرحلة التالية .

يلبس البابليون جلبابا من التيل يصل إلى أقدامهم ، وفوقه جلباب آخر من الصوف . وعلاوة على ذلك يضعون حول أكتافهم عباءة قصيرة بيضاء . أما أحذيتهم فغربيّة الشكل ، لا تشبه ما يلبسه البيوتين ، *Bacotians* ويتركون شعور رءوسهم تطول ، ويلبسون العمائم ، ويدهنوون جميع جسمهم بالعطور^(٢)

(١) تشبه هذه السفن القوارب البيضية الشكل . وقد وجدت رسومها منحوتة في آثار مدينة نينوى ، ولازال تسير في نهر الفرات .

(٢) يبدو الرأس البابلي مرسوما على « الاسطوانات » في صورة جلباب مخيط يصل من الرقبة إلى القدمين . وتبين بعض الرسوم الرأس مكونا من فميين أو جلبابين ، العلوي منها أشبه بالسترة القصيرة ، مخيطا مثل الجلباب السفلي أو الجونلة . ونرى بجلاء شعر البابليين على الاسطوانات ، يرسلونه خلف ظهورهم ، أما في هيئة خصلات طويلة ، أو يضافونه في صورة جديلة تبدو كالعصا وراءهم . أما أغطية الرأس فمتعددة الأشكال والأنواع ، وأكثرها شبيعا القلنسوة القصيرة أو العمامة التي يخرج منها قرنان مقوسان وقمة عالية أو « طرطور » يبدو بوضوح .

ويحمل كل منهم ختما (١) ، وعصا منحوتة من أعلاها على هيئة تفاحة أو وردة أو نسر أو ما أشبه (٢) اذ من عادتهم الا يمسكوا العصا بغير زخرفة فوقها .

للبابليين عادات كثيرة ، ساذكر واحدة ، اعتقاد حسب تقديرى الشخصى ، أنها أعظم عاداتهم حكمة . تجتمع فتيات كل قرية ، اللواتى فى سن الزواج ، معا فى مكان واحد ، مرة فى كل عام . ويقف الرجال راغبو الزواج حولهن فى دائرة . ثم ينادى الدلال الفتيات واحدة واحدة ، ويعرضن للبيع ، مبتدئا بأجمل فتاة . وبعد أن تباع بمبلغ غير قليل ، يعرضن التى تليها فى مرتبة الجمال وهكذا تباع جمیعهن ليصرن زوجات لأولئك الرجال . فيدخل أكثر البابليين ثراء فى مزاد للحصول على أجمل فتاة . فى حين يحصل الأكتر تواضعا ، ومن لا يهتمون بالجمال ، على الفتيات الأكثر خبرة بآعمال البيوت نظير بائنتان . فمن عادتهم ، أن الدلال ، بعد أن يبيع جميع الفتيات الجميلات ، ينادى على آخر من دمامنة الفتاة كسيحة – لو تصادف وجود واحدة – ويعرضها على بقية الرجال طالبا منهم أن يتقدم من يرضى بها نظير الحصول على أقل بائنة زواج . فيأخذها من يعرض أقل مبلغ يقنع به . وتدفع هذه البائنتان من المبالغ التى جمعت ثمنا للفتيات الجميلات . وهكذا يكون ثمن الجميلة بائنة دمية . ولا يسمح لاي رجل بأن يختار زوج ابنته . كما لا يستطيع أى زوج أن يأخذ الفتاة التى اشتراها دون أن يدفع تأمينا حقيقيا كى يتخذها زوجة له . فإذا لم يتفقا رد المبلغ ثانية . وبحضور هذا المزاد كل راغبى الزواج : حتى من القرى البعيدة ، ويزايدون فى الحصول على زوجة لكل منهم . هذه خير عاداتهم ، غير أنهم اتبعوا طريقة أخرى تختلف عن هذه لدرء العنف عن فتياتهم ومنع انتقامهم منهم والاغتراب فى بلاد بعيدة ، الأمر الذى يجعل من بنائهم مومسات . ويتبع هذه الطريقة الآن فقراء عامة الشعب ، الذين يعاملهم سادتهم ، منذ الفزو ، أسوأ معاملة بعد أن جلبوا الخراب على أسرهم .

وهك العادة التى تلى العادة السابقة فى حكمتها : ليس لدى أولئك

(١) لاشك في أن الاسطوانات البابلية هي الاختام التي ذكرها هيرودوت . وقد وجدت رسوم كثيرة منها على الاوواح الفخارية .

(٢) يوجد كثير من رسوم العصي على الاسطوانات البابلية ونرى في الآثار البابلية المنحوتة أن حاجب المحكمة يمسك دائمًا عصا في يده ، يبدو أنه استعملها شعاراتاً لوظيفته .

ال القوم أطباء . بيد أنه اذا مرض أحدهم ، أرقدوه في الساحة العامة ؛ ويمر به الذاهب والغادى . فإذا تصادف أن أحدهم سبق أن مرض بمثل مرضه، أو كان يعرف شخصا آخر أصيب بمثل هذا المرض، ذكر له الوصفة التي وجد فيها الشفاء في حالته هو نفسه ، أو في الحالة التي يعرفها . ولا يجوز أن يمر شخص بالمريض ولا يسأله عما يشكو منه .

ومن عادة البابليين أن يدفنوا موتاهم في العسل ، ويقيموا مؤتمرا للبكاء كما يفعل المصريون .

وعندما يضاجع البابلي زوجته، بجلس أمام مدفأة يتضاعد منها دخان البخور ، وتجلس زوجته قبالته . وعند الفجر يفترسنان إذا لايستطيعان أن يلمسا أي آنة عام قبل الطهر . ولا يزال العرب أيضا يزاولون هذه العادة .

يتبع البابليون عادة مرذولة ومحجولة للغاية . يجب على كل امرأة ولدت في تلك البلاد أن تذهب مرة واحدة في حياتها ، فتجلس في معبد فينيوس حيث يضاجعها رجل غريب . وتذهب كثيرات من نساء الآثيراء ، - اللواتي يأنفن من الاختلاط بالآخريات - إلى المعبد في عربة مقلفة، يتبعها جمع كبير من الخدم ، ثم تتنحّى مكانها هناك . أما العدد الأكبر من النساء فيجلسن داخل سور المعبد ويضعن الأكاليل على رؤوسهن ويوجد هناك دائما جمع غير من الناس ، بعضهم قادم وبعضهم عائد . وتحدد المرات في جميع الاتجاهات وسط النساء بالمجبال . فيمر الأغراب بينهن ليختار كل منهم من تروقه . وما ان تأخذ المرأة مجلسها هناك ؟ لا تستطيع العودة إلى منزلها قبل أن يرمي أحد الأغراب عملة فضية في حجرها ، ويأخذها معه وراء الأرض المقدسة ويقول الرجل وهو يرمي قطعة النقود : «فلتبادرك الربة موليتها (يطلق البابليون اسم «موليتا» على فينيوس) . ويجوز أن تكون العملة الفضية من أية فئة . ولا يمكن رفضها لأن القانون يحرم ذلك ، إذ تصبح تلك العملة مقدسة وهكذا تذهب المرأة مع أول رجل يرمي القطعة الفضية في حجرها ، وليس لها أن ترفض أي شخص . وبعد أن تذهب معه ، فترضى الربة ، تعود إلى منزلها وبعد ذلك لا يمكنها أن تفرط في عفافها نظير أية هدية مهما بلغت . وعادة ما تنتهي مهمة السيدات الجميلات الفارعات الطول ، بسرعة ، ثم يرجعن إلى بيotechن لأن الآخريات الدميمات الخلقة فيطول بهن المقام هناك قبل انجاز تلك المهمة التي يتطلبها القانون . وقد انتظرت بعضهن ثلاثة أو أربع سنوات في المعبد . وتوجد مثل هذه العادة أيضا في جزيرة قبرص .

الفصل الحادى عشر

* * * * *

سَيِّد

بعد موت كوروس ، تولى الحكم بعده ابنه قمبيز من زوجته كاساندرانى ابنة فارناسبيس ولما توفيت كاساندرانى فى حياة زوجهما كوروس حزن عليها حزنا بالغا وأمر جميع رعاياه بالحداد عليها مثله . ولما كان قمبيز - ابن هذه السيدة من كوروس - يعتبر الاغارقة الايونيين والايوليين عبيد والده ، قادهم فى حملته على مصر⁽¹⁾ ، مع بقية الامم الأخرى الخاضعة لسلطانه .

كان المصريون قبل حكم ملوكهم بساميتيخوس يعتبرون أنفسهم أعرق البشر جمِيعاً . ومنذ أن قام بساميتيخوس بمحاولة عملية لعرفة أقدم الأجناس حقاً ، عرف المصريون أنهم ، رغم تفوقهم على جميع الأمم ، ليسوا أقدمهم ، بل الفروجيون أقدم منهم . فعندما رأى هذا الملك استحالة البت في من يكون أعرق الأمم . . . من سؤال الأقوام ، فكر في طريقة لذلك : أخذ طفلين من الطبقات العادلة وعهد بتربيتها إلى أحد الرعاة التابعين له ، وأمره بأن يحملهما إلى مراعيه ، مشدداً عليه ألا يسمح لأى فرد بأن ينطق أمامهما بأية كلمة ، بل يضعهما في كوخ منعزل . وأن يوضع في مسكنهما عنزة من وقت إلى آخر ، ويراعي أنهما يحصلان على كفايتها من اللبن . كما يراعي القيام بكل ما يازمهما . كان غرضه من ذلك أن يعرف ، بعد أن ينتهي عهد تتممة الطفلين ، أية الكلمة سينطقان بها بوضوح . فحدث ، كما كان يتوقع . . . أطاع الراعي أوامره لمدة سنتين . وبعد انقضاء هذه المدة ، يبيثما كان يفتح باب حجرتهما ذات يوم ويدخل ، اذ جرى إليه

(١) لا يمكن تحديد تاريخ حملة قمبيز على مصر بصفة أكيدة ولكن عام ٥٢٥ ق.م هو التاريخ الأكثر احتمالاً بين جميع التواريخ التي وصلتنا .

الطلان باسطين أذرعهما و قالا بوضوح .. بيروس .. ولما حدث هذا لأول مرة ، لم يهتم به الراعي . ولكنه لما وجدهما يكرران تلك الكلمة كلما ذهب اليهما للقيام بما يلزمها ، أخبر سيده بها . فأمره الملك باحضارهما إليه ، فسمع بساميتي خوس الكلمة بنفسه ، وعندئذ راح يستعلم عن أي الامر يستعمل كلمة « بيروس » فعلم أنها كلمة فروجية بمعنى « خبر » . وعلى ذلك اعترف المصريون بأن الفروجيين أقدم منهم .

أما من ناحية الامور البشرية ، فإن ما اتفق عليه الجميع هو : كان المصريون ، كما يقولون ، أول من اكتشف السنة الشمسية وقسموها إلى اثنى عشر قسماً . وقد حصلوا على هذه المعرفة بواسطة النجوم .

عندما يفيض النيل ، لا يغرق الدلتا فحسب ، بل وجميع الاراضي الواقعة على كل من جانبيه . وكان الناس يعتقدون أن فرعون تابعه لليبيا ولبلاد العرب وكان يغرق الاراضي على جانبيه إلى مسافة مسيرة يومين من شاطئيه . وفي بعض الاماكن .. إلى مسافة أكثر من هذه ، في حين أنه لا يفيض على أماكن أخرى .

لم أتمكن من الحصول على أية معلومات عن طبيعة ذلك النهر ، سواء من الكهنة أو من غيرهم . كنت متلهفاً بنوع خاص إلى أن أعرف منهم السبب في أن النيل يبدأ بالارتفاع في أول الصيف (١) ويستمر الفيضان فيه مائة يوم . ولماذا بعد مضي هذه المدة يعود إلى الهبوط في مجراء ، ويستمر في الانخفاض طيلة الشتاء كله حتى يعود الانقلاب الصيفي مرة ثانية . لم أستطع الحصول على معلومات من الأهلين عن هذه المسائل (٢) برغم أنني كنت أسأل كل من التقى به في طريقى لاعلم ما يعرفه الناس هناك عنها بالاجماع - فلم يستطع أى فرد منهم أن يخبرنى عن سبب تناقض النيل في طبيعته ، ولا السبب فى اختلافه عن سائر الأنهر الأخرى

(١) دشن هيرودوت من أن ماء النيل يرتفع في الانقلاب الصيفي وينخفض في الشتاء . ففى نطاق ممفيس ، يبدأ الفيضان في حوالى العاشر من شهر يونيو ، و يصل في شهر أغسطس إلى الارتفاع الذى يقطع فيه الجسور ويفرق السهول . و يصل الفيضان إلى أقصاه عادة في آخر سبتمبر . وبهذا تكون فترة الفيضان من ٩٢ يوماً إلى مائة يوم ، تبعاً لما كتبه هيرودوت .

(٢) سبب الفيضان هو سقوط مياه الأمطار على جبال الجبالة خلال موسم المطر هناك ويمتد مدى الأمطار الاستوائية شمالاً إلى خط عرض ٤٣° - ١٧° .

فلا يخرج نسيما من سطحه (١) .

بيد أن بعض رجالات الأغريق الراغبين في أن يذيع صيتها في جميع أنحاء العالم ويشتهروا بالبراعة ، وضعوا تفسيرات لهذه الظواهر . فعلوا حدونها بثلاث طرق . اثنان منها : لا أظنهما تستحقان حتى أن يتكلم المرء عنهما ، ولا أن يذكر ما هما : فيدعى أحدهم أن الرياح الموسمية (٢) هي السبب في ذلك الارتفاع بأن تمنع ماء النيل من الجريان إلى البحر . فأولاً : حدث كثير عند عدم هبوب الرياح الموسمية أن ارتفع ماء النيل كعادته . وفضلاً على هذا ، فإن كانت الرياح الموسمية تحدث هذا الآخر ، فإنه يجب في حالة الانهار الأخرى التي تجرى في عكس اتجاه تلك الرياح أن تحدث فيها هذه الظواهر نفسها التي تحدث للنيل ، بل وأكثر مما يحدث له ، لأنها أصغر من النيل وتياراتها أضعف من تياره . ولكن هذه الانهار ، ويوجد كثير منها في كل من سوريا ولibia ، تختلف عن النيل تمام الاختلاف ، من هذه الوجهة .

أما الرأي الثاني ، فائق من هذا – علميا – وأكثر غرابة ، إذ يعزى سبب الفيضان إلى أن النيل يسير على طريقة غريبة . إذ ينبع من المحيط ، وأن المحيط يجري حول الكرة الأرضية كلها .

وأما التفسير الثالث ، الذي هو أكثر تصديقا من التفسيرين السابقين ، فأبعدهما جميما عن الحقيقة إذ لا أساس له . وهو نظريا أكثر منه واقعيا . يعزى فيضان النيل إلى ذوبان الثلوج . وما كان النيل ينبع من ليبيا ، ويمر خلال إثيوبيا ، ثم إلى مصر ، فكيف يمكن أن يقال أنه يتكون من الثلوج الذائبة وهو يجري من أكثر المناطق حرارة في العالم إلى مناطق أبرد منها ، هناك كثير من البراهين تقنع أي فرد قادر على التفكير ، بأن هنا لا يمكن أن يكون سبب الفيضان . فأول برهان وأقوى البراهين جميما يأتي من الرياح التي تهب ساخنة من تلك المناطق . وثانيهما أنه لا يعرف قط تكون الأمطار والصقيع في هذه الجهات . فعندما ينزل الثلوج ، لا بد من سقوط الأمطار في خلال خمسة أيام . وعلي هذا لو كانت هناك ثلوج في تلك النواحي لوجب أن تنزل فيها الأمطار أيضا . وثالثها ، من المؤكد أن أهالي هذه المناطق ذوو بشرة سوداء بسبب الحرارة .

(١) إذا كان معنى هذا أن النيل لا يولد نسيما ، ولا يخرج من سطحه أى نسيم فهو حقيقي . ولكن هذا لا يعني عدم هبوب أى تيار هوائي على واديه .

(٢) تهب الرياح الشمالية الغربية سنويا من البحر المتوسط خلال فترة الفيضان ولكنها ليست السبب في ارتفاع ماء النيل ، ولو أنها تساعد بدرجة بسيطة في مقاومة جريانه نحو الشمال . ولكنها باللغة الهممية للملاحة في هذا النهر .

وأن السماء تظل هناك زرقاء ، كما يظل طائر الخطاف هناك طول العام ، وأن الكراكي عندما تهاجر هرباً من زمهرير شتاء سكوثيا ، تذهب إلى هذه المناطق لتقضى فيها فصل البرودة . فان حدث في المناطق التي ينبع منها النيل أو التي يمر خلالها أن سقط الثلوج ، فمن المستحيل أن تحدث أية حالات من هذه .

أما الكاتب الذي عزا الفيضان إلى المحيط فإنه يعيش في ظلام يستحيل معه البرهنة على خطئه بالجدل وأما أنا شخصياً فلا أعرف نهراً باسم المحيط ، وأظن أن هومير أو أحد الشعراء السابقين له قد ابتكر هذا الاسم وذكره في أشعاره .

ربما حق للمرء بعد تعداد النظريات التي وضعت عن هذا الموضوع العامض أن يقترح تعليلاً من استنتاجه . وعلى هذا أساساً في شرح ما أعتقد أنه السبب في فيضان النيل صيفاً . فخلال الشتاء تدفع الرياح الشمس عن مسارها المعتمد وتنتقل إلى الأجزاء العليا من ليبيا . هذا هو السر كله في عبارة موجزة . لأن المناطق التي يقترب منها الله الشمس أكثر من غيرها ، ويمر فوقها مباشرة ، هي أقل المناطق ماء ، وتنكمش فيها مجاري المياه التي تغذى الانهار ، أكثر من انكماسها في المناطق الأخرى .

لكى نشرح هذا الرأي بالتفصيل نقول : عندما تمر الشمس فوق الأجزاء العليا من ليبيا ، تؤثر فيها بالطريقة الآتية . لما كانت السماء صافية دائماً في تلك البلاد والجو حاراً بسبب انعدام الرياح الباردة ، فعندما تمر الشمس فوقها تؤثر فيها بنفس تأثيرها على الاماكن التي تمر عليها صيفاً عندما يكون مسارها في وسط السماء – أي أنها تجذب المياه وبعد أن تجذب المياه تتدفقها في المناطق العالية حيث تحملها الرياح وتبعثرها وتحولها إلى بخار . ومن هنا يحدث أنه من الطبيعي جداً أن تكون الرياح التي تهب من هذه الامكانة – وهي الرياح الجنوبية والجنوبية الغربية تكون محملة بالامطار أكثر من غيرها . ومن رأيي الشخصى أن الشمس لا تخلص من جميع المياه التي تجذبها من النيل عاماً بعد عام ، بل تحفظ لديها بجزء منها ، وعندما يبدأ الشتاء يخف ، تعود الشمس ثانية إلى مكانها الأول في وسط السماء ، وتشرع في جذب الماء بقوة متساوية في جميع المناطق . ومن رأيي أن النيل عندما يخترق أرض ليبيا كلها ، يتساوى في طوله مع الإيستر وبهذا انتهى من هذا الموضوع .

الفصل الثاني عشر

العادات المصرية

سأتناول موضوع مصر في شيء من التفصيل ، اذ لا توجد مملكة تعادلها في كثرة عجائبها ، ولا في ذلك العدد الهائل من الاعمال التي تتحدى كل وصف ، لا تختلف مصر في طبقتها فيحسب عن سائر بلاد الدنيا ، ولا في أنهارها ، ولكن سكانها يختلفون كذلك عن بقية سكان العالم . ان معظم أخلاقهم وعاداتهم مناقض تماما لأخلاق وعادات غيرهم من البشر . فتؤم نساؤهم الاسواق ويتجرون ، بينما يمكث الرجال في البيوت أمام الآنواح . وبينما يتبع بقية العالم في النسيج أن تكون اللحمة فوق السداة ، فإن المصريين يجعلونها أسفلها . كما أن النساء يحملن الأثقال فوق أكتافهن ، بينما يحملها الرجال على رءوسهم . ويتناول المصريون طعامهم في الطرقات خارج بيوتهم ، ويأكلون إلى بيوتهم للاغراض الخاصة وحيثما في ذلك أن العمل غير الملائم ، والضروري في وقت واحد ، يجب أن يتم سرا . أما الامور الخالية من أي شيء غير لائق فيجب أن تحدث في الطريق علينا ومحظوظ على المرأة الاشتغال بأعمال الكهنة سواء للآلهة أو للربات ، في حين يقوم الرجال بوظيفة الكهنة لكليهما . ولا يلتزم الابناء بكفالة والديهم الا باختيارهم أما البنات فملزمات بذلك سواء أكان هذا برضاهن أو على كره منهن .

يطيل كهنة الدول الأخرى شعورهم أما كهنة المصريين فيحلقون رءوسهم ومن العادة في جميع بلاد العالم أن يحلق الناس شعورهم حدادا على الأقارب أما المصريون ، الذين من عادتهم أن يحلقوا شعورهم في الحالات العادية ، فيتركون العاهم وشعور رءوسهم تطول عندما يموت قريب لهم . ويعيش الناس في البلاد الأخرى بمعرض عن الحيوانات ، ولكن المصريين يعيشون دائما مع حيوانات . وتتفنن الشعوب الأخرى بالشعر والقمح بينما يعتبر المصريون ذلك عارا أى عار ، ويتنفسون

بالذرة الهندية التي يطاق عليها البعض اسم « زيا » ويعجنون الدقيق بأرجفهم ، أما الطين فيخلطونه بأيديهم ، كما يحملون القاذورات والتراب بأيديهم أيضا . وهم الشعب الوحيد في العالم الذي يعرف الختان ومن يعرفه من الشعوب الأخرى فقد تعلمه من المصريين . ويلبس رجالهم ثوبا من قطعتين أما ثوب النساء فمن قطعة واحدة (١) كما يلبسون الخواتم ويربطون حبال الأشرعة من داخلها ، أما غيرهم فيربطها خارج الشارع ولا يكتسبون كالاغريق من اليسار إلى اليمين ، بل من اليمين إلى اليسار ، ورغمما من هذا يصررون على أنهن هم الذين يتوجهون بكتابتهم نحو اليمين أما الاغارقة فهم الذين يتوجهون نحو اليسار ويستخدمون نوعين من الكتابة يطلقون على أحدهما اسم « المقدس » وعلى الثاني اسم « العادي » .

يتمسك المصريون بدينهما إلى درجة بالغة أكثر من أي شعب آخر ، ويتبعون هذه المراسيم : يشربون في أقداح نحاسية يغسلونها ويجهونها كل يوم ولا يشذ عن هذه العادة أحد قط . ويلبسون ثيابا من التيل يحافظون دائما على أن تكون مفسولة حديثا . ويزاولون الختان بقصد النظافة مفضلين إياها على حسن المظهر . ويحلق الكهنة جميع جسمهم كل يومين حتى لا يعلق به القمل والاقدار الأخرى وهم يقومون بخدمة الآلهة . ونيابهم كلها من التيل ، وأخذيتهم من نبات البردي . ولا يصح لهم أن يرتدوا ثيابا أو أحذية من مادة أخرى غير هاتين . ويستحمون مرتبين يوميا بالماء البارد ومرتبين في كل ليلة . وعلاوة على هذه العادات ، لهم آلاف من العادات الأخرى .

(١) وبما تكون لدينا فكرة خاطئة اذا علمنا أن ثوب الرجال في مصر يتكون من قطعتين بينما يتكون ثوب المرأة من قطعة واحدة . كان الثوب المادي للرجال عبارة عن جلباب طويل تحته جونلة قصيرة . فكانوا يخلعون الجلباب وقت العمل ويشتغلون بالجونلة . أما النساء فيلبسن الجلباب الطويل وحده . فإذا أريد لبس ثوب زيادة على ما تقدم صار ثوب الرجل من ثلاثة قطع وثوب المرأة من قطعتين . وعلى هذا لا يقتصر ثوب المرأة على قطعة واحدة بل يجعلونه من قطعتين أى أقل دائما بقطعة واحدة عن ثوب الرجل .

الفصل الثالث عشر

حيوانات مصر

عدد الحيوانات الاليفة في مصر كبير جداً . وكان يجب أن يكون أكبر من هذا لولا ما يصيب القطط . فعندما تلد القططة لاتسعى بعد ذلك وراء صحبة الذكر ، ولذا تلجاً ذكور القطط إلى حيلة غريبة كى تصاحب الاناث مرة أخرى : تقبض الذكور على صفار القطط الحديثة الولادة وتنقلها إلى مكان بعيد حيث تقتلها . فلما تجد الاناث أنها فقدت قطيطاتها ، وهي مولعة بحبها ، تنهض إلى الاستعاضة عنها بغيرها ؛ فتسعى من جديد إلى صحبة الذكور وكلما شب حريق في مصر يحدث أمر غريب كل الغرابة من القطة ، اذ يترك الاهالى النار تتأجج ماشاءت ان تتأجج ، بينما يقفون حولها على مسافات متفاوتة ويرأبون هذه الحيوانات التي تتسلل من بين الرجال أو تقفز من فوق رءوسهم ، وتندفع إلى داخل الاهب مباشرة . وعندما يحدث هذا يتالم المصريون أشد الالم وأمضه . وإذا ماتت قطة في بيت ميته طبيعية ، حلق جميع السكان في ذلك البيت حواجهم . وعندما يموت كلب ، يحلقون رءوسهم وجميع جسمهم .

عندما تموت القطط تؤخذ إلى مدينة بوباستيس حيث تحنط ثم تدفن في مدفن خاص مقدس . أما الكلاب فتدفن في البلاد التي تموت فيها ، في مدافن مقدسة أيضاً . وكذلك يحدث نفس الشيء في حالة النمس . وعلى عكس هذا عندما تموت الصقر وفيران الحقل تنقل إلى مدينة بوتو Buto لتدفن هناك . أما طيور أبي قردان ، فتدفن في مدينة هيرموبولييس وأما الدببة النادرة الوجود في مصر ، والذئاب التي لا تكبر الشعالب كثيراً في حجوم أجسامها ، فتدفن حيث تموت .

هك بعض غرائب التمساح : لاتأكل التماسيخ شيئاً خلال أشهر

الشتاء الاربعة (وهي مدة البيات الشتوي) أنها حيوانات ذات أربعة أقدام ، تعيش على البر وفي الماء على حد سواء . وتensus الانثى بيضها وتفقسه على السطح وتقضى جل نهارها على اليابسة ، ولكنها تأوى إلى النهر في الليل لأن ماءه ادفأ من هواء الليل ومن الندى . والتمساح هو الوحيد بين جميع الحيوانات ، الذي يكبر بنسبة عظيمة ، من أصغر حجم إلى أكبر حجم . فيبضة التمساح أكبر قليلاً من بيبة الأوزة ويولد التمساح في حجم البيبة تقريباً . وعندما يصل إلى بيبة نموه يصير طوله سبع عشرة ذراعاً (أي حوالي ٨٦٥ من الأمتار) أو أكثر . وتشبه عيناه عيني الخنزير وأسنانه ضخمة في شكل الأنياب ، يتناسب حجمها مع حجم أطاراتها . ويختلف التمساح عن سائر الحيوانات الأخرى في أنه عديم اللسان ، كما ينفرد أيضاً في كونه لا يستطيع تحريك فكه الأسفل ، إذ هو الحيوان الوحيد في العالم كله الذي يحرك فكه العلوي دون السفلي . ولهم مخالب قوية ، وجلد مغطى بحراسيف . وحراسيف ظهره قوية لا يمكن أن تنفذ فيها الأنسنة أو تؤثر فيها النصال . ولا يضر التمساح في الماء ، بيد أنه حاد البصر وهو على اليابسة . ولما كان يقضي معظم حياته في الماء ، فإن فمه مملوء دائماً بالدود . ولهذا السبب ، بينما تتحاشاه جميع الطيور والحيوانات فإن هناك طائراً واحداً ، هو العصفور الطنان *trotichus* يعيش معه في صداقه وسلام ، إذ يدين التمساح لهذا الطائر بالشيء الكبير . فمن عادة التمساح عندما يخرج من الماء إلى اليابسة ، أن يستلقى على الأرض ويفتح فاه في مواجهة النسيم الغربي . عندئذ يدخل الطائر فمه وهو مطمئن ، ويلتقط الدود منه . هذا العمل يريح التمساح ويسره ، ولذا فهو لا يصيب ذلك الطائر بأذى قط .

يقدس بعض المصريين التمساح بينما يعامله ببعضهم الآخر معاملة الأعداء . فيقدسه من يعيشون بقرب مدينة طيبة وحول بحيرة مويريس (وهي بركة قارون الحالية) . ويحتفظ سكان كل من هذين المكانين بتمساح واحد معين ويدربونه ويستأنسونه . ويزينون أذنيه بأقراط من الذهب أو الأحجار الكريمة ، ويضعون الأساور حول قدميه الإماميتين ويقدمون إليه في كل يوم مقداراً معيناً من الخبز مع عدد من الحيوانات ليفترسها . وهكذا يجلونه أعظم تمجيل وهو حى . وعندما يموت ، يحنطونه ويدفونونه في مقبرة مقدسة . أما سكان فيلة فلا يعتبرون هذه الحيوانات مقدسة ، حتى إنهم يأكلون لحومها . واسم التمساح باللغة المصرية القديمة خمبسائي *champsae* أما كلمة *Crocodile* فقد أطلقها

عليه الايونيون لعظم الشبه بينه وبين السحلية التي تعيش في ايونيا داخل الجدران ويطلقون عليها هذا الاسم .

هناك طرق كثيرة مختلفة لصيد التمساح . وسأوضح هنا الطريقة التي تبدو لي جديرة بالذكر : يضع صيادو التماسح قطعة من لحم الخنزير في شخص ويعلقونه في وسط الماء ، بينما يقف الصياد على الشاطئ ممسكا بخنزير حي ، ويضربه كي يصرخ . فيسمع التمساح صرخ الخنزير ، فيندفع متوجهها نحو الصوت ، وعندئذ يلتقي بقطعة اللحم فيلتهمها في الحال . فيسحبه الرجال الواقعون على الشاطئ إلى البر . وما ان يصل الى اليابسة حتى يسرع الصياد فيأخذ قطعة من الطين ويطلي بها عيني التمساح . وبذا يستطيع أن يفعل به ما يشاء ، والا سبب له متاعب جمة .

يعتبر فرس النهر (السيد قشطة) مقدسا في جهة باب ريميس ولكنه على خلاف ذلك في بقية البلاد المصرية . ويمكن وصف فرس النهر بأنه : حيوان من ذوات الاربع ، مشقوق الاظلاف ، تشبهه حوافره حوافر الثور ، وأنفه عريض مفلطح وله معرفة وذيل يشبهان معرفة وذيل الحصان ، وأننيا به ضخمة ظاهرة ، وصوته يحكي صهييل الفرس . وهو في حجم أكبر ثور . وجده بالغ الصلابة حتى لتصنع منه الحراب بعد تجفيفه .

كذلك يوجد بالنيل كلب الماء (حيوان مائي يتغذى بالسمك) ، ويعتبر مقدسا . كما يقدس المصريون نوعين من الاسماك ليس غير ، هما : ثعبان الماء ونوع آخر جسمه مغطى بششور صلبة معينة الشكل يعرف باسم ليبيدو توس ويقدسوه بالنيل . وكذلك الحال بين الطيور ، فيقدسون نوعين منها يشتهران بالذكر كالشعالب ، ويعرفان باسم البانسر والأوزة الماكرة .

كذلك لديهم طائر مقدس آخر هو الفنيكس ولو انه شخصيا وانما رأيت صورته والحقيقة انه طائر نادر الوجود جدا ، حتى في مصر ، ولا يذهب اليها (تبعا لرواية سكان هليوبوليس) الا مرة في كل خمسمائة سنة عندما يموت الفنيكس القديم . واذا كان لهذا الطائر وجود ، ويشبهه ما في الصورة ، فحجمه ومنظره هكذا : بعض ريشه احمر ، وبعضه ذهبي اللون . وأما شكله وحجمه فكالنسر تماما . (وربما كان هو العنقاء) ويحكى قصة غريبة عن ذلك الطائر ، لا تبدو لي معقوله أو مستساغة . يقطع هذا الطائر المسافة كلها من بلاد العرب الى مصر طائرا حاملا أباه داخل قالب من المر المكى الى معبد الشمس حيث يدفنه . ويفعل ذلك بأن يصنع اولا كرة من المر المكى ، في أكبر حجم يمكنه حمله ثم يفتح فجوة

كبيرة في تلك الكرة ، تتسع لوالده ، ويوضعه داخلها ثم يسد الفجوة ثانية بالمر المكى أيضا . وعندئذ تكون الكرة بنفس وزنها الأصلى وهكذا يحضر والده الى مصر داخل قالب من المر المكى كما سبق أن ذكرت وبعد ذلك يودعه معبد الشمس . هذه هي القصة التى يحكونها عن ذلك الطائر .

كان المصريون يقدسون بعض العادات فى جوار مدينة طيبة . وهى حيات عديمة الأذى تماما وصغيرة الحجم لكل حية منها قرنان فى قمة رأسها وعندما تموت هذه الأفاعى تدفن فى معبد جوبيترا ، وهو الاله الذى تكرس له هذه العادات .

ذهب ذات مرة الى مكان ما فى بلاد العرب قبالة مدينة بوتو تماما ، لاستعلم عن حيات المجنحة . فلما وصلت الى هناك رأيت عظاما من السلسل الفقرية والضلوع ، فى اعداد لا تحصى ، وكلها لتعابين . فأكواب الضلوع عديدة ، بعضها ضخم ، وبعضها صغير وبعض آخر متوسط الحجم . ويقع المكان الذى به تلك العظام عند مدخل واد صخرى ضيق ووسط جبال شديدة الانحدار تطل على سهل فسيح يتصل بسهل مصر العظيم . وتقول القصة ان حيات المجنحة^(١) تأتى فى فصل الربع طائرة من بلاد العرب متوجهة شطر مصر . بيد انها تلتقي فى هذا الوادى بطائر يقال له «ابامنجل» يعترض طريقها وهى داخلة الى الوادى ويفتك بها جميعا . ويؤكد العرب ، كما يعترف المصريون بأنهم يقدسون «ابامنجل» من أجل هذه الخدمة العظيمة .

أبو منجل طائر أسود اللون ، ذو أرجل كأرجل الكركى ومنقار معقوف شديد التقوس ، وهو فى حجم الدجاجة الرومية تقريبا ، هذا وصف أبي منجل الأسود الذى يبييد الأفاعى . أما النوع العادى والأكثر شيوعا (لان هناك نوعين من هذا الطائر يختلف كل منهما عن الآخر) ^(٢) فعارض الرأس والرقبة كلها من الريش ، زلونه أبيض الا رأسه ورقبته فمن لون داكن ، وكذلك أطراف جناحيه وذنبه ، ويشبه النوع الأول فى منقاره وأرجله . (انه الطائر المعروف باسم أبي قردان) ويشبه النعسان الطائر ثعبان الماء ، وأجنحته عديمة الريش ولكنها تشبه أجنحة الخفاش . وبهذا انتهى من موضوع الحيوانات المقدسة فى مصر .

(١) حيرت حياة هيرودوت المجنحة كثيرا من الناس منذ عصر باوسانياس الى الوقت الحاضر وقد ورد ذكر «الافاعى الطائرة النارية» بالتوراة ، في سفر اشعيا (٣٠ - ٦) .

(٢) يقدس المصريون أبو منجل لابادته الحشرات الشارة . كما كانت الجماعة تقدس في تساليا لنفس السبب . ويقدس أبو منجل للاله تروث ، وهو هيرميس المصرى .

الفصل الرابع عشر

النَّقَالِيدُ الْمَصْرِيَّةُ

بعد أن تنتهي الوليمة في الحفلات الاجتماعية لطبقة الأغنياء ، يمر خادم على الزائرين وهو يحمل نعشًا به تمثال خشبي منحوت ومطلي باللون ليحكى جثة طبيعية لشخص ميت ، بقدر الامكان . يبلغ طول التمثال ذراعاً أو ذراعين . ويقول الخادم وهو يقدمه لكل ضيف بيوره : «تأمل في هذا التمثال ، واشرب وكن مرحاً فعندما تموت ستكون على هذه الصورة » .

هناك عادة أخرى يحاكي المصريون فيها بعضًا من الشعوب الأغريقية يعرفون باللاكيدايمونيين : عندما يرى الصغار الكبار في الطريق يفسحون لهم الطريق وينتحون جانبًا . وإذا أقبل شخص كبير إلى حيث يوجد الصغار نهض هؤلاء الصغار من مجلسهم واقفين . ويختلف المصريون عن جميع الشعوب الأغريقية في نقطة ثالثة . فعندما يقابل أحدهما الآخر في الطريق لا يتحدث كل منهما إلى الآخر ، بل ينحني ويخفض يديه إلى ركبتيه .

يلبس المصريون جلباباً من التيل ذو أهداب حول الأرجل يقال له كالاسيريس ويرتدون فوقه ثوباً من الصوف الأبيض . وتحترم عليهم ديانتهم أن يذهبوا إلى المعبد مرتدين أي ثوب من الصوف أو يدفنوا به .

كذلكاكتشف المصريون لمن من الآلهة يقدس كل يوم وكل شهر ، وكانوا يعرفون منذ ولادة المرء^(١) ماسيلاقيه طول حياته . كذلك اكتشف

(١) استعمل المصريون الإبراج السماوية منذ القدم . وقد تكلم شيشرون عن المصريين وعن الكلديين فقال إنهم يتنبئون بالمستقبل وبمسير المرء ، منذ ولادته بمراقبتهم للنجوم .

المصريون تنبؤات عديدة أكثر من بقية شعوب العالم . فكلما صادفوا أمراً غريباً ، لاحظوه ودونوا ملاحظاتهم عنه والنتائج التي ينتهي إليها . فإذا تكرر حدوث نفس الشيء توقعوا نفس تلك النتائج .

مارس المصريون الطب بطريقة استقل فيها كل فرع من فروعه عن بقية الفروع الأخرى فكل طبيب يعالج نوعاً خاصاً من الأمراض ولا يعالج غيره فقط . وبذل كانت البلاد داخراً بالطباء . بعضهم اخصائى في أمراض العيون ، آخرون في أمراض الرأس وبعض ثالث لا يعالج سوى أمراض الأسنان . ويختص غير هؤلاء في اضطرابات الامعاء ، وبعض آخر في أمراض غير موضعية ، وهكذا .

سأبين لك ، أيها القارئ ، طريقة المصريين في المدح واقامة الجنائز : عندما يموت أحد الوجهاء ، تطلى نساء الأسرة رعوسيهن بالطين ، وأحياناً يطلين وجوههن أيضاً . ويتركن الجثة خارج الدار ويقطفن بطرق المدينة . وقد ربطن أنواعهن بأشرطة ، وتركتن صدورهن عاريات ، يلطمنها بأيديهن وهن سائرات . وينضم اليهن جميع النساء قريباتهن فيفعلن مثلهن . أما الرجال فيفعلون مثلهن ، ويلطمون صدورهم على انفراد وبعد الانتهاء من هذه التقالييد ، تنقل الجثة للتحنيط .

هناك فئة خاصة ، في مصر ، تمارس فن التحنيد وتتخذه مهنة خاصة بها وعندما يتسلمون جثة لمحنيتها ، يقدمون إلى أهل الميت نماذج جئت من المذهب مطلية بالألوان المماثلة للألوان الطبيعية . وأجود هذه الطرق وأعظمها كمالاً ، طريقة من لا يسمح لي احترام الدين بذكر اسمه فيما يتعلق بهذا الأمر . أما الطريقة الثانية فتقل عن هذه في الجودة والنفقات . وأما الثالثة فارخصها جميعاً . يشرح اخصائيو التحنيد كل هذه الطرق لأهل الميت ، ثم يسألونهم عن الطريقة التي يرغبون في أن تمحض بها الجثة . وبعد الاستقرار على نوع التحنيد ، والانتهاء من المساومة على الأجر ، ينصرف أهل الميت ليبدأ خبراء التحنيد عملهم ، وأجود تحنيط يكون هكذا : يأخذ المحظوظون خطافاً من الحديد^(١) يسحبون به المنح من الحياشيم وبذل يتخلصون من جزء منه . أما بقيته فيزييلونها بتفع الجمجمة في عقاقير خاصة . بعد ذلك يشقون أحد جانبى الجثة

(١) توجد آثار بالمومياء تدل على التخلص من المنح عن طريق الحياشيم . أما العقاقير فكانت تستعمل لازالة الأجزاء التي لم يستطع الخطاف الوصول إليها .

بحجر (٢) اثيوبي حاد ، ويستخرجون عن طريقه جميع محتويات البطن الذى ينطقونه بعد ذلك بآن يغسلوه جيدا بكحول النخيل ، ثم يغسلوه بعد ذلك عدة مرات بمحاليل العطور بعد هذا يملئون تجويف البطن بأنقى أنواع المر المكى المجروش ، وخيار الشنبر ، وجميع انواع التوابل ما عدا اللبن الذكر ، ثم يخيطون الفتحة . وبعد كل هذا ، يضعون الجثة فى النطرون لمدة سبعين يوما بحيث يغطيها تماما . وبعد انتصاء هذه المدة ، التى لا يجب أن تزيد على هذا القدر ، يغسل الجسم كله ، ويلف من الرأس الى القدم بمنسوج التليل الرفيع ، ويطلق بالصيغ الذى يستعمله المصريون عادة بدل الغراء . ثم يسلم على تلك الحال لأقاربها ، فيضعونه فى صندوق خشبي صنعوه خصيصا لهذا الغرض على صورة انسان . ثم يقللون الصندوق ويضعونه فى الضريح ، ويستندونه رأسيا الى الحائط . هذه هي أغلى الطرق لـ التحنيط الموتى .

أما اذا أراد اهل الميت الاقتصاد فى نفقات التحنيط ، واختاروا الطريقة الثانية فهاكها : تملأ عدة محققون بزيت يستخرج من شجر الأرز ، ثم يحقن الزيت فى بطん الجثة . وتسد الفتحة التى يعود منها هذا الزيت ، وتوضع الجثة بعد ذلك فى النطرون لمدة السبعين يوما المعلومة . وبعد انتصاءها يترك الزيت ليخرج من الجثة . وهذا الزيت قوى المفعول لدرجة أنه يخرج معه كل المعدة والأمعاء فى حالة سائلة كما أنه يكون قد أذاب اللحم فلا يبقى من الجثة غير الجلد والعظام . ويعاد الميت وهو على تلك الحال الى أقارب الميت دون عمل أى اجراء آخر .

وطريقة التحنيط الثالثة التى تستخدم فى حالة الطبقات الاكثر فقرًا هى : تزال الأمعاء بمحقن ثم تترك الجثة فى النطرون لمدة سبعين يوما ، ثم تسليم بعد ذلك مباشرة لمن يحضرون لتسليمها .

لا ترسل نساء الطبقات الراقية الى التحنيط بعد موتها مباشرة ، ولا النساء الجميلات أو الجليلات القدر . لا يؤخذ هؤلاء الى اخصائيي التحنيط الا بعد أن يمضى على موتهن ثلاثة أو أربعة أيام ، وذلك لعدم الخط من أقدارهن .

واذا قتل تمسيح شخصا ، سواء أكان أجنبيا أو مصريا ، أو غرق

(٢) وجدت بالمقابر مومياء غير مشقوقة الجنب ولا مفرقة الاشتاء . بيد أن هذا الشق وجد في كثير منها ، وحتى في أنواع من التحنيط الأقل من هذا . وعلى ذلك لا يقتصر شق الجنب على التحنيط الممتاز . والحقيقة ان هناك درجات كثيرة لكل نوع من أنواع التحنيط .

شخص في النهر فإن القانون يحتم على سكان المدينة التي أقيمت الجثة يقر بها أن يحيطوها ويدفنوها في أحد المقابر المقدسة مع القبر بكل ما يمكن من مظاهر التبجيل^(١) ولا يسمح لأحد قط ، حتى ولا الأقارب أو الأصدقاء أن يمسوا الجثة . وإنما يقوم كهنة النيل دون سواهم ، بإعداد الجثة بأيديهم للدفن – معتبرين إياها أكثر من جثة إنسان – ويضعونها في القبر بأيديهم أيضا .

لا يجتمع السمك بأية أعداد في الانهار ، بل يوم البحيرات الساحلية ثم يهجرها وينزح إلى البحر في موسم التناسل ، قطاعانا وجماعات . وتتقدم ذكورها الإناث وتفرز السائل المنوي في الماء وهي سائرة بينما تتبعها الإناث مباشرة وتلتئم ذلك السائل في شرارة . وبهذا تحبل تلك الإناث . وبعد أن تقضى مدة في البحر تتكون البطارخ في بطونها . وعندئذ تعود الجماعة كلها إلى موضعها القديم . وفي أثناء العودة ، تتقدم الإناث الذكور سابعة ككتلة واحدة وتفعل ما كان بفعله الذكور من قبل تماما . فتسقط حبوب البطارخ قليلا قليلا وهي سائرة ، بينما تسرع الذكور السابعة خلفها بالتقاط تلك الحبوب التي هي عبارة عن أسماك ، كل حبة سمكة . وفي تلك الإناء تهرب بعض الحبوب دون أن تبتلعها الذكور فتكبر وتصير سمكا يافعا . وإذا صيد بعض هذه الأسماك وهي سائرة في طريقها إلى البحر ، وجد الطرف الأيسر من رأس كل منها مشقوقا . أما إذا صيدت وهي عائدة فالشبق يكون في الجانب الأيمن . والسبب في ذلك أنها عندما تسbieg ذاتها إلى البحر تلتزم الشاطئ الأيسر للنيل ، وعندما تعود تلتزم كذلك نفس ذلك الشاطئ لتتأكد من أنها لم تضل الطريق . فتحتني به باستمرار فيحدث بها ذلك المرض . وعندما يبدأ النيل يفيض تمتد الأخداد والمستنقعات القريبة منه بماء قبل أي مكان آخر ، بواسطة تسرب الماء خلال الشاطئين . وعندما تصبح هذه بركا تزرع بالأسماك الصغيرة . فعندما انحسر ماء النيل في العام السابق ، عادت الأسماك مع الماء المنحسر ، ولكنها برغم هذا تكون قد وضعت أجنبتها في الطين على الشاطئ . وهكذا عندما تعود المياه في موسم الفيضان تخرج الأسماك الصغيرة من بيض العام السابق هذا كل ما يتعلق بالأسماك .

يدهن المصريون المقيمون بأراضي المستنقعات أجسامهم بزيت

(١) القانون الذي يحتم على الأهلين تحنيط جثة من يوجد ميتا يقرب مدنهما وأن يدفنوها باحتفال عظيم وبأبهى مظاهر البدخ هو قانون الشرطة وقانون السلطات الصحية .

يستخرجونه من ثمار نبات ينمو برياً في بلاد الاغريق ويطلق المصريون عليه اسم «كيكى» فيزرعونه على شواطئ الانهار والبحيرات حيث يشمر بغزارة وتكون رائحة التamar كريهة للغاية . فتجمع هذه الشمار وتسحق وتعصر أو تسوى في الماء المقلع بعد تحميصها . ثم يجمع السائل المستخرج منها ويكون زيتى القوام وصالحاً للأضاعة مثل زيت الزيتون تماماً بيد أنه يختلف عنه في رائحته غير المقبولة .

تزرع البلاد بالبعوض ، فيتخد القوم حياله الطرق الآتية : في بلاد مصر المرتفعة عن أراضي المستنقعات ، يقضى السكان ليتهم فوق الربى؛ اذ لا يستطيع البعوض أن يطير إلى أى ارتفاع بسبب الرياح . أما الأرض المنخفضة التي لا توجد بها الروابى فيشتري كل فرد لنفسه شبكة يستخدمها له كللة (ناموسية) بالليل ، ويصيد بها السمك نهاراً . فيغطى بها فراشه الذي يستريح فيه ليلاً ، ويتسدل تحتها وينام هادئاً . أما اذا التف بنياه أو بملاءة من المسلمين ، دون استعمال الكللة فلا ريب في أن البعوض يلدغه من خلال المنسوج ، ولكنه لا يستطيع المرور من ثقوب الكللة .

ينقل المصريون بضائعهم في سفن يصنعونها من خشب السنط . والسنط شجر كنير الشوك ، عندما يكبر يكون قريب الشبه من شجر اللوتس الكورييني ؛ ويفرز نوعاً من الصمغ . فيقطعون من هذا الشجر ألواح طول كل منها حوالي ذراعين ، ثم يشرعون في صنع السفن . فيرصون تلك الألواح كما يرص الطوب ويربطونها إلى دعامات طويلة أو قضبان حتى يتم صنع هيكل السفينة . بعد ذلك يضعون الألواح المستعرضة فوقها ، ممتدة من جانب إلى الجانب الآخر . ولا يتخدون ضلوعاً لسفنهما ، بل يحيطون الشقوق بأوراق البردي من الداخل . ولكل سفينة دفة واحدة تغرس في قاع السفينة مباشرة . وتصنع سارية السفينة من خشب السنط أيضاً والشرع من ورق البردي . ولا تستطيع هذه السفن أن تسير إلى أعلى النهر ضد التيار الا بمساعدة الرياح . وأما إذا سارت إلى أسفله مع التيار ف تكون قيادتها هكذا : لكل سفينة طوف مصنوع من أخشاب الأشجار المربوطة معاً بعيدان الغاب المضفورة . كما أن لكل سفينة حجر متقوس من وسطه يبلغ وزنه حوالي تالنتين . ويربط الطوف إلى السفينة بحبيل ويترك ليسيطر مع الشيارة أمام السفينة ، التي يسميها القوم «باريس»، بينما يتدبى الحجر

من مؤخر السفينة بحبيل مربوط به . فت تكون النتيجة أن يسرع الطوف مع التيار ويجر السفينة ، في حين أن الحجر المتدلى عميقا في الماء يسحب مؤخرها إلى أسفل فيعمل على الاحتفاظ بها أفقية . ويوجد بمصر عدد كبير من هذه السفن تبلغ حمولتها بعضها عدة آلاف من التالتات .

عندما يفيض النيل ، يغرق الأراضي ، ويحيلها إلى بحر ، فلا يظهر منها شيء غير المدن التي تبدو كالجزر وسط بحر أبيجه . وفي هذا الموسم لا تسير السفن في المجرى الأصلي للنيل ، وإنما تسير في المياه التي تغمر السهل .

الفصل الخامس عشر

بعض ملوك مصر

تكلمت عن مصر في الابواب السابقة تبعاً لمشاهدتي . فذكرت مارأيته بعيني رأسي والأراء التي كونتها بنفسها ، ونتائج أبحاثي الشخصية . أما المعلومات الآتية فاستقيتها من المصريين أنفسهم . وبناء عليه ذكرها هنا كما هي ، وأضيف إليها بعض الملاحظات التي استرعت انتباحي .

قال لي الكهنة ، إن أول ملوك مصر هو مينا ، وأنه هو الذي أقام الجسر الذي يقى مدينة ممفيس خطراً فيضان النيل . فقد كان النيل قبل عهده يفيض على طول سلسلة من التلال الرملية التي تحد مصر من ناحية ليبيا . فصنع سداً وسط النيل عند المنحنى الذي يكونه النهر جنوبى ممفيس بحوالى مائة فورلنجر وبدأ جفف مجراته القديم . وفي نفس ذلك الوقت حفر له طريقاً جديداً في منتصف المسافة بين صفي التلال .

بعد هذا ، قرأ لي الكهنة من أوراق البردى أسماء ثلاثة وثلاثين ملكاً خلفوه على العرش ، تبعاً لـ«قول أولئك الكهنة» . وفي هذه الأجيال العديدة تولى الحكم ثمانية عشر ملكاً إثيوبياً وملكة وطنية واحدة . أما بقية الملوك فكانوا رجالاً ومصريين . وكانت تلك الملكة تحمل نفس اسم ملكة بابل ، أي نيتوكريس . فيقولون أنها خلفت أخاه الذي كان ملكاً على مصر وقتلها رعياياه ثم أقاموها على العرش مكانه . ولما كانت قد صمممت في قراره نفسها على أن تأخذ بثأر أخيها ، وضعت خطة بدهاء فأبادت عدداً كبيراً من المصريين : شيدت قاعة واسعة تحت الأرض وبحجية تدشينها اقامت ولية عظمى دعت إليها أولئك المصريين الذين كانت تعرف أنهم قاموا بالدور الرئيسي في مقتل أخيها وبينما هم يولون أطلقوا عليهم ماء النهر فجأة بواسطة سد سرى بالغ الحجم . هذا هو كل ما أخبرنى به الكهنة عن تلك

الملكة ، باستثناء أنها عندما فعلت هذا ألقت بنفسها في حجرة مليئة برماد النار هربا من الانتقام الذي تتعرض له .

أما الملوك الآخرون ، فيحسب أقوال الكهنة ، لم يكونوا من المشهورين أو الجديرين بالذكر .

بعد اغفال الكلام عن أولئك الملوك الخاملي الذكر ، تحدث عن الملك الذي حكم بعدهم . كان اسمه سيزوستريس قال الكهنة ان أول شيء بدأ به هذا الملك هو أنه سار بأسطول من السفن العربية ، من الخليج العربي بمحاذاة سواحل ايرثرايا (الخليج الفارسي) ، فأخضع الأمم التي من بها حتى وصل أخيرا إلى بحر غير صالح للملاحة بسبب كثرة الاماكن الضحلة به . ثم عاد من هناك إلى مصر ، حيث جمع جيشه في عدد الحصى ؛ يحسب أقوال الكهنة ؛ وتقدم به عن طريق البر إلى وسط آسيا ، فأخضع جميع الأمم التي كانت في طريقه . وقد أقام أعمدة^(١) في البلاد التي قاومه أهلها وحاربوه بشجاعة مدافعين عن حريةهم ، ونقش على الأعمدة اسمه وأسم دولته ، وأنه أخضع لحكمه أهل ذلك البلد بقوة السلاح . أما الأمم التي استسلمت له مباشرة بدون قتال ، فنخشى على الأعمدة التي تركها بيبلادهم ، بالإضافة إلى ما سبق ، شارة تدل على أنهم أمة من النساء ، أي أنهم غير مقاتلين ومحنتون .

اختفت أغلب الأعمدة التي أقامها سيزوستريس في البلاد التي غزتها . أما التي أقامها في سوريا فقد رأيتها قائمة في المنطقة المعروفة بفلسطين ، وعليها النقوش التي ذكرتها وكذلك الشارة ، واضحة تمام الوضوح .

استطرد الكهنة يقولون إن سيزوستريس هذا عندما عاد إلى قطنه يتبعه جمع غفير من الشعوب التي أخضع بلادها^(٢) ، استقبله أخوه الذي كان

(١) توجد هذه الآثار الخاصة برمسيس الثاني في سوريا فوق الصخور القائمة على مصب نهر لوکوس (ويسمى الآن بنهر الكلب) .

(٢) كان من عادة ملوك مصر أن يحضروا أسراه إلى مصر ويستخدموهم في الأعمال العامة كما تدل على ذلك النقوش العديدة الموجودة على الآثار ، وكما يقول هيرودوت (في الباب الثامن بعد المائة) . وكذلك كانوا يستخدمون اليهود بنفس الطريقة . فبرغم أنهم حصلوا أولاً على مراع لاشتيتهم في أرض جوشن (التكونين ٦٦ ، ٣٤) أو البوکوليا حيث كانوا يرعون تعنان الملك (التكونين ٦٧ ، ٦ ، ٢٧) فإنهم أجبروا أخيراً على القيام بعدة أعمال كأسرى الحرب العاديين .

سيزوسنطرييس قد أتاهه عنه في حكم مصر ابن غيايه ، وكان يقيم في دفني قرب بيلوسبيوم ، ودعاه إلى وليمة حضرها سيزوسنطرييس وأبناؤه . غير أن أخيه أحاط المكان الذي به الوليمة بالأخشاب وأشعل فيها النيران . فلما رأى سيزوسنطرييس ما حدث ، استشار زوجته في الحال ، وكانت برفقته في الوليمة ، فأشارت عليه بأن يضع اثنين من أبنائه الستة فوق النيران ويتحذذ منها قنطرة يمر عليها بقية أفراد الأسرة . ففعل كما نصحته زوجته . وهكذا احترق الإنسان من أبنائه وما تأله ولكن نجا هو وأبناؤه الباقون .

بعد ذلك عاد الملك إلى بلده وانتقم من أخيه . ثم شرع يستخدم الجموع الذين أحضرهم معه من البلاد التي غزاها ، في نقل كتل الصخر الضخمة التي نقلها ابن حكمه إلى معبد فولكان - وفي حفر مختلف الترع التي تخترق جميع أراضي مصر . وبهذه الأعمال الإجبارية تغير وجه المملكة تغيراً كلياً . فبينما كانت مصر ، قبل ذلك ، صالحة لسير كل من الخيول والعربات ، غدت غير صالحة لسير أيهما (١) فعلى الرغم من أن رقعة أرض مصر كانت كلها سهولاً مستوية ، إلا أنها أصبحت بهذا العمل غير صالحة لسير الخيول ولا العربات . إذ صارت تخترق أرضها الترع العديدة التي شقت في جميع الاتجاهات وكان غرض ذلك الملك من هذا العمل توصيل المياه إلى سكان المدن الكائنة في وسط المملكة والتي لا تقع على النيل ، إذ كانوا يضطرون قبل ذلك ؟ بعد انحسار مياه الفيضان إلى أن يشربوا ماء ملحاً يحصلون عليه من الآبار (٢) .

كذلك قسم سيزوسنطرييس ، كما يقرر الكهنة ، أرض مصر إلى قطع مربعة الشكل متساوية في المساحة ، ووزعها على السكان ، مانحاً كل فرد قطعة منها على أن يدفع له إيجرارا سنوياً وإذا محا النهر جزءاً من نصيب أي رجل ، ذهب إلى الملك وشكاليه بما حدث ؛ فيرسل الملك مندوبيه ليقيسوا بالضبط مساحة الجزء الذي أزاله النهر ، وبناء على هذا التحديد يخفض الإيجار . فلا يطالب ذلك الرجل إلا بایجرار قطعة

(١) كان من المكن جداً أن يزيد عدد الترع في عصر رمسيس الثاني . ويدل هذا ، كبقية رواية هيرودوت ، على أن رمسيس الثاني هو نفس سيزوسنطرييس الذي يصف أعماله هنا .

(٢) يتسرّب الماء خلال التربة الطينية إلى الآبار الموجودة في باطن الأرض حيث يصير عذباً ، ولو أنه في بعض الأحيان يكون عسراً (الماء العسر هو المحتوى على أملاح لاتحدث رغوة مع الصابون) .

الارض الباقيه له . وأظن أن تلك العمليه هي التي أوجدت علم الهندسه لأول مرر في مصر ثم انتقل منها الى بلاد الاغريق . أما المزولة وتقسيم النهار الى اثنى عشر قسما فقد أخذهما الأغارقة عن أهل بابل .

لم يكن سيزوستريوس ملك مصر فحسب ، بل وملك اثيوبيا أيضا . كان هو الملك المصري الوحيد الذي حكم ذلك القطر الاخير . ومن الآثار التي تركها تخلیداً لذكرى حكمه تلك التماثيل القائمه أمام معبد فولكان : اثنان منها يمثلانه هو وزوجته وارتفاع كل منهما ثلاثون ذراعا . أما الأربعه الباقيه فتمثل أبناءه وارتفاع كل منها عشرون ذراعا هذه هي التماثيل التي رفض كاهن فولكان ، بعد ذلك بسنوات عديدة ، أن يسمح لداريوس الفارسي بأن يقيم أمامها تمثلاً لنفسه ، اذ كما قال ذلك الكاهن : « لم يعمل داريوس أعمالاً كالتى عملها سيزوستريوس المصري . لأن سيزوستريوس أخضع جميع الشعوب التى أخضعها داريوس ، وزاد عليها السكوثيين الذين أخفق داريوس فى اخضاعهم . وعلى ذلك فليس من العدل أن يقيم لنفسه تمثلاً أمام تمثال ذلك الملك الذى لم يستطع داريوس أن يتتفوق عليه فى أعماله » . ويقواون ان داريوس عفا عنه من أجل ذاك الكلام .

قال الكهنة ، بعد موت سيزوستريوس اعتلى العرش ابنه فرعون ولم يقم هذا الملك بأية حملات حربية ، اذ أصابه العمى بسبب هذه الظروف : فى احدى السنوات ارتفع ماء النيل ارتفاعا غير عادى حتى وصل الى ثمانى عشرة ذراعا ، وأغرق الحقول . وتصادف أن هبت الريح فجأة فارتفعت المياه فى موجات عظيمة . عندئذ استبدلت بالملك نزوة الحاد ، فأمسك رمحه وقدفه وسط اللجاج العاتية . وفي الحال اصابه مرض فى عينيه انتهى الى اصابته بالعمى بعد فترة وجيزه (١) ، فظل محروما من قوة الابصار عشر سنوات . وأخيرا ، فى السنة الحادية عشرة بلغته نبوءة من مدينة بوتو ، نقول :

(١) هذه احدى روايات المرافين الاغارقة ، قد ينظم الشاعر الاغريقي قصة حسنة السبك من اخيل أو عن نهر طروادة . أما كتبة النثر المصريون فلا يصوروون ملوكهم يقومون بأعمال تنافض عاداتهم ومعتقداتهم الدينية . وكذلك قصة النساء هذه غير مصرية . أما ذكر العلاج الذى لا يزال يستعمل في مصر للرمد ، فيدل على أن حقيقة بسيطة قد حولت الى قصة غير محتملة الحدوث .

« لقد انقضت مدة العقوبة ويجب أن يسترد فرعون بصره لأن يغسل عينيه بالبول . ينبغي أن يبحث عن سيدة مخلصة لزوجها ولم تفضل عليه قط، أى رجل آخر » وعلى ذلك بدأ الملك بتجربة بول زوجته . ولكنه لم يفده شيئاً - ظل أعمى كما كان من قبل . فكرر التجربة ببول سيدات آخريات حتى نجح في النهاية واستعاد قوته بصاره . وبعد هذا جمع كل النساء اللواتي استعمل بولهن ، ما عدا الاختير ، وقادهن إلى المدينة التي تسمى ايلروبلوس (أى الأرض الحمراء) حيث أحرقهن جميعاً مع المدينة نفسها . أما السيدة التي يدين لها بشفائتها فتزوجها . وبعد تمام شفائها قدم الهدايا لجميع المعابد . ومن أهم هذه الهدايا مسلتان قدمهما لمعبد الشمس . انهما من روائع الفن ، اذ نحتت كل منهما من قطعة واحدة من الصخر عرضها ثمانى أذرع وارتفاعها مائة ذراع .

الفصل السادس عشر

قصة رامبسينيتوس

لما توفي بروتيوس خلفه على العرش رامبسينيتوس (١) Rhampsinitus الغربي لمعبده فولسكان ، والتمثالان القائمان أمام هذا المدخل ، ويطلق المصريون على أحدهما « الصيف » وعلى الآخر « الشتاء » ، وارتفاع كل منها خمس وعشرون ذراعا . ويتجه تمثال الصيف إلى الشمال أكثر من الآخر ويعبده السكان الوطنيون ؟ وله كثير من الهدايا قدموها إليه . أما تمثال الشتاء القائم جهة الجنوب ، فيعامل على نقيض هذه المعاملة تماما .

يقال ان الملك رامبسينيتوس كان واسع الشراء يملك كنوزا عظيمة من الفضة والحقيقة أن كميتها كانت بالغة لدرجة أنه لم يتتفوق عليه أو يساويه أحد في ثرائه من جميع الملوك الذين خلفوه . ولكى يحرس أمواله جيدا ، عزم على أن يبني حجرة واسعة من الصخر المنحوت بحيث يكون أحد جوانبها واجهة قصره . فلما كانت للبناء أطماء فى تلك الكنوز صمم خطة وهو يقوم بالبناء ، فوضع حجرا فى القاعة يسهل نزعه من مكانه بواسطة رجلين ، أو حتى رجل واحد . وهكذا تم بناء الحجرة وأودعت فيها أموال الملك . . . مرت الأيام وتعاقبت الأعوام ، ومرض البناء . فلما أحسن بقرب منيته ، نادى ولديه وأخبرهما بأمر الحجر السرى فى خزانة الملك ، قائلا لهما انه إنما فعل هذا من أجلهما كى يستطيعا الحياة دائما فى بدنخ . وشرح لهما طريقة نزع الحجر ، مبينا لهم جميع الأبعاد والمسافات . وأمرهما بكتمان السر كى يهيمنا على الخزانة الملكية طيلة

(١) من الجلى أن هذا الملك هو رمسيس وليس ذلك الاسم اسم ملك آخر من أسرة سابقة لاسرة رمسيس .

حياتها . فلما مات الاب ، لم يتوان ابناءه في البدء بالعمل فذهبوا الى القصر ليلا ، وعثروا على الحجر في حائط البناء . فعالجاه حتى نزعاه بسهولة من الحائط ، وبعدها سلبا مبلغا عظيما من الخزانة .

عندما ذهب الملك ، بعد ذلك ، الى مخزن كنوزه ، دهش اذ رأى النقود هابطة في أحد الاوعية التي ملأها بالفضة . لم يستطع أن يتهم شخصا بعينه . فقد كانت الاختام سليمة ، وأقفال الحجرة موضوعة في مكانها لم تتمتد اليها يد أحد بالعبث . وكلما ذهب الملك الى خزانته بعد ذلك وجد تكرار العبث بأمواله وسرقة كمية كبيرة من النقود في كل مرة . والحقيقة أن اللصين لم يكفا عن السرقة ، بل كانوا ينهيان الاموال باستمرار وأخيرا ، استقر رأي الملك على أن ينصب شركا بقرب الاوعية المحفوظة فيها الاموال فتم هذا . وعندما ذهب اللصان الى القاعة كعادتهم ، ودخل أحدهما من الفتحة السرية اتجه نحو أحد الاوعية ، فإذا به يجد نفسه فيجأة قد وقع في الفخ . فأدرك أنه هالك لا محالة . وعندئذ نادى أخاه من فوره وأخبره بما حدث ، وطلب منه أن يقطع رأسه بسرع ما في مكتنته ، ويحمل الرأس معه ، حتى إذا ما اكتشف جسمه لم تعرف شخصيته والا ، هلك كلاهما . فعرف اللص الآخر حكمة هذه المشورة ، فاضطر إلى تنفيذها - ثم وضع الحجر ثانية في مكانه ، ورجع الى بيته يحمل معه رأس أخيه .

ما ان لمع الفجر في أفق السماء حتى أسرع الملك الى خزانته ، فإذا به يدهش لوجود جسم في الشرك بغير رأس ، بينما البناء سليم لم يمس . ولم ير أية فتحة لدخول اللص أو خروجه في أي موضع بالحجرة . . . وقف الملك حائرا مبهوتا ، وفي أثناء حيرته أمر بأن ترفع جثة الرجل الميت وتعلق خارج سور القصر ، وأقام عليها الحراس لراقبتها وأمرهم بالقبض على كل من يبصرونها يبكي أو يولول قريبا من مكان الجثة ، وأن يحضروه اليه . فلما سمعت الأم بعرض جثة ابنها حزنت أبلغ الحزن . وحز ذلك في قلبها ؟ فتحدثت الى ابنها الآخر وأمرته بأن يجد طريقة ما لاحضار جثة ابنها . وهددته بأنه اذا لم يحضر لها جثة أخيه فانها ستذهب بنفسها الى الملك وتخبره بجلية الأمر .

حاول الابن جهد طاقته أن يثنى امه عن غزمه ولكن دون جدوى . فما فتئت تلاحقه بطلبها حتى رضخ أخيرا الى رغبتها ، ودبر الطريقة الآتية لسرقة الجثة : ملأ بعض القرب بالخمر ، وحملها على ظهور الحمير ، وساقها أمامه حتى بلغ مكان الجنود المكلفين بحراسة الجثة . وبينما هو يتظاهر

بأنه يجذب إليه قربتين أو تلاتا ، حل رباط بعض القرب ، وتركها تتارجح على جوانب الحمير . فأخذت الخمر تسيل من القرب . وعندئذ شرع يضرب رأسه ويصرخ بأعلى صوته مدعيا أنه لا يعرف بأى الحمير يبدأ . فلما أبصر الحراس الخمر تنسكب على الأرض ، فرحا وانهزوا الفرصة ، وأسرعوا جميعا إلى الطريق ومع كل واحد منهم إناء أو نحوه ليجمع فيه شيئا من الخمر وهي تسيل . فتظاهر السائق بالغضب وأخذ يكيل الشتائم للحراس الذين حاولوا تهدئته بجميع الطرق ، حتى تظاهر أخيرا بأنه قد لان واستعاد هدوءه ، وساق الحمير بعيدا عن الطريق ، وأنشأ يرتب حمولتها . في تلك اللحظة ، بينما هو يتحدث إلى الحراس ، بدأ أحدهم يمزح معه حتى جعله يضحك . وعندئذ قدم لهم قربة من الخمر على سبيل الهدية . فاستقر عزمهم وقتذاك على أن يجلسوا ويحتسوا الخمر ، ورجوا ذلك الحمار في أن يجلس ويشرب الخمر معهم . وآخر رضي الرجل وبقى معهم . وبينما هم يحتسون الخمر توتفت عرى الصدقة بينهم ، فقدم لهم قربة أخرى . وعلى ذلك أخذوا يعبون الخمر عبا حتى دارت رءوسهم وغابتهم النعاس ، فناموا في مواضعهم . فانتظر اللص حتى جن الليل وأخذ جثة أخيه ثم ركب في أن يسخر منهم . فحلق النصف الأيمن من لحية كل حارس ، وتركهم على تلك الحال ، ووضع جثة أخيه على الحمير . وانصرف عائدا إلى أمه في بيته . وهكذا أنجز ما طلبته والدته .

لما بلغ مسامع الملك أن جثة اللص قد سرقت ، استنشاط غضبا واستبد به الغيظ وادرأه أن يقبض على الرجل الذي دبر تلك الخدعة ، مهما كلفه الأمر عمدا إلى حيلة (كما قال الكهنة) لا أكاد أصدقها . فيقال انه أرسل ابنته إلى مواخير المعاشرة العامة وأمرها بأن تسمع بالدخول لكل من يأتي إليها على شرط أن يخبرها بأعظم أعماله دهاء ، وأكثرها شرورا طيلة حياته كلها . فان أخبرها أحد بقصة اللص ، وجب عليها أن تمسك به ولا تسمح له بالانصراف فقط . فعلت الابنة كما طلب منها أبوها فعلم اللص بالأمر وعرف ما يرمي إليه الملك فأراد أن يبزه في المكر والدهاء . ولذلك دبر الخطة الآتية : حصل على جنة رجل ميت حديثا ، وقطع احدى ذراعيه من الكتف وخاتها في طيات ملابسه ، ثم ذهب إلى ابنة الملك . فسألته ، كما كانت تسأله كل فرد غيره . فأخبرها بأن أعظم أعماله شرورا هو قطع رأس أخيه عندما وقع في الشرك الذي نصبه له الملك في خزانة أمواله . أما أعظمها دهاء فهو أنه أسكر الحراس وسرق الجثة منهم . فما ان صرخ بهذا حتى امتدت إليه يد الفتاة ليتمسّك

به بيد أن ذلك اللص انتهز فرصة الظلام وقدم لها يد الجثة فظننتها يده
فتسببت بها بينما هرب اللص من الباب .

عندما علم الملك بالنجاح الجديد الذى أحرزه ذلك اللص ، دهش
لدهاء وجرأة هذا الرجل . فبعث رسلا إلى جميع مدن مملكته ليعلنوا
العفو الشامل عن اللص والوعد بمنحه مكافأة سخية اذا حضر من تلقاء
نفسه وأعلن عن شخصيته . فتمسك اللص بوعد الملك وذهب اليه فى كل
جرأة . فأعجب به رامبسينيتوس أىما اعجاب ، ونظر اليه نظرته الى أحكم
شخصية فى مملكته كلها ، وزوجه ابنته ، قائلا: «يتفوق المصريون على جميع
العالم فى حكمتهم ، أما هذا الرجل فقد تفوق على سائر غيره من
المصريين » .

هذه هي القصص التى يرويها المصريون لتكون تاريخا لهم . أما من
جهتى أنا شخصيا فأزمع أن أكتب بخلاص ، فى جميع مؤلفى ، ترات
مختلف الامم . ويصر المصريون على أن كيريس وباخوص موجودان فى
المملكة السفل . كذلك كان المصريون أول من اعتقادوا بأن الروح خالدة .
و عندما يموت جسد الانسان ، تتقمص روحه صورة حيوان يولدى نفس لحظة
الموت . وبهذا تمر الروح من حيوان الى آخر حتى تدور على جميع صور
المخلوقات التى تسكن الأرض والماء والهواء ، ثم تعود ثانية الى هيكل
بشرى حيث تولد من جديد . وتستغرق فترة الهجرة والتنقل هذه
(كما يقولون) مدة ثلاثة آلاف سنة . وهنالك بعض الكتاب الأغارقة ،
بعضهم قدامى وبعضهم محدثون ، اقتبسوا هذا المذهب من المصريين
ونسبوه لأنفسهم . وبوسعى أن أذكر اسماءهم ، غير اننى اترفع عن
هذا .

الفصل السابع عشر

قال الكهنة ، ظلت مصر تحكم حكما صالحا حتى عصر رامسيسيتوس ،
وازدهرت في أيامه ازدهارا عظيما . ولكن ارتفى العرش بعده خوفو الذى
انعمت في كل صنوف الشرور . فأغلق المعابد ، وحرم على المصريين تقديم
القربابين للآلهة ، وأجبرهم بدلا من هذا على أن يعملوا جميعا في خدمته .
فكان على بعضهم أن ينقلوا كثلا من الصخر إلى ساطع النيل من المحاجر
الكائنة في سلسلة التلال الغربية . وأخرون يتسللون تلك الكتل بعد
نقلها في السفن عبر النهر ، وينقلونها إلى سلسلة التلال الليبية . وكان
يشتغل في هذا العمل باستمرار مائة ألف رجل يستبدل بهم غيرهم كل
ثلاثة أشهر . وقد استمر تسيخير الشعب عشر سنوات في عمل طريق
مرتفع (١) لنقل الأحجار . وفي رأيي أن هذا العمل لا يقل مشقة عن بناء
الهرم نفسه . طول هذا الطريق خمسة فورلننجات وعرضه عشرة فانومات
(الفورلننج ، كما علمنا = ١ / ٥ ميل والفانوم = ٦ أقدام) ، ويبلغ أقصى
ارتفاع له ثمانية فانومات وقد بني من الصخر المنحوت المصقول ، وملء
سطحه بتماثيل الحيوانات ، واستغرق بناؤه كما سبق أن أوضحت ،
عشر سنوات - أو بالحرى لعمل المصطبة التي يقوم عليها الهرم
والجرارات الواقعة تحت الأرض ، التي أزمع خوفو أن تكون خزائن لاستعماله
الخاص . وقد بنيت هذه الأخيرة على قطعة من الأرض تشبه الجزيرة يحيط
بها الماء المحلو من النيل بواسطة قناه (٢) وقد استغرق بناء الهرم

(١) لاتزال توحد تقابا طرقن مرفقين - الطريق الشمالي وهو أكترهما ، يتوجه

نحو اليم اليم الاخير . أما الطريق الاخر فتحت نحو اليم الثالث .

(٢) لا يوجد أثر بدل على أنه كانت هناك قناة ، ولا أى احتمال لوجودها وقتذاك .

نفسه عشرين سنة . وقاعدته مربعة الشكل طول كل من أضلاعها ثمانمائة قدم . أما ارتفاعه فيساوى طول قاعدته (١) وهو مبني كله من الحجر المنحوت المسوى . وطوبقت الاحجار على بعضها بمنتهى الدقة . ولا يقل طول أي حجر استخدم في بناء ذلك الهرم عن ثلاثةين قدما (٢) .

بني الهرم أولاً مدرجاً (٣) أو في صورة الابراج كما يسمونها ، أو كما يسميها آخرون « في صورة المعابد » . فبعد أن وضعوا أحجار القاعدة ، رفعوا الاحجار الباقية إلى أماكنها بواسطة آلات صنعت من الواح خشبية قصيرة . فرفعتها الآلة الأولى من الأرض إلى قمة المصطبة الأولى . ثم وضعت آلة أخرى على هذه المصطبة لتلتفى الأحجار عند وصولها تم ترفعها بدورها إلى المصطبة الثانية حيث تنقلها آلة ثالثة إلى المصطبة التي فوقها . ولست أعرف بالضبط ما إذا كان لديهم عدد من الآلات بعد المصاطب التي يتكون منها الهرم ، أو كانت لديهم آلة واحدة يمكن نقلها بسهولة من مصطبة إلى أخرى عند رفع الاحجار . ولذا فاني أذكر هنا كلاماً من الروايتين . وقد أكملوا الجزء العلوي من الهرم أولاً ، ثم الجزء الأوسط ، ثم في النهاية أكملوا الجزء الأسفل القريب من الأرض . وقد نقشت على الهرم كتابة بالحروف المصرية تسجل كميات الفجول والبصل والثوم التي أكلها العمال الذين شيدوه . وإنني لا تذكر جيداً أن المترجم الذي قرأ الكتابة لي ، قال إن الأموال التي أنفقت في بناء الهرم بلغت ١٦٠٠ نالنت

(١) كانت أبعاد الهرم الأكبر ٧٥٦ قدماً لكل ضلع من أضلاع القاعدة . ولكنها نقصت بعد ذلك إلى ٧٣٢ قدماً . وكان ارتفاعه الأصلي ٤٨٠ قدماً وتسع بوصات فصارت الآن ٤٦٠ قدماً وتسع بوصات . وزوايا ميل الأضلاع على القاعدة ٥٠-٥١ درجة ، وزاوية رأسه ٢٠ - ٥٧٦ . وكان يشغل مساحة قدرها ٥٧١٥٣٦ قدماً مربعاً فصار الآن يشغل ٥٣٥٨٢٤ قدماً مربعاً . أما المقاسات التي ذكرها هيرودوت ، أي ٨٠٠ قدم لكل ضلع فليست بعيدة عن الحقيقة كرقم مقارب إلى أقرب مائة . أما الارتفاع الذي ذكر أنه مثل طول الضلع فبعيد تماماً عن الرقم الصحيح .

(٢) تختلف أحجام الاحجار ويشير هيرودوت بهذا إلى أحجار الطبقة الخارجية التي اندرت الآن .

(٣) أوجه الدرجات أو المصاطب المتعاكبة عمودية تقريباً . أو ذات زاوية تقرب من ٧٥° والمسافة الثالثة التي تكونها كل منها تبرز إلى مسافة كبيرة أسفل المصطبة التي فوقها مباشرة . وقد مثلت هذه المسافة بعد تمام البناء لتكميل الشكل العام للهرم . أنها لمسألة غريبة أن كان المصريون قد أحضروا معهم نكبة الهرم أو أكواه القبور عندما هاجروا إلى وادي النيل ، أو إذا كانت قد نشأت بنفس الفكرة التي تشد بها أبراج آشور من عدة مصاطب ، أو بنفس فكرة بناء معابد الهند .

من الفضة فإذا كانت هذه الأرقام صحيحة ، فما أعظم المبالغ التي لا بد أن تكون قد أنفقت في تغذية وكسوة العمال ، مع اعتبار المدة الطويلة التي استغرقها هذا العمل والتي سبق أن ذكرتها ، والوقت الإضافي – وليس هو بالمرة البسيطة على ما أعتقد – الذي أنفق في قطع الأحجار من المحاجر ، وفي نقلها ، وفي بناء الحجرات التي شيدت تحت الأرض .

بلغت شرور خوفو ميلغا عظيما لدرجة أنه عندما أنفق كل ما في خزائنه من أموال واحتاج إلى المزيد ، أرسل ابنته إلى مواخير البغاء العامة لكي تحصل له على مبلغ معين – أما مقدار ذلك المبلغ فلا أعرفه إذ لم يخبرني به أحد . فجاءت له ابنته بهذا المبلغ ، ولكنها صممت في الوقت نفسه على أن تترك أثرا يخلد ذكرها . ففرضت على كل رجل أن يقدم لها حجرا هدية ، حتى تتم العمل الذي أزمعت القيام به ، وبنت بهذه الأحجار هرما هو الموجود بين الهرمين الآخرين أمام الهرم الأكبر ، يبلغ طول كل من ضلاعه مائة وخمسين قدما .

يقول المصريون ان خوفو حكم مدة خمسين سنة ثم خلفه على العرش
أخوه خفرع .

سار خفرع على نفس خلق سلفه ، وبنى هرما مثله ولو أنه لم يصل إلى ضخامة هرم أخيه . وإنني لعلى يقين من هذا لأننى قسمت أبعادهما بنفسى (١) وليس لهذا الهرم الثاني حجرات تحت الأرض ولا تتصل به أية قناطر لتجلب له المياه من النيل كما هو الحال في الهرم الأكبر إذ يجري الماء إلى هذا الأخير في مجاري يحيط بجزيرة حيث يرقد جسد خوفو ، كما يقولون . وقد بني خفرع هرمه بجانب هرم خوفو وبينهما الأبعاد ، مع استثناء أنه خفض ارتفاعه أربعين قدما . واستخدم في بناء قاعدته أحجار إثيوبيا المتعددة الألوان . ويقع هذان الهرمان على تل واحد في

(١) أبعاد الهرم الثاني هي : طول القاعدة الحالية ٦٩٠ قدما ، وطول القاعدة السابقة (تبعاً للكولونيل هوارد فيز Howard vyse) ٧٠٧ قدما – وتسع بوصات ، وارتفاعه الممودي الحالى (بحساب الرواية ٢٠ – ٥٢) هو ٤٦٠ قدما وتسع بوصات وارتفاعه السابق ٤٥٤ قدما وثلاث بوصات . وينظر هيرودوت أن ارتفاعه يقل أربعين قدما عن ارتفاع الهرم الأكبر ، غير أن الفرق الحقيقي هو ٢٤ قدما وست بوصات . ومن الغريب إلا يلاحظ هيرودوت أبا الهول الذى صنع على الأقل في عهد الأسرة الثامنة عشرة إذ يحمل اسم تحتمس الرابع .

مستوى لا يقل ارتفاعه عن مائة قدم . وظل خفرع في الحكم مدة ست وخمسين سنة .

هكذا قاسى المصريون العذاب مدة مائة وست سنوات أغلقت خلالها المعابد، ولم تفتح أطلاقا . ولهذا يكره المصريون ذكرى هذين الملكين ولا يحييون حتى ذكر اسميهما وهذا هو السبب في أنهم يسمون الاهرام باسم غيليتون Philiton أحد الرعاة الذي كان يرعى قطعاته حول ذلك المكان .

الفصل الثامن عشر

بعض الأساطير المصرية

يقولون ، لما مات خفرع ارتقى العرش بعده موكيرينيوس بن خوفو ، وكان هذا الملك يمتعض من سلوك أبيه فأعاد فتح المابد وسمح للشيب الذى وصل إلى أقصى درجات البوس والفاقة بأن يعود إلى أعماله ويستأنف تقديم الذبائح . أما اقامته العدل في القضاء فبد فيه كل من سبقوه من الملوك . لذلك يشنى عليه المصريون بأكثرب ما يشنون على أي ملك آخر مقررين أنه لا يحكم بالعدل فحسب ، بل وإذا تظلم أي فرد من الحكم في قضيته ، عوضه الملك من جبيه الخاص . وهكذا يرضيه ولا يجعل أحدا يتذمر من حكمه . وبينما كان موكيرينيوس يوطد أركان العدل في مملكته بالطيبة والرحمة ، نالت منه المصائب كل منا . فأولا ، ماتت ابنته التي كانت ذريته الوحيدة . واد حزن على موتها حزنا بالغا أراد أن يدفنها بطريقه فذة . فأمر بصنع بقرة من الخشب ؛ وبعد تفريغ جوفها ، كسرها كلها بالذهب ، ثم وضع جثة ابنته في ذلك القبر الطريف .

لم توضع تلك البقرة تحت أطباق النرى ، وإنما بقيت فوق سطح الأرض ليراها كل فرد في جميع العصور حتى عصرى . كانت تحتل حجرة فاخرة الآثار في القصر الملكي بمدينة سايس Sois وكانت تحرق أمامها كل يوم جميع أنواع العطور ، ويضيء في حجرتها مصباح ليلا ونهارا . ووضعت في حجرة مجاورة عدة تماثيل قرر كهنة سايس أنها تمثل محظيات موكيرينيوس . إنها حوالي عشرين تمثلاً ضخماً من الخشب عارية الأجسام . ولست أعرف على وجه التحديد الأشخاص الذين تمثلهم هذه التماثيل – وإنما أكرر هنا ما أخبروني به .

هناك رواية أخرى عن هذه التماثيل الضخمة والبقرة الخشبية :

« كان موكيرينيوس متيمما بحب ابنته ؟ فاختصبها بالقوة - فجز هذا في نفس الفتاة فشقت نفسها فدفنتها موكيرينيوس في تلك البقرة . ولما علمت أنها بجلية الأمر قطعت أيدي جميع خادمات مخدعها لأنهن انحزن إلى جانب الملك ، وغدرن بالفتاة . ولهذا لم تكن لتماثيل أولئك الخادمات أيد » . أما أنا شخصيا فاعتقد أن كل هذه الروايات محض خرافات ولا سيما ما قيل عن أيدي التماثيل . وكل ما أعتقد بصحته هو أن التماثيل فقدت أيديها بمرور الزمن الطويل . وقعت تلك الإيدي من التماثيل ولا تزال ، حتى اليوم ، ملقاة تحت أقدامها .

أما البقرة فيحجب الجزء الأكبر من جسمها غطاء أحمر ، ولا يظهر منها غير رأسها وعنقها ، وهما مكسوان بطبيعة كثيفة من الذهب . وبين قرنيها صورة من الذهب أيضا تمثل قرص الشمس . وليس تمثال البقرة هذا واقعا على قوائم بل يمثلها راقدة وقد ثنت أرجلها تحت جسمها . إنها في نفس حجم بقرة حقيقية ضخمة . وفي كل سنة تنقل هذه البقرة من موضعها وتعرض لضوء النهار - يحدث هذا في الموسم الذي يلطم فيه المصريون أنفسهم تكريما لأحد آلهتهم ؟ الذي أكف عن ذكر اسمه فيما يختص بهذا الأمر (١) . فيقال إن الفتاة طلبت من والدها في آخر لحظات حياتها أن يسمع لها بأن ترى الشمس مرة في كل عام .

بعد موت هذه الابنة ، أصيب موكيرينيوس بكآفة أخرى سأرويها هنا الآن : بلغت هذا الملك نبوءة من مدينة بوتو ، تقول : « لن تعيش على الأرض إلا ست سنوات فحسب ، وستموت في السنة السابعة » . فغضيوب موكيرينيوس وبعث إلى الوحي بر رسالة مهينة يزج فيها الله على عدم انصافه ؟ فقال فيها : « على الرغم من أن أبي وعمي قد أغلقا المعابد ولم يكتروا للآلهة ، وأهلوا آلافا من الشعب ، فقد تمترا بحياة طويلة . أما أنا ، الرجل البار التقى فساموت سريعا ! » فرد عليه الوحي بقوله : « لهذا السبب ستنتهي حياتك بسرعة - لم تعمل ما كان يليق بك أن تتحمل . كان مقدرا لمصر أن تعانى العذاب مائة وخمسين سنة - أدرك الملوك اللذان سيقاك على العرش هذا الأمر . أما أنت فلم تدركه ، وعندما تلقى موكيرينيوس هذه الرسالة ايقن أن مصيره قد تحدد . فأمر بإعداد المصايب التي كان يضيئها في مساء كل يوم ليولم ويستمتع بالملذات ليلا ونهارا ، يتنقل بين أراضي الريف والغابات ، ويزور كل مكان يسمع عن شهرته

(١) انه أوزيريس .

السياحية . كان كل قصده أن يبرهن على كذب الوحي بأن يحيل الليل إلى نهار ، وبذا يعيش الثنى عشر عاما في فترة سنتين .

كذلك ترك موكيرينيوس هرما في حجم هرم والده ، ذا قاعدة مربعة يقل طولها عشرين قدما عن الثلاثمائة قدم . وقد بني الهرم إلى نصف ارتفاعه من أحجار أثيوبية . وينسبه بعض الاغارقة إلى المؤمن رودوبيس بيد أن هذا خطأ . يبدو لي أن أولئك الناس لم يعرفوا من هي رودوبيس ، والا لما نسبوا إليها عملا يتطلب نفقات باهظة . كانت رودوبيس تعيش في عصر أماسيس وليس في عصر موكيرينيوس . وعلى هذا تكون من عصر لاحق لعصر بناء الأهرام بسنوات عدة . إنها تراقيبة المولد ، كانت عبدة يملكتها آيادمون ابن هيفايسنوبوليس السامي . وكان إيسوب ، كاتب الأساطير الخرافية ، عبداً زميلاً لها . وعساك عدة أدلة على أن إيسوب كان يملكه آيادمون فعندما أعلن أهل دلفي ، طاعة لأمن الوحي ، أن يتقدم من له الحق في المطالبة بالفدية عن مقتل إيسوب ، تقدم آيادمون حفيده آيادمون الأول ، وتسلم الفدية إذن فلا بد أن كان إيسوب عبداً يملكه آيادمون الجد .

حضرت رودوبيس إلى مصر لتقوم ب مهمتها تحت امرة كسانثوس السامي . غير أنها نالت حريتها نظير مبلغ ضخم من المال دفعه خاراكتوس الميتيليني بن سكاماندرونوموس وشقيق الشاعرة صافو (١) . وبعد أن استعادت حريتها بهذه الطريقة بقيت في مصر . ولما كانت فائقة الجمال ، جمعت ثروة طائلة بالنسبة لسيدة في حالتها . ومع ذلك ، فلم تكن لتمكنها من إقامة عمل ضخم مثل ذلك الهرم . وكل من أراد أن يتحقق من هذا ؛ فليذهب ويشاهد ١١ ثروتها . عندئذ يدرك أنه يجب على المرأة ألا يتصور ثروتها بتلك الضخامة الغريبة . فلما كانت هذه السيدة ترغب في أن تترك أثراً يخلد ذكرها في بلاد الأغرق ، أصرت على أن تصنع شيئاً لا يوجد مثيله في أي معبد ، وتقدمه إلى معبد دلفي . وعلى هذا أخذت عشر ثروتها وافتتحت به كمية من الآسياخ الحديدية كالسفايفيد المستعملة في شواء الثيران كاملة ، وقدمتها للوحى . ولا تزال هذه الآسياخ هناك مكونة خلف المذبح الذي أقامه المائيون Chians قبلة المعبد . ويبدو أن ناوكراتيس هي المدينة التي تكون بها أمثال هذه السيدة في غاية الفخامة والأغراء . فأولاً كانت بها رودوبيس هذه التي تكلمنا عنها . وقد طبقت

(١) كان خاراكتوس شقيق صانع يتجهز في خمور لسبوس التي كان يحملها إلى ناوكراتيس مركز جميع التجارة الواردة بلاد الأغرق .

شهرتها جميع الافق حتى ليجري ذكر اسمها على السنة جميع الاغارقة .
ثم ارخيديكى الشهير فى جميع ارجاء بلاد الاغريق ، ولو أنهم لا يتحدثون عنها كثيرا مثل سابقتها . وبعد أن دفع خاراكسوس فدية رودوبيس ، عاد الى ميتيلينى . وكثيرا ما الهبته صافوا بشعرها . أظن أنها قلنا ما فيه الكفاية عن هذه الظاهرة .

قيل لي ان الملك التالي لهذا العاهل كان كاهنا من كهنة فولكان يدعى سيشوس فلما تولى الحكم أهمل طبقة المحاربين المصريين واحتقرهم كما لو كان في غنى عن خدماتهم . فنزع منهم الاراضي التي امتلكوها ابان حكم الملوك السابقين وقدرها اثنا عشر فدانا من أجود الارض ل scl محارب .
بعد ذلك ، عندما سار الملك ساناخارب ، ملك العرب (١) والاشوريين ، بجيشه الضخم الى مصر رفض المحاربون جميعا أن يهبوا لمساعدته فأحس ذلك الملك بخيبة الامل واذ نجعه الحزن العميق انطلق الى المعبد الداخلي وأخذ يندب أمام تمثال الرب ، تلك الكارثة التي حاقت به . وبينما هو يبكي غلبه النعاس فنام . فرأى في حلم أن الرب أتى اليه ووقف الى جانبه وأمره بأن يتخل عن غضبه ويبيه ، وأن يذهب بكل جرأة للاقاء الجيش العربي الذي لن يلحق به أى أذى لانه سيرسل هو بنفسه من يجب أن يساعدوه . فيما انصحا سيشوس من نومه حتى تشجع بهذا الحلم ، فجمع بعض المصريين الراغبين في أن يتبعوه ، ولم يكن بينهم أى محارب قط ، بل كانوا جميعا من التجار وأرباب الحرف ورجال الاسواق . فسار بهؤلاء الجموع الى بيلوسيوم المشرفة على مدخل مصر ، حيث أقام معسكرا . وبينما كان كلاء من العسكريين أمام الآخر ، جاءت في بهيم الليل أسراب من فيران الحقول وأخذت تفرض جميع جعبات الاعداء وأوتار قسيهم ، كما أكلت السيور الجلدية التي يتناول جنود العدق بها تروسيهم . فلما أصبح الصباح ورأى

(١) من الغريب أن نجد ساناخارب يسمى هنا « ملك العرب والاشوريين »
ويبدو أن ترتيب الألفاظ هنا يجعله ملكا عربيا أكثر منه اشوريا . وبنفس الروح يطلق على جيشه بعد ذلك اسم « الجيش العربي » . ومن المستحيل قطعا أن ندافع عن وجهة نظر هيرودوت هذه اذا تذكرنا كيف اختلط العرب بالاجناس الأخرى في أرض الجزيرة (ميزوبوتانيا) السفلية ، ومقدار النفوذ البالغ الذي يسيطر به الملك الاشوري العظيم على قبائل الصحراء ، ولا سيما من يقيم منهم على حدود ارض الجزيرة . ومن شأن الصلة في العادات والتقاليد بين هدين الجنسين الساميين العظيمين أن يسهل الاتحاد بينهما نسبيا . ولذا نجد ملوكا من العرب يسيطرون على اشور لزمن ما ، بينما يحدث العكس في زمن آخر فيسيطر ملك من اشور على عدد كبير من القبائل العربية .

الاعداء ما حل بهم ، أطلقوا العنان لأقدامهم هاربين . وهكذا هزمت تلك الجموع الغيرة لعدم وجود الاسلحة التي يدافعون بها عن أنفسهم . والى هذا اليوم ، يقوم أمام معبد فولكان تمثال للملك سيسيلوس ، يمسك فأرا في يده (١) وقد نقش على التمثال عبارة تقول : « أنظر الى وتعلم تمجيل الآلهة » .

تناولت فى الابواب السابقة : الكلام عن سلطة المتعريين وعن كهنتهم . ويقرر أولئك القوم أن الفترة ما بين أول ملوكيهم وهذا الملك الذى تحدث عنه أخيرا ، وهو كاهن فولكان ، تبلغ ثلاثة وأربعين جيلا . ويقولون ان هذا العدد نفسه يمثل عدد كل من ملوكيهم وعظماء كهنتهم خلال هذه الحقبة الزمنية .

يفال ان عصر أماسيس كان أزهر عصر رأس مصر (٢) – كان النهر يجري الى الارض فى حرية أكثر ، وأثرمت الارض محصولا وفيها انتفع به السكان أكثر مما سبق أن عرف قبل ذلك . وكان عدد المدن المأهولة بالسكان لا يقل عن عشرين ألفا وكان الملك أماسيس هذا هو الذى وضع قانونا يحتم على كل مصرى أن يمثل مرة فى كل عام أمام حاكم منطقته (٣) . ويقدم له تعريرا عن وسائل معيشته أما اذا لم يفعل هذا او لم يستطع اثبات أنه يعيش من السبيل المشروعة ، حكم عليه بالاعدام . (انه أشبه بقائهم من أين لك هذا ؟) وقد استعار صولون الأثيني هذا القانون من مصر وفرضه على مواطنيه الذين ظلوا يعملون به منذ عهده . انه ، والحق يقال ، عادة رائعة .

عقد أماسيس معايدة صداقة وتحالف مع الكورينيين صارت مصر بمقتضاهما صديقة وحليفة للولاية الاغريقية كورينى . كما أنه تزوج امرأة من تلك الولاية . وكان قصده من هذا ، اما أن يكون ذلك الزواج عنوان الشعور بالصداقه ، أو أن أماسيس كان يتوق الى الزواج بسيدة اغريقية .

(١) ان كان الفوم يجلون الفيران في ممفيس فربما نشأ هذا التمجيل بسبب آخر . كانت الفيران شعرا لمناصر التكاري ، وربما لمناصر الانتاج أيضا . وكان البعض يعتقد أنها ذات قدرة على التنبؤ (وهذه صفة لا تزال تنسب الى الفران حتى الان ، بدرجة ما في مناسبات معينة) . ويبدو أن أهل نرواس يجلون الفieran « لأنها قرست اوغار الاعداء » ، وكان المصريون ينقشون صورة أبوابو ، الذي كان يسمى سمينثيوس (من \times بمعنى فار) ، على نقوش الاسكندرية ممسكا فارا في يده .

(٢) لا ينطبق هذا الا على الشئون الداخلية للبلاد . ويدل ما كتبه هيرودوت بعد ذلك على أن هذا هو ما يقصده .

(٣) كان يحكم كل منطقة او مديرية حاكم خاص .

وعلى أية حال ، مهما كان قصده » فمن المؤكد أنه تزوج بامرأة من كوريني تدعى لاديكى *Ladice* وعندما حان موعد اتمام المعاهدة أصيب أماسيس بالضعف . واد أدهشه هذا — لانه لم يتعد ذلك من قبل — قال لزوجته « أيتها المرأة ، لقد سحرتني حقا — فتاكدى اذن أنك ستموتين ميتة أشد بوئسا من ميتة أى امرأة قبلك » . فاحتاجت لاديكى وأصرت على براءتها مما نسبه اليها . بيد أن هذا لم يجدها نفعا ، فلم تلن قناعة أماسيس . وعندئذ ندرت لاديكى في نفسها ، ان عاد أماسيس الى صوابه في خلال ذلك اليوم (اذ لم يسمح لها بوقت أكثر من يوم) ، أن تقدم تمثالا لمعبد فينوس في كوريني . وعند ذلك نالت بغيتها في الحال ، فزال عن الملك ضعفه . ومنذ هذا الحدث أحبها أماسيس حبا جما ، وأوفت لاديكى بنذرها أما التمثال الذى أمرت بصنعه وارسله الى كوريني فلا يزال هناك إلى عصرى . وعندما غزا قمبيز مصر ، لم يصب لاديكى أى أذى . اذ لما علم منها حقيقة جنسيتها بعثها الى وطنها ولم يمسها بسوء .

الفصل التاسع عشر

قمبیز

قام قمبیز بن کوروس بحملته على مصر أيام حکم ملکها أماسیس . فسار اليه بجيشه يضم الام العديدة الذين أخضعهم لحکمه ، ومن بينهم الأغارقة الایونيون والایوليون وكان السبب في هذا الغزو هو : حنق أحد المصريين على أماسیس لأنه أبعد عن زوجته وأولاده وأرسله إلى فارس . فأوزع هذا الرجل الغاضب إلى قمبیز بأن يتزوج ابنة أماسیس . فأرسل قمبیز رسولا إلى أماسیس يطلب يد ابنته . كان هذا الرجل ، الذي أوزع بهذا إلى قمبیز ، طبیبا بعث به أماسیس إلى الفرس . فعندما طلب کوروس من أماسیس أن يرسل إليه أربع طبیب عيون بين جميع الاطباء المصريين ، اختار أماسیس هذا الطبیب . ولذا حقد على أماسیس . وكان يقصد من حثه قمبیز على الزواج من ابنة الملك ، أنه اذا وافق أماسیس ، فقد تخدو هذه الموافقة سببا في نكده . وان رفض فقد يصبح الرفض مدعاه لعداوة قمبیز له . فلما جاءت رسالة قمبیز إلى أماسیس الذي كان يرهب قوة الفرس أبلغ رهبة ، حار في أمره ولم يدر ماذا يفعل . هل يزوج قمبیز ابنته ، أو يرفض طلبه ؟ لأن قمبیز لم يكن راغبا حقا في أن يتزوجها زوجته بل مجرد محظية له . وكان أماسیس على يقين من هذا . وعلى ذلك أخذ يقلب الامر في ذهنه ، حتى استقر أخيرا على رأي . كانت هناك فتاة تدعى نیتیتیس ابنة الملك السابق ابریس ، وكانت فارعة الطول على قدر وافر من الفتنة والجمال ، كما كانت آخر من بقى على قيد الحياة من تلك الاسرة الملكية . فأخذ أماسیس هذه الفتاة وحملها بالذهب والثياب الفاخرة ، وأرسلها إلى فارس كما لو كانت ابنته حقا . وبعد ذلك بوقتا ، تصادف بينما كان قمبیز يقبل هذه الغادة الحسناء ، أن ناداها باسم أبيها . مما كان منها الا أن قالت له : « أرى أنها الملك ، وأنك لا تعرف أن أماسیس قد خدعك . اذ أخذني ، واحتال على وأغراني بالأمال الخلابة ، وأرسلني

الليك على أننى ابنته . ولكننى ، فى الحقيقة ، ابنة أبريس الذى كان ملكه وسيده ، فتمرد عليه أماسيس هو وبقية المصريين ، وقتلته . « فلما سمع قمبيز بن كوروس منها هذا الكلام ، نارت ثائرته . فسار على رأس تواته لغزو مصر هذه هي الرواية الفارسية .

هناك مسألة باللغة الأهمية سهلت القيام بالحملة ، كان بجيشه أماسيس جندي مرتزق يدعى فانيس ، هاليكارناسى الأصل . وكان رجلا صائبا الرأى ومحاربا مجيدا . ولما حقد على سيده بسبب ما ، هجر خدمته وركب سفينته وهرب بها إلى قمبيز رغبة في التحدث إليه . واذ كان رجلا عالى المنزلة في جيش المرتزقة ، ويستطيع افشاء معلومات صحيحة عن مصر ، أصر أماسيس على استعادته . فأمر بمطاردته ، وعهد بهذه المهمة إلى أحد رؤساء الجيش الذين يثق بهم كل الثقة . فركب هذا سفينه حربية وجده في السير مطاردا ذلك الهاليكارناسى فأمسك به في لوكيا بيد أنه لم يستطع احضاره إلى مصر ، اذ كان فانيس أشد منه دماء وحيلة ، لانه أسكر حراسه ثم هرب إلى فارس . وحدث أن كان قمبيز يفكر وقتئذ في الهجوم على مصر ، ولكنه كان متربدا لعدم معرفته كيف يحتاز الصحراء فلما وصل إليه فانيس ، لم يخبره بأسرار أماسيس فحسب ، بل وأمده بمعلومات عن كيفية عبور الصحراء . وأشار عليه بأن يوفد سفيرا من قبله إلى ملك العرب ويطلب منه أن يسلك حياله مسلكا وديا وهو يعبر تلك المنطقة .

كان على قمبيز أن يعبر الطريق الممتد بين جينيكوس من جهة ، وبحيرة سيربونيس وجبل كاسيوس من جهة أخرى وهذه مسافة لا يستهان بها اذ تبلغ مسيرة ثلاثة أيام ، والطريق عبارة عن صحراء قاحلة لا ترى بها قطرة ماء .

سؤال الآن أمن لا يعرفه من يبحرون إلى مصر غير قليلين . ترسّل الخمر إلى مصر مرتين في كل عام من بلاد الأغريق ومن فينيقيا ، في قدور من الفخار . ومع ذلك فلا يمكنك أن ترى قدرا واحدة من هذه القدور في أي مكان بتلك المملكة كلها . ولا بد أن يسأل كل إنسان ، إلى أين تذهب كل هذه الجرار ؟ سأوضح لك هذا أيضا . يتحتم على حاكم كل منطقة أن ينقل تلك الجرار إلى ممفيس حيث يملؤها المفسييون بالماء ويحملونها إلى هذا الطريق السورى . وعلى هذا فإن جميع القدور التي تدخل مصر في كل عام وتتابع فيها ، تجد طريقها إلى سوريا ، حيث تذهب الجرار السابقة لها .

بدأ الفرس يحافظون على جعل الطريق الموصل إلى مصر صالحًا للمرور بتخزين الماء فيه ، بمجرد أن صاروا سادة هذه البلاد . غير أن الطريق إليها لم يكن به ماء في الوقت الذي نحن بصدده . فعمل قمبيز بمشورة ذلك الضيف الهاليكارناسى ، فبعث رسلاً إلى الملك العربى يرجوه ألا يتعرض له بسوء وهو يمر بتلك المنطقة . فأجاب الملك العربى رجاءه ، ووثق كل منهما بالآخر .

يفى العرب بمثل هذه العهود أكثر مما يفى بها أي شعب آخر . فعندما يحلف رجلان يمين الصداقة ، يقف كل منهما إلى جانب رجل ثالث . فيمسك هذا الآخر بحجر حاد الطرف ، ويحدث به جرحاً في يد كل منهما قرب أصبعه الوسطى ثم يأخذ قطعة من ثيابهما ويغمسها في دم كل منهما ، ويبتلل بالدم سبعة أحجار موضوعة على الأرض بينهما . وفي أثناء ذلك ينادى : ياخوس ويورانيا وبهذا يبدأ عهد الصداقة بينهما . وإذا قدم الرجل الذي قام بهذا العهد ، رجلاً أجنبياً (أو مواطنًا ، إن كان مواطنًا) إلى جميع أصدقائه ، اعتبروا أنفسهم ملزمين بالوفاء له .

ولهذا السبب ، عندما وعد الملك العربى رسلاً قمبيز ، قام من فوره بعمل ما يأتى : صنع عدداً من القرب من جلود بعض أبله ، وملأها بالماء . ثم حمل هذه القرب على ظهور الأبل الحية الباقية مما يملكه ، وقادها إلى الصحراء حيث بقى هناك ينتظر مجوعة جيش قمبيز . وهذا هو عين ما ينتظر أن يحدث تبعاً للروايتين اللتين روينا . أما الرواية الثانية فغير محتملة التصديق . ولكنها مادامت قيلت ، فمن الواجب أن أذكرها . يوجد نهر كبير في بلاد العرب يسمى نهر كوروس يصب في الخليج الفارسي . يقولون أن ملك العرب صنع أنابيب من جلود الثيران والحيوانات الأخرى ، ومدتها على طول الطريق من هذا النهر إلى الصحراء . وبذا جلب الماء إلى خزانات حفرها في الصحراء حيث تحفظ . وتبلغ المسافة من النهر إلى طريق الصحراء مسيرة أئنٍ عشر يوماً . ويقولون أن الماء كان يجري داخل ثلاث أنابيب إلى ثلاثة أماكن مختلفة .

عسكر بسامينيتوس بن أماسيس عند مصب نهر النيل المسمى بيلوسياك في انتظار قمبيز . أذ عندما ذهب قمبيز إلى مصر لم يجد أماسيس على قيد الحياة . لقد مات بعد أن حكم مصر مدة أربع وأربعين سنة ، لم يصب خلالها بأى مكره بل يليغ . وعندما مات حنطة جثته ودفنت في القبر الذي أمر هو ببنائه في المعبد . وبعد أن جلس ابنه بسامينيتوس على العرش ، حدثت ظاهرة غريبة في مصر : - سقط المطر في طيبة المصرية ، وهذا أمر لم يسبق أن حدث من قبل ، ولم يتكرر حدوثه مرة

ثانية حتى اليوم ، كما يشهد بذلك أهل طيبة أنفسهم . والعادة ألا يسقط المطر في مصر العليا إطلاقا ، ولكنه نزل بطيبة في تلك المناسبة قطرات صغيرة .

اجتاز الفرس الصحراء وأقاموا معسكراً بقرب المعسكر المصري ، واستعدوا للمعركة وكان الجنود المرتزقة الذين في خدمة بساميسيتوس ، وهم من الأغارقة والكارابينيين ناقمين على فانيسيس بسبب احضاره جيشاً أجنبياً لغزو مصر . وفكروا في طريقة ينتقمون بها منه . كان فانيسيس قد ترك أبناءه في مصر ، فأخذهم الجنود المرتزقون وذهبوا بهم إلى المعسكر وعرضوهم أمام عيني أبيهم . بعد ذلك أحضروا طستاً ووضعوه وسط الشقة الكائنة بين الجيшиين . وقادوا أولاد فانيسيس إلى الطست واحداً وراء آخر ، وذبحوهم فوقه . وبعد أن ذبحوا آخر ولذ صبوا ماء وحمراً في الطست ثم شرب كل جندي من دم أولئك البناء ، وذهبوا إلى المعركة . كان القتال الذي نلا ذلك عنيفاً ، ولم يتراجع المصريون ويفروا إلا بعد أن قتلت جموع كبيرة من كلا الفريقين .

رأيت ظاهرة في غاية الغرابة في الميدان الذي دارت فيه رحى المعركة ، لفت نظرى إليها الأهلون . توجد عظام القتلى بعشرة في الميدان في موضعين : عظام جنود الفرس في مكان ، وعظام المصريين في مكان آخر بعيد عن الأول . فإذا ضربت جمجمة فارسية ولو بحصاة ، أحدثت بها ثقباً ، لأن جماجمهم ضعيفة في حين أن جماجم المصريين قوية بحيث تستطيع أن تضربها بحجر فلا تكاد تنكسر . وقد ذكر الأهلون لى سبب هذا الاختلاف ، وهو سبب يبدو معقولاً جداً : قالوا إن المصريين يحلقون رءوسهم منذ طفولتهم ، وعلى هذا تتعرض جماجمهم لفعل الشمس فتصبح سميكة صلبة ولنفس السبب لا يوجد الصلع في مصر حيث عدد الصلع أقل من عددهم في أية دولة أخرى . وهذا هو السبب في أن جماجم المصريين قوية إلى تلك الدرجة . أما الفرس فجماجمهم ضعيفة لأنهم يتجنبونها عن ضوء الشمس منذ الصغر بلبس العمام حول رءوسهم . ولقد رأيت بعيني رأسى ما أذكره هنا . وشاهدت مثله أيضاً في بابريميس في حالة الفرس الذين قتلوا مع أخايمينيس بن داريوس ، على يد ايناروس الليبي .

ما ان أدار المصريون ، الذين قاتلوا في تلك المعركة ، ظهورهم للعدو حتى انطلقا هاربين في غير ما نظام الى ممفيس حيث احتموا وراء الأسوار وأغلقوا الأبواب خلفهم . عندئذ أوفد قمبيز رسولاً فارسياً على ظهر سفينه ميتيلينية ليصل إلى ممفيس عن طريق النيل ويطلب من المصريين التسلیم .

فلما أبصر المصريون السفينة تدخل المدينة ، انقضوا عليها من الحصن في جموع غفيرة وحطموها ومزقوا بحارتها اربا . وهكذا نقلوهم إلى الحصن . بعد ذلك حوصلت ممفييس واستسلمت في الوقت المناسب . وعندئذ خاف الليبيون الذين على حدود مصر ، أن يصيّبهم نفس المصير ، فسلموا أنفسهم إلى قمبيز بغير قتال ، وعقدوا معه اتفاقاً أن يدفعوا له الجزية . ومنذ ذلك الحين وهم يرسلون إليه الأموال . كذلك دب الخوف في نفوس الكوريين والباركيين كما حدث للبيبيين ، ففعلوا مثل ما فعل هؤلاء . فن قبل قمبيز أموال الليبيين بالشcker ، ولكنه لم يتسلم أموال الكوريين بنفس الروح . لم يرسل له هؤلاء أكثر من خمس مائة ميناي (١) من الفضة . فاعتقد قمبيز ، على ما أظن ، أنه مبلغ ضئيل جدا . فخطف النقود من أيديهم وبعثرها بيديه وسط الجنود .

بعد سقوط الحصن بعشرة أيام ، عزم قمبيز على أن يختبر روح بسامينيتوس ، الملك المصري الذي لم يستغرق حكمه سوى ستة شهور . فأمر بوضعه في أحدى الضواحي قمعه عدد كبير من المصريين الآخرين . حيث عرضه للاهانة . فأولا ، أرسى ابنة بسامينيتوس إلى خارج المدينة في نياب أمة تحمل جرة لتخضر الماء ، وقد رافقتها كثیرات من العذارى ببنات أعظم النبلاء ، مرتدیات مثل ملابسها . فلما وصلت الفتیات إلى موضع قبالة المکان الذي كان يجلس فيه آباءهن ، وکن يدرفن الدموع ويرسلن صيحات الحزن والأسى ، بكى جميع الآباء ماحلا بسامينيتوس ، اذ رأوا بناتهم على تلك الحال من البؤس . أما بسامينيتوس فنظر اليهن وطاطأ رأسه إلى الأرض . مرت حاملات الماء على تلك الحال . ثم جاء خلفهن ابن بسامينيتوس ومعه ألفان من الشبان المصريين من مثل عمره — وقد ربطت الحبال حول أنفاسهم جمیعاً ووضعت اللجم في أفواههم — ومر هؤلاء أيضا ليقتلوا نظير مقتل المیتيلینيين الذين هلكوا مع سقینتهم في ممفييس اذ هذا هو الحكم الذي أصدره القضاة الملکيون ، وهو : « يجب أن يموت عشرة من أنبىء المصريين في مقابل كل رجل میتيلینى » . أبصر الملك بسامينيتوس هذا الجمع يمر أمامه وعرف أن ابنه يساق إلى الموت . في حين كان المصريون الآخرون حوله يبكون ويضطربون ، لم تظهر عليه أية علامات تنم عن الحزن ، زيادة عما بدا منه عندما رأى ابنته . وبعد أن مر هؤلاء أيضا ؛ جاء أحد أصدقائه السابقين ، وكان رجلاً تقدمت به السنون ، وقد

(١) اذا كان المقصود هو الميناي الآتيكي ، كما هو المحتمل ، فإن قيمة الجزية كلها تبلغ ٢٠٠ جنيه من نقودنا .

نزعت عنه جميع أملاكه وصار متسولاً . وعندما جاء إلى حيث يجلس بسامينيتوس بن أماسيس وبقية المصريين الآخرين ، وكان ذلك الرجل يستجدي ويمد يده إلى الجنود يطلب صدقة . عندئذ لم يطق الملك المصري رؤية هذا المنظر حتى انه انفجر يبكي بصوت مرتفع ، ونادى صديقه باسمه ، ولطم نفسه على رأسه .

كان هناك أشخاص مهمتهم أن يراقبوا انفعالات بسامينيتوس ، ويلاحظوا ما سيفعله عند مرور كل جماعة وعلى هذا ، انطلق أولئك الأشخاص ليخبروا قمبيز بما فعله بسامينيتوس . فدهش قمبيز لما حدث . وبعث رسولاً إلى بسامينيتوس يسألة : « يا بسامينيتوس ! إن سيدك قمبيز يسألك ، لماذا لم تصرخ ولم تبك عندما رأيت ابنتك في الرق والذل . وعندما شاهدت ابنك يساق إلى الموت ؟ ولكنك أبديت تلك الانفعالات . عندما رأيت متسولاً ، بلغ الملك ، أنه غريب عن جنسك ؟ » فأجاب بسامينيتوس عن هذا السؤال بقوله : « يا ابن كورووس ! كانت مصائبى أكثر من أن تخففها الدموع ، أما مصيبة صديقى ذاك فكانت تستحق البكاء . فعندما يقلب الدهر لأمرىء ظهر المجن فيسقط من العظمة والرفاهية إلى التسول وهو على عتبة الشيخوخة ، يحق للمرء ، أن يبكي من أجله . » فلما عاد الرسول إلى قمبيز بهذا الرد قال قمبيز انه على حق ، وكذلك قال كرويسوس ويقرر المصريون أنه بكى – فقد جاء هو أيضاً إلى مصر مع قمبيز – وكذلك بكى جميع الفارسيين الحاضرين . وحتى قمبيز نفسه تألم غاية الالم وأصدر أمره باستثناء ابن بسامينيتوس من بين الذين سيقودوا إلى الاعدام ، كما أمر باحضار بسامينيتوس نفسه إلى حضرته من الضاحية التي اعتقل فيها .

بيد أنه سبق السيف العزل . فعندما وصل رسول قمبيز لإنقاذ ابن بسامينيتوس من القتل ، وصلوا متأخرین فوجدوا ذلك الشاب قد قتل أول الجميع وقطعت جثته أرباً . أما بسامينيتوس نفسه فجاءوا به إلى حضرة مليكهم ، الذي سمح له بأن يعيش معه ، ولم يعامله بخشونة قط بعد ذلك ، كما لم يحرمه التدخل في شئون البلاد . وكان بوسعه أن يسترد مصر ويحكمها بصفته واليا . فقد جرت عادة الفرس أن يعاملوا أبناء الملوك بالتبجيل ، لدرجة أنهم قد يهبون مملكة الأب لابنه في حالات التمرد الشبيهة بهذه الحالة .

الفصل العشرون

أَعْمَال قَمْبِيزٌ

ترك قمبيز ممفيس بعد ذلك واتجه الى سايس وهو ينوي في نفسه أمرا : ما ان دخل قصر أماسيس حتى أمر في الحال باخراج جثة الملك من قبره . فلما أخرجها الخدم أمرهم بأن يضرموا الجثة بالسياط وأن يوخرزواها بالمناكس وينزعوا الشعر منها ، وأن يلحقوا بها جميع صنوف الاهانات . ولما كانت الجثة محنطة ، فقد قاومت كل ذلك التعذيب ولم تتفكك مهما فعلوا بها . غير أن الخدم تعبدو ما قاموا به ، فأمرهم قمبيز بأن يأخذوا الجثة ويحرقوها . كان هذا أمراً يتنافى مع أصول الدين حقا . اذ يعتبر أهل فارس النار الها ، ولا يحرقون موتاهم بحال ما . والحقيقة أن هذا الامر لم يكن مشروعا ، سواء للفرس أو للمصريين - لنفس السبب الذي ذكرناه لأنه من الآثم لدى الفرس أن يقدموا جنة الميت لأى الله . أما المصريون فيعتبرون النار حيوانا حيا يأكل كل ما يصادفه ثم يتخم من كثرة الطعام فيموت بالملادة التي يتغدى بها . ومما يتنافى مع تقاليدهم ، تقديم جثة شخص لحيوان كي يلتهمها والحقيقة أن هذا هو السبب في أنهم يحتظون جثث موتاهم ، أى ليمنعوا الديدان من أن تأكلها في القبر . وبالرغم من هذا ، فقد أصدر قمبيز أمراً غير مشروع لكل من الفرس والمصريين . وتبعا للرواية المصرية ، لم يكن أماسيس هو الذي عولمت جثته بتلك المعاملة المهينة ، بل كان شخصا آخر من شعبهم في حوالي طول أماسيس . وأما الفرس فاعتقدوا أن جثة ذلك الرجل هي جثة الملك فأهانوها بالطريقة التي أوضجناها . ويقولون إن وحريا كان قد حذر أماسيس مما سيحدث له بعد وفاته . فلذلك يتحاشى المصير الذي قدر له ، دفن الجثة ، التي لاقت الضربات بعد ذلك ، في نفس قبره بجوار المدخل ، وأمر ابنه بأن يدفنه في أقصى موضع بالضريح نفسه . أما أنا

شخصيا ، فلا أعتقد أن يكون أمسيس قد أصدر هذه الأوامر اطلاقا .
ويبدو لي أن المصريين يؤكدون هذا انقاذا لكرامتهم .

بعد ذلك اجتمع قمبيز بمستشاريه وعزم على القيام بثلاث حملات . واحدة على القرطاجيين ، وأخرى على الامونيين والثالثة على الايثيوبيين الطوبيل الاعمار ، المقيمين في جزء ليبيا المتاخم للبحر الجنوبي . رأى قمبيز أن خير طريقة هي أن يهاجم قرطاجنة بالاسطول ، ويرسل قسما من جيشه البري لهاجمة الامونيين ، في حين يذهب جواسيسه الى اثيوبيا بحجة حمل الهدايا الى الملك ، ولكن حقيقة مهمتهم هي أن يلاحظوا كل ماتقع عليه عيونهم ، وخصوصا ليروا ما اذا كان صحيحا ما يقال من أن باثيوبيا مايسمونه «مائدة الشمس» .

أما وصف مائدة الشمس ، تبعا للروايات التي يحكونها ، فهو : أنها مرعى في ضواحي مدینتهم مملوء باللحوم المطهوة لجميع صنوف الحيوان . ويهم الحكام بملء ذلك المرعى باللحوم في كل ليلة . وأى فرد يرغب في أن يأكل منها يستطيع ذلك بالنهار . أما أهل تلك البلاد فيقولون انه الأرض نفسها هي التي تنتج الطعام . هذا هو الوصف الذي يقولونه عن تلك المائدة .

عندما قرر قمبيز ارسال الجواسيس ، بعث الى مدينة فيلة يستدعيه ترجمة معينين يعرفون اللغة الايثوبية . وبعدهما ذهب البعض لاستدعائهم ، أصدر أوامره الى الاسطول بالبحار لهاجمة قرطاجنة . بيد أن الفينيقين أبوا الذهاب وقلعوا انهم مرتبطون بمعاهدة صداقة مع قرطاجنة ، وقد عززوا تلك المعاهدة باليمان المغلظة وانه ليصير شرورا منهم أن يهاجموا أولادهم . واد رفض الفينيقين البحار ، أصبح باقي الاسطول غير ملائم لهذا العمل . وعلى هذا نجا القرطاجيون من أن يستعبدهم الفرس .
عندئذ رأى قمبيز أنه ليس من الحكم أن يجبر الفينيقين على القتال ، لأنهم خضعوا لحكم الفرس بمحض اختيارهم ، ولأن جميع العمليات البحرية تتوقف على أولئك الفينيقين كذلك انضم أهل قبرص الى الفرس من تلقاء أنفسهم ، واشتركوا معهم في الحملة على مصر .

بمجرد أن وصل الترجمة من فيلة أخبرهم قمبيز بما ينبغي عليهم أن يقولوه تم أوفدهم الى اثيوبيا بالهدايا الآتية : ثوب من الازجان ، وعقد وأساور من الذهب ، وعلبة للعطر مصنوعة من المرمر ، وجرة من خمر البليح . ويقال ان الايثيوبيين ذهب اليهم أولئك السفراء ، أطول الناس في العالم كله ، وأكثرهم أناقة كما أنهم يختلفون عن سائر البشر

هي عاداتهم ، وخصوصا في الطريقة التي يختارون بها ملوكهم . فهم يبحثون عن أطول رجل بين جميع المواطنين على شرط أن تتناسب قوته مع طوله ، ثم يعينونه ملكا يحكم عليهم .

لما وصل الترجمة إلى أولئك القوم ، سلموا الهدايا لملك البلاد ، وحدثوه قائلين : « يرغب قمبيز ملك فارس في أن يكون حنيفك وصديفك ولذا أوفدنا إليك لنخبرك بهذا ونحمل إليك الهدايا التي تراها ، والتي بعجب بها هو نفسه أيما اعجاب » . فقال لهم الملك الإثيوبي ، الذي كان يعرف أنهم إنما أتوا كجوسيس : « لم يرسلكم ملوككم الفارسي بهذه الهدايا رغبة في أن يكون صديقى - وليس صحححا ما تقولونه عن أنفسكم ، لأنكم جئتم لتعرفوا أسرار مملكتي - كما أن ملوككم ليس رجالا عادلا - فلو كان عادلا لما طمع في أرض ليست له ، ولما استعبد قوما لم يمسوه قط بأذى . أحملوا إليه هذا القوس ، وقولوا له : « ينصح ملك الإثيوبيين ملك الفرس بأنه - عندما يستطيع الفرس أن يجذبوا وتر قوس قوية كهذه بنفس هذه السهولة ، اذن فليأت بجيشه يفوقنا قوة ، ويهاجم الشعب الإثيوبي الطويل الأعمamar - وحتى الآن ، فليشكرا الآلهة الذين لم يضعوا في قلوب أبناء إثيوبيا أن يطمعوا في بلاد ليست ملكا لهم » .

ما ان قال هذا حتى نزع وتر القوس ووضعها في أيدي الرسل . ثم أمسك بالثوب الارجوانى وسائلهم عن ماهيته وكيفية صنعه . فأجابوه بالصدق وأخبروه عن الارجون وعن قن الصبغة ، عند ذلك أبدى ملاحظته قائلا : « ان القوم مخادعون وكذلك ثيابهم » . ثم ألتقط العقد والاساور وسائلهم عنها . فشرح له أولئك الترجمة فائتها كأدوات للزينة . عندئذ ضحك الملك اذ ظنها أغلالا ، وقال : « لدى الإثيوبيين أغلال أقوى من هذه » . ثم سألهما عن العطر . فلما أخبروه عن كيفية صنعه ، وكيف تدعك به الأعضاء ، قال ماسبيق أن قاله عن الثوب . وأخيرا جاء دور الخمر فلما عرف طريقة صنعها ، شرب منها رشفة فأعجبته كثيرا . حينئذ سألهما عما تعود الملك الفارسي أن يأكله ، وعن العمر الذي بلغه أعظم عمر في فارس . فأخبروه بأن الملك يأكل الخبز ، ووصفو له القمح - و قالوا ان أطول عمر عاشه رجل في فارس هو ثمانون سنة . فقال : « لن يدهشنى أن تموتو بهذه السرعة طالما تتغذون بالقاذورات والحقيقة أننى لست متأكدا من أنكم تبلغوا عمرا طويلا كثمانين سنة ، الا بواسطة انعاش ذلك الشراب (يقصد الخمر) الذى اعترف بأن الفرس يتغذون به على الإثيوبيين » .

عندما استعد الترجمة للعودة إلى مصر ، سأله ملك أثيوبيا عن المدة .
التي يعيشها الفرد في بلاده ، وعما يأكلون . فأخبرهم بأن معظم شعبه
يعيشون مائة وعشرين سنة ، وبعضهم يعمر إلى أكثر من هذا - ويأكلون
النجم المطبوخ ، ولا يشربون غير اللبن . وعندما أبدي الرسل دهشتهم
لعدد السنوات التي يعيشها الفرد هناك ، أخذهم إلى ينبوع ماء حيث
اغتسلوا ، فوجدوا أن أجسامهم كلها قد غدت لامعة وناعمة ، كما لو كانوا
قد استحموا في الزيت . وانبعثت من الينبوع رائحة زكية تشبه رائحة
البنفسج . وقد قال هؤلاء إن الماء كان خفيفا بحيث لا يمكن لأى شيء أن
يطفو على سطحه . لا الخشب ولا أية مادة أخف من الخشب ، وإنما
تفوض كلها إلى القاع . وإذا كانت رواية الينبوع هذه صحيحة ، فإن
استعمالهم لهذا الماء باستمرار هو السبب في أنهم يعيشون طويلا . وبعد
أن ترك الرسل الينبوع ، قادهم الملك إلى سجن فأبصروا المسجونين مقيدين
جميعا بأصفاد من الذهب . وأن النحاس أندر المعادن وأغلاها عند
الأثيوبيين . وبعد أن انتهوا من رؤية السجن ، شاهدوا ما يطلق عليه
« مائدة الشمس » .

وأخيرا سمع لهم الملك بمشاهدة نعش الأثيوبيين ، التي صنعت
(تبعا للتقارير) من البلور ، بالصورة الآتية : عندما يموت شخص ، يطلون
جشه بالجلبس ، أما بالطريقة المصرية أو بطريقة ما ، ويزينونها بالدهان حتى
تشبه الجسم الحي قدر المستطاع ، ثم يضعونها داخل عمود من البلور مجوف
الباطن بحيث يتسع للجثة . ويوجد البلور بكثرة بباطن الأرض في
بلادهم ، ومن نوع سهل الصنع . فيمكنتك أن تبصر الجثة من خلال
العمود الموضوعة فيه . ولا تنبعث من الجثة رائحة كريهة ، ولا يتغير
شكلها بحال ما ومع ذلك ، فلا يوجد جزء من الجثة لا يرى بوضوح ، كما
لو كانت الجثة عارية ويحتفظ أقرب أقرباء الميت بالعمود البلوري في
منزلهم لمدة سنة منذ يوم الوفاة . ويقدمون لذلك الشعش باكورة
الفاكهة باستمرار ، ويفصلونه بالتقديرات والذبائح . وبعد أن تنقضى
السنة ، ينقلون العمود ويضعونه بجوار المدينة .

عاد الجوايس إلى مصر بعد أن رأوا كل شيء ، ثم قدموا تقريرهم إلى
قمبizer الذي أرغمي وأزيد وهاج لدرجة الغضب بسبب ماسمه منهم . وعلى
ذلك بدأ في الحال سيره لهجامة الأثيوبيين دون أن يعد المؤونة الازمة لاطعام
جيشه ، ودون أن يفكر في أنه سيشن حربا في أقصى أجزاء الأرض .
وكرجل معتوه ، كما كان وقتذاك ، ماكاد بتسلمه تقرير الترجمة حتى
بدأ سيره آمرا للأغارقة الذين كانوا ضمن جيشه أن يبقوا حيث هم ، وصاحب

معه جنوده الفارسيين ليس غير . ولما وصل الى طيبة التي كان عليه أن يمر بها في طريقه ، فصل من جيشه الأصلى حوالي خمسين ألف جندي ، وأرسلهم لغزو بلاد الأمونيين . وأمرهم بأن يأسروا أفراد الشعب ويحرقوا وحي جوبيتر . وفي الوقت ذاته ، سار هو مع بقية جيشه لهاجمة الإثيوبيين . غير أنه قبل أن يقطع خمس المسافة نفذ جميع ما كان لدى القوة من مئونة وعنده شرع الرجال يأكلون حيوانات العمل التي كانت معهم . بيد أن هذه لم تلبث أن نفدت أيضاً . ولو رأى قمبيز ماحدث وقتذاك واعترف بخطئه ورجع بجيشه لفعل حكم مايمكن أن يعمل بعد الخطأ الذي وقع فيه منذ البداية . ولكنه لم يكتثر لشيء وواصل سيره بعد هذا . وطالما كان في الأرض مايقتات بهالجيش ، وكان يأكله الجنود ، إذ أكلوا الحشائش والاعشاب غير انهم عندما وصلوا الى المنطقة الرملية القاحلة ، اقترنت بعض الرجال أموراً بشعة : كان كل عشرة منهم يختارون من بينهم رجلاً بالقرعة ويدبحونه ليكون طعاماً للتسعة الباقيين . فلما علم قمبيز بهذه الافعال اقشعر بدنه لأكلهم لحوم البشر ، فتنازل عن هجومه على الإثيوبيا ورجع أدراجه من الطريق التي جاء منها . فوصل الى طيبة بعد أن هلكت من جنوده أعداد كبيرة . ثم سار من طيبة الى ممفيس حيث صرف الجنود الاغريق وسمح لهم بالعودة الى وطنهم . وهكذا انتهت الحملة على الإثيوبيا .

بدأ الرجال الذين ذهبوا لهاجمة الأمونيين رحلتهم من طيبة . وبالرغم من أنهم صحبوا معهم عدداً من الأدلة ، فلم يمكن افتقاء اثرهم الا الى مدينة الواحة^(١) التي يسكنها الساميون ، الذين يقال انهم من قبيلة أيسخريونيا Aeschrionia وتبعده هذه المدينة عن طيبة القديمة بمسيرة سبعة أيام خلال الرمال . وتنتمي في لغة بعضهم « جزيرة المباركين » . ولا يعرف شيء اطلاقاً عن ذلك الجيش بعد أن وصل الى هذه المدينة . كما لم يسمع عنه أى خبر سوى ما يرويه الأمونيون ومن يستقون معلوماتهم منهم – والمؤكد أنهم لم يصلوا الى بلاد الأمونيين ولم يعودوا الى مصر . وعلاوة على هذا ، يقول الأمونيون سار الفرس من مدينة الواحة عبر الرمال حتى وصلوا الى منتصف المسافة بين هذه المدينة وبين بلدتهم . وحدث بينما كانوا يتناولون طعام الغداء في وقت الظهرة ، ان هبت ريح عاصفة من

(١) مدينة الواحة هي مدينة الخارجة الحديثة ، المدينة الرئيسية في الواحة الكبرى . وبعدها من مدينة طيبة القديمة بمسيرة ٤٢ ساعة . من أحد الطرق « ومسيرة ٥٢ ساعة من طريق آخر « أى ستة أيام وسبعة أيام ونصف على التوالي ». قد يكون المصريون أطلقوا اسم الواحة على المدينة ، في عصر هيرودوت ، وكذلك على الطريق المحيط بها .

الجنوب . وكانت ريحًا عاتية قاتلة ترفع معها أعمدة من الرمال في صورة دوامات هائلة ، فغطت الجيش كله تماما ، ودفنت الرجال جميعا . هذا هو ما حدث لرجال ذلك الجيش تبعا لرواية الأمويين .

في الوقت الذي عاد فيه قمبيز إلى ممفيس تقريرا ، ظهر أبيس إلى المصريين . وأبيس هذا هو الإله الذي يسميه الأغريق إبافوس ، وما أن علم بظهوره المصريون حتى ارتدوا جميعا أفسر ثيابهم ، وأخذوا يقيمون الولائم والافراح مبتهمين مرحين . فعندما شاهدتهم قمبيز على تلك الحال ، أيقن انهم إنما يفعلون هذا ابتهاجا بفشل الذريع . فاستدعى إليه الموظفين المهيمنين على مدينة ممفيس وطلب منهم أن يجيبوا عن هذا السؤال : «لماذا لم يفعل المصريون شيئا من هذا القبيل عندما كان في ممفيس قبل ذلك ، بل انتظروا حتى عاد الآن وقد تكبد جيشه خسائر فادحة في الأرواح ؟» فأجاب الموظفون بقولهم : «لقد ظهر لهم الآن أحد آلهتهم ، وهو الله تعود أنه يظهر في مصر في فترات طويلة من الزمن ، ومن عادة المصريين ، عند ظهوره أز، يولوا ويقيمون الحفلات والافراح » . فلما سمع قمبيز قولهم هذا : اتهمهم بالكذب ، وحكم عليهم جميعا بالإعدام .

بعد أن تم إعدام هؤلاء الموظفين ، بعث قمبيز يستدعى الكهنة أن يمثلوا بين يديه . فلما جاءوا سألهم نفس السؤال الذي ألقاه إلى الموظفين ، فتلقي منهم نفس الإجابة ، وعندئذ أبدى ملاحظته : «سرعان ما سيعلم هؤلاء ما إذا كان حقيقة قد ظهر الله أليف ليقيم في مصر» – وفي الحال ، دون أن يسمح لهم بأية كلمة ، أمر باحضار أبيس إليه . فانصاعوا لامره وخرجوا من عنده ليأتوه بذلك الإله . أما أبيس هذا ، أو إبافوس ، فهو عجل تلدء بقرة ، يقولون أن نارا تنزل عليها من السماء ، فتحبلى في العجل أبيس . ويحمل العجل المسمى بهذا الاسم ، هذه العلامات : يكون أسود اللون ، ذو بقعة بيضاء مربعة الشكل في وسط جبهته . وعلى ظهره صورة نسر ، وعلى لسانه خنفساء^(١) .

لما عاد الكهنة ، وقد أحضروا معهم العجل أبيس ، استل قمبيز خنجره وسدده نحو بطنه العجل . غير أنه أخطأ الهدف وأصابه في فخذه ، ثم ضربه وقال للكهنة : «أيها الأغبياء ! أظنون الآلهة تكون على هذه الصورة ، من لحم ودم ، وتتأثر بالأسلحة المصنوعة من الصليب ؟ يالله من الله يناسب المصريين ! ولتعلموا أن سخريتكم منى ستكلفك كثيرا » وما أن انتهى من

(١) يظن أن أبيس هو صورة روح أوزيريس ، وهو الشعار المقدس لذلك الإله . ولكنه يصور أحيانا في صورة رجل ذي رأس ثور ..

قوله هذا ، حتى أمر بعض رجاله المختصين^(١) ، بأن يجلدوا الكهنة . وادأ وجدوا أي مصرى يحتفل بمجيء ذلك الإله ، فليقتلواه . وهكذا أوقفت الولائم فى جميع أرجاء مصر ، وقاسى الكهنة العذاب واذ جرح أبيس فى فخذه ، بقى راقدا في المعبد فترة من الوقت يتلوى ويئن من الالم ، ثم مات بسبب ذلك الجرح . فدفنه الكهنة سرا دون علم قمبيز .

يقول المصريين ، ان قمبيز الذى لم يكن متزن العقل ، أصبح بعد ذلك بالجنون جراء جرمه . فكانت أولى نوبات جنونه أنه قتل شقيقه سميرديس Simerdis الذى أمره قمبيز بالعودة ثانية من مصر الى فارس ، بداع الحسد ، لانه استطاع أن يجذب وتر القوس التى أحضرها الترجمة من اثيوبيا (والتى لم يستطع أى فرد من الفرس الآخرين أن يشنوها) مسافة قيراطين . فلما رحل سميرديس الى فارس ، رأى قمبيز حلما فى نومه ، خيل اليه أن رسولا جاءه من فارس وأخبره بأن سميرديس نبوا عرش المملكة وطاول برأسه السماء . فخاف قمبيز على نفسه وتصور انه من الممكن جدا أن يقتله شقيقه ويعحكم المملكة بدلـه ، فأرسل بريكساسبيس الذى كان ينقـ به أكثر من سائر الفرس ، وأمره بأن يقطع رأس سميرديس . ويقول البعض أنه قتلـ فى حين كانا يصيـان معا . ويقول آخرون انه صحبـه الى الخليج الفارسى وأغرقه هناك .

يقال ان هذه كانت أولى نوبات جنونه . أما النوبة الثانية فجاءـه عندما قـل اخته التى صحبـته الى مصر ، وعاشت معه كزوجـته برغم انـها كانت شقيقـته (٢) ، ابنة كل من أبيـه وأمه . والـيك كيف اتـخذ قمبـيز شقيقـته زوجـة له : لم يكن من عادة الفرس قبل عصرـه أن يتـزوجـوا أخواتـهم ، أما

(١) يستخدم الفرس ، شأنـهم شأنـ الآتراك وغيرـهم من الـممـراتـ ، اـشخاصـ مهمـتهم الشرـب والـجلـد وـتنـيـد غيرـ ذلك من صـنـوف العـقـاب . وـانـ معـاملـةـ المـصـريـين لـأـعـدـائـهـ لـتـخـتـلـفـ تـامـ الـاخـلـافـ عنـ معـاملـةـ غـيرـهـ منـ شـعـوبـ الشـرقـ الـقـدـماءـ . لـانـهـ لمـ يـفـعـلـوـ أـكـثـرـ مـنـ قـطـعـ أـيـدـىـ الـقـنـالـىـ ، وـوـضـعـهـاـ فـيـ «ـأـكـوـامـ»ـ أـمـامـ الـمـلـكـ (ـالـلـوـكـ ٨ ، ١٠ ، ١٨ ، ٢٧ـ)ـ لـمـرـفـةـ عـدـدـ قـتـلـيـ الـدـوـ . وـاـذـ أـجـبـ أـسـرـاهـمـ عـلـىـ الـعـلـمـ ، فـانـماـ كانـ هـذـاـ مـنـ شـرـوطـ الـابـقاءـ عـلـىـ الـحـيـاـةـ فـيـ الـعـصـورـ الـفـابـرـةـ . وـلـمـ نـرـهـ قـطـ يـوـقـعـونـ الـعـدـابـ الـمـنـظـمـ بـأـعـدـائـهـ ، وـلـاـ يـسـوـمـونـهـ أـيـةـ قـسوـةـ أـكـثـرـ مـنـ معـاملـةـ فـظـةـ مـنـ جـانـبـ جـنـدـىـ جـاهـلـ . وـمـثـلـ هـذـاـ اـمـرـ مـعـرـوـفـ فـيـ جـرـوبـ أـورـوبـاـ الـمـسـيحـيةـ .

(٢) كانـ مـسـموـحاـ لـلـمـصـريـينـ بـأـنـ يـتـزـوجـواـ أـخـوـاتـهـمـ مـنـ نفسـ الـابـ والـامـ ، وـيـحرـمـ قـانـونـ لـيفـيت Levit الـرـواـجـ بـالـأـخـتـ سـوـاءـ أـكـانـتـ مـنـ الـابـ أوـ مـنـ الـامـ . أـمـاـ فـيـ عـصـورـ الـبـطـرـيرـيـكـيـةـ فـكـانـ يـجـوزـ لـلـرـجـلـ أـنـ يـتـزـوجـ أـخـتـهـ إـذـ كـانـتـ مـنـ أـبـيـهـ فـقـطـ (ـالـتـكـوـينـ ٢٠ ، ١٢ ، ١٨ـ)ـ . وـالـعـادـةـ الـمـصـرـيـةـ أـحـدـيـ الـعـادـاتـ الـتـيـ أـشـيـرـ إـلـيـهاـ فـيـ لـيفـيت ١٨ ، ٣ـ)ـ .

قمبيز ، فاذ وقع في غرام احدى اخواته وأراد أن يتزوجها ، وكان يعلم أن هذا مخالف للتقالييد الفارسية ، جمع القضاة الملكيين وسائلهم : «عما اذا كان هناك قانون يسمح للأخ بأن يتزوج اخته متى أراد ذلك؟» وكان أولئك القضاة الملكيون نخبة منتقاة من بين الشعب الفارسي ، يشغلون منصب القضاء طيلة حياتهم الا اذا اتهم أحدهم بما يخل بالشرف ، وبواسطتهم يقام العدل في فارس . كما أنهم هم الذين يفسرون القوانين القديمة ، وإلى حكمهم تترك جميع المنازعات . فلما ألقى قمبيز عليهم هذا السؤال ، أجابوه اجابة فيها صدق وفيها أمان فقالوا : «انهم لم يجدوا قانونا ما يجيز للأخ أن يتزوج اخته ، ولكنهم وجدوا قانونا يجيز لملك فارس أن يفعل ما يشاء » . وعلى هذا لم يخرقوا القانون خوفا من قمبيز ، ولم يضرروا أنفسهم بالتمسك الشديد بحرفية القانون ، بل وجدوا قانونا واضحا تماماً يوضح موضع طلب الملك ، ويتحقق له رغبته (١) وبناء عليه تزوج قمبيز من موضوع غرامه (٢) ، ولم يلبث طويلاً وتزوج اختاً أخرى ، كانت صغرى هازينا الزوجتين ، وهي التي ذهبت معه إلى مصر حيث لقيت الموت على يديه .

تحكى روايتان مختلفتان عن موت هذه الزوجة وموت سميرديس . فتنقول الرواية الأغريقية ان قمبيز أطلق جروا ليقاتل شبل لبؤة ، وكانت زوجته تراقب ذلك القتال . فتغلب الشبل على الكلب ، فما كان من كلب آخر الا أن قطع سلسلته وجرى لنجدته أخيه ، وعندئذ قاتل الكلبان معاً الشبل وهزماه . فسر قمبيز من تلك الحركة أيماء سرور . أما اخته التي كانت جالسة معه ، فأذرفت الدموع . فلما رأها قمبيز على تلك الحال ، سألهما عما يبكيها ، فأجابتها بأنها عندما رأت الكلب الصغير يهب لنجدته أخيه ، تذكرت سميرديس الذي لم يكن له من يساعد . ويقول الأغارقة ان قمبيز قتلها بسبب كلامها هذا .

(١) لا حاجة الى التنوية بمشابهة وجهة نظر القانون الفارسي المذكور هنا والقانون الذي أوجده دان ، الباب السادس ، وهو : « لا تغيير في قانون الميدلين والفارسيين » .

(٢) كانت هذه الاخت هي اتوسا والدة كسرى كيس التي كانت زوجة قمبيز ، وسميرديس الكاذب ، وداريوس هو ستاسبيس على العاقد .

جنون قمبیز

هكذا كان جنون قمبيز حيال أقاربه . ولست أدرى أكان هذا الجنون بسبب مافعله مع أبييس أو بسبب آخر من الأسباب الكثيرة التي نشأ عنها المصائب . ويقولون انه كان مصاباً منذ ولادته بمرض مرير يسميه البعض «المرض المقدس» (١) وعلى ذلك لا يكون غريباً بأية حال أن تأثر عقله بدرجة ما . وقد عرفنا أن جسمه كان يعمل وهو مصاب بذلك المرض .

كان قمبيز مجنوناً أيضاً حيال الأغراب ، علاوة على جنونه حيال أقربائه . ومن بين أولئك الأغراب بريكساسبيس ، الرجل الذي كان يقدره قمبيز أكثر من سائر الفرس وهو الذي كان يحمل رسائله ، والذي عين ابنه في منصب «حاملي الكأس» ، وهو منصب غير قليل الشأن في فارس . ويقال أن قمبيز سأله ذات مرة بقوله : يا بريكساسبيس ، أي نوع من الرجال يظنهن الفارسيون ؟ وماذا يقولون عنى ؟ فأجابه بريكساسبيس قائلاً : «مولاي ! إن القوم ليشنون عليك أجمل الثناء في كل شيء إلا شيئاً واحداً ، يقولون أنك مولع أشد الولع باحتساء الخمر » هكذا أخبره بريكساسبيس بحكم الشعب الفارسي عليه . عندئذ ثارت ثائرة قمبيز وأرغى وأربى وقال : «ماذا ؟ أ يقولون أنني أفرط في شرب الخمر ، ولذا فقدت احساسى وجنتى ! أذن فقد كانت خطبهم السابقة عنى كاذبة » . وذات مرة عندما كان الفارسيون حاليسين معه ، وكان كرويسوس جالساً قرباً منهم ، سألهم

(١) المرض المعروف بهذا الاسم هو الصرع ، كما يتضح من كتاب أبسوهراط Maljenedetto بعنوان «عن المرض المقدس» ولا يزال الايطاليون يطلقون عليه اسم «أى المرض المقدس» . ويعتبر هذا المرض من أصليل مقدس بسبب نوباته المفاجئة وطبيعته المفزعية .

قمبیز : « أى نوع من الرجال يظلونه لو قورن بأبيه کوروس ؟ »
 فأجابوه : « بأنه يفوق أباه لانه صار ملکا على كل ما كان يحكمه
 والده ، وزيادة على هذا فقد جعل نفسه سیدا على مصر وعلى البحر » .
 وكان کرویسوس يقربه ، واستاء من تلك المقارنة فقال لقمبیز : لست من
 هذا الرأى يا ابن کوروس . اذ أرى أنك لاتعادل اباك لاتك لم تخلف وراءك
 ابنا كهذا الذى خلفه أبوك » . فسر قمبیز لسماع هذا الرد ، وأتمنى على
 حکم کرویسوس .

تذكر قمبیز هذه الاجابات فتحدث الى بريکساسبیس بخشونة قائلاً:
 احکم ب بنفسك الآن ، يا بريکساسبیس . اما أن الفرس يقولون الصدق ،
 واما انهم ليسوا هم المجانين حتى يقولوا ما مصدر منهم . انظر ، هاهو ابنك
 واقف الآن في هذه الودهة ، فإذا سدت الرمایة اليه وأصبهته في وسط قلبه
 كان من الجلى أنه ليس لدى الفرس ما يبرر قوله . وإن أخطأته اعترفت بأن
 الفرس على حق واننى مجنون» . وما ان انتهى من قوله حتى أمسك قوسه
 وجذب وترها الى نهايته واطلق سهما أصاب الغلام فسقط في الحال قتيلاً .
 بعد ذلك أمر قمبیز بشق صدر الجهة وفحص الجرح فلما وجد أن السهم
 قد اخترق القلب سر سرورا بالغا ، وقال للوالد وهو يضحك : « والآن هائنت
 ترى يا بريکساسبیس اننى لست أنا المجنون ولكن الفرس هم المجانين ،
 اذ فقدوا احساساتهم ، أرجوك أن تخبرني الآن ، هل رأيت قط أحدا من
 البشر يطلق سهما بدقة أفضل من هذه ؟ » فلما رأى بريکساسبیس أن الملك
 ليس متمالكا لقواه العقلية ، خشى على نفسه فأجاب قائلاً : « مولاي لا أظن أن
 الآله نفسه يستطيع أن يرمي سهما بهذه المهارة » . هذه هي الحماقة التي
 ارتکبها قمبیز في ذلك الحين . وفي حين آخر ، أخذ اتنى عشر رجلا من أعظم
 ثبلاء الفرس ، ودفنهم حتى أعناقهم دون أن يقتربوا اثما او يتهمهم بشيء .
 عندئذ رأى کرویسوس الليدي انه من الحکمة أن يحذر قمبیز عاقبة
 أفعاله ، فقال له : « أيها الملك ، لا تسمح لنفسك بالتتمادي في نزق الشباب
 وفي حمية طباعك ، ولكن اكتب جماح نفسك واقبض على زمامها . فمن
 الخير للمرء أن ينظر إلى العواقب ، وفي التروي حکمة حقة . انك تقبض على
 الرجال من مواطنيك وتعدمهم بغير سبب ولا شکوى ، وقتل حتى الأطفال ،
 ترو الآن ، وفك في نفسك ، هل اذا استرسلت في مثل هذه الاعمال ، إلا
 يمكن أن يثور الفارسيون ضدك ؟ اننى أقدم لك النصح تبعا لرغبة والدك
 لقد أمرتني بشدة في الامر بأن أتصفح كلما رأيت هذا في صالحك » .
 وبطبيعة الحال لم يقصد کرویسوس من نصيحة قمبیز الا مجرد الاشتفاق
 الودي . غير أن قمبیز رد عليه بقوله : « أتزعم أنك تسدى الى النصح ؟ وفر

على نفسك هذا النصح لتحكم به مملكتك اذا قدر لك أن تكون ملكا . وبهذه النصائح الحكيمية التي أسديتها إلى والدى كوروس ، عندما أشرت عليه بعبور نهر أراكسيس ومحاربة الماساجيتين في بلادهم في الوقت الذي أرادوا أن يأتوا فيه إلى بلادنا ، جلبت الخراب على والدى كوروس بتلك المشورة السيئة . أما الآن ، فلن تفلت من العقاب لأنني من مدة طويلة أنتظر فرصة لاتخلك عليك بخطأ» . وبينما كان قمبيز يقول ذلك الكلام ، سحب قوسه ليقتل بها كرويسوس . بيد أن كرويسوس جرى بسرعة وهرب . فلما رأى قمبيز أنه لم يستطع قتل كرويسوس بقوسه ، أمر خدمه بأن يقiblyوا عليه ويقتلوه . ولكن الخدم الذين كانوا يعرفون طباع سيدهم حق المعرفة ، رأوا من الأوفق أن يخفوا كرويسوس إلى أن تهدأ ثورة قمبيز ويسأل عنه ، وعندئذ يمكنهم احضاره والحصول على جائزة نظير انقاذهم لحياته . أما إذا لم تلن قناته ولم ينضم على فقدمه ، استطاعوا أن يقتلوه وقتذاك . والحقيقة أنه لم يمض وقت طويل حتى ندم قمبيز على فقده كرويسوس . فلما رأى الخدم هذا منه ، أخبروه بأن كرويسوس لا يزال حيا . فقال لهم : « إنني لسرور منبقاء كرويسوس على قيد الحياة . أما أنتم يا من أنقذتم حياته ؛ فلن تفلتوا من انتقامي وسأعدكم جميعا » . وفعلا نفذ وعيده .

اقترف قمبيز في نوباته الجنوية كثيرا من الحماقات ضد كل من الفارسيين والخلفاء وهو لا يزال مقينا في ممفيس . ومن بين تلك الحماقات أنه فتح الأضرة وفحص جثث من دفونوا فيها . كذلك ذهب إلى معبد فولكان وأخذ يرمي التمثال القائم هناك بعده لا يحصى من السهام ، لأن تمثال فولكان يشبه إلى حد كبير تمثال باتايكى الذى ي يجعله الفينيقيون اذ يزيرون به حيازيم سفنهم الغربية ، وإذا تعذر على القراء أن يفهموا ذلك شرحته لهم بطريقة أخرى - انه تمثال يشبه التمثال الصغيرة . كما ذهب قمبيز إلى معبد الكابيرين المحرم دخوله على أي شخص سوى الكهنة . ولم يكتفى قمبيز بأن رمى التمثال هناك بالسهام ، بل وأحرقها أيضا . وقد صنعت تلك التمثال على صورة تمثال فولكان الذى يقال أنه أبوها جميعا .

اذن ، يبدو لي من المؤكد أن قمبيز قد أصابته لوثة من الجنون . يؤيد هذا عدد كبير من الأدلة ، والا لما أقدم على انتهاك حرمة الطقوس المقدسة والتقاليد المتتبعة منذ غابر الأزمنة . اذ لو خير المرء الناس بأن يتبعوا من العادات ما يرونها أصلحها ، لدرسوا جميع العادات واستقر رأيهم أخيرا على أن عاداتهم تفوق معاها من العادات الأخرى بمراحل .

اذن فلا يقدم المزع على العبث بمثل هذه الامور الا اذا كان مجنونا . وهنالك كثيير من البراهين على أن الشعوب تشعر بهذه الاحساسات . ومن هذه البراهين : بعد أن تبوا داريوس عرش المملكة ، استدعى الى حضرته بعض الاغارقة الموجودين ، وسألهما : « أي مبلغ من المال أستطيع أن أدفعه لكم حتى تأكلوا جثث آبائكم بعد موتهم ؟ » فأجابه الاغريق بأنه لا يوجد مبلغ من المال ، مهما عظم ، يستطيع اغرائهم على مثل ذلك الشيء . ثم راسل داريوس يطلب أن يحضر إليه بعض الهنود من الجنس الكالاتيانى وهم قوم يأكلون جثث آبائهم ، وسألهما : « كم أدفع لكم لتحرقوا جثث آبائكم بعد موتهم ؟ » فصاح الهنود بصوت مرتفع طالبين منه أن يحسن لغته . هذه هي عادات الانسان . وان بندار Pindar لعل حق عندما قال : « القانون ملك الجميع » .

الفصل الثاني والعشرون

أسطورة بوليقراط

بينما كان قمبيز يحارب في مصر ، أرسل الالكيدايمونيون قوات أيضا لمحاربة بوليقراط ابن أبيايس ، الذي ثار على السلطات القائمة بتلك الجزيرة وجعل نفسه ملكا عليها . وفي بدء حكمه قسم المملكة إلى ثلاثة أقسام ، واقتسم الحكم فيها مع أخيه بانتاجنوتوس وسولوسون غير أنه بعد ذلك قتل أخيه الأول ونفي الثاني الذي كان الأخ الأصغر ، وسيطر هو على حكم الجزيرة كلها . وعند ذلك عقد محالفه صدقة مع أماسيس ملك مصر . فأرسل إليه الهدايا ، وتلقى منه هدايا أخرى بدلا منها وما هي إلا فترة وجيزة حتى اتساع سلطانه أيماء اتساع ، حتى بلغت شهرته البلاد الخارجية فوصلت إلى آيونيا وإلى بقية بلاد الإغريق . فأينما أدار ذراعيه يجد النجاح في انتظاره وكان يملك أسطولا يتكون من مائة سفينة ذات خمسة صفوف من المجاديف ، كما كان لديه ألف مقاتل بالقصى والسهام . ولذلك كان يهجم على كل بلد ، لا يفرق بين صديق وعدو ، إذ كان يقول إن الصديق ليسره أن ترد إليه ما أخذته منه أكثر مما لو تركته دون غزو . فاستولى على كثير من الجزر وعلى عدة مدن من القارة نفسها . ومن أعماله الأخرى أنه هزم الليسيبيين في موقعة بحرية عندما جاءوا بجميع قواتهم لمساعدة ميليتوس ، وأسر كثيرا منهم وقيدهم بالاغلال الثقيلة ثم جعلهم يحفرون الخندق المحيط بقلعة ساموس .

لم يفت أماسيس ما ناله بوليقراط من حظ بالغ السعادة . وكان أماسيس خطرا عظيما يهدد سلامة بوليقراط . فلما استمر نجاح بوليقراط في اطراد ، كتب إليه أماسيس الخطاب التالي وأرسله إلى ساموس : « يقول أماسيس لبوليقراط : انه لما يبهج الإنسان أن يسمع بازدهار ونجاح صديق وحليف له . بيده أن نجاحك المنتقطع النظير لم

يبهجنى ، لأن الآلهة – كما أعلم – شديدة الحسدة وانى لا تمنى لنفسى ، ولمن أحبهم أن يكون النجاح حليفنا حينا ، ونلقى الاجراق حينا آخر . وبذا نمر فى الحياة بفترات من الخير والشر ، أفضضل من حسن الحظ المستمر . فلم أسمع قط عن شخص كان ناجحا فى جميع مشاريعه ، ولم تصادفه كارثة فى النهاية يكون فيها خرابه الشامل . وعلى هذا ، أعر كلامي الآن آذانا صاغية ، وقابل حظك الحسن بهذه الطريقة : « تأمل فى قرارة نفسك ، أى كنوزك أنفسك عندك ولا يمكنك احتمال ضياعه ، خذه ، مهما بلغت قيمته ، واقذف به فى موضع تكون واثقا تماما من أنه لن تقع عليه فيه عين انسان مرة أخرى . واذا لم يقتن حظك الحسن بالتحسن بعد ذلك فجنب نفسك بالأذى بأن تكرر ثانية ما نصحتك بفعله».

ما قرأ بوليقراط خطاب أمارسيس ، وأدرك حكمة هذه النصيحة ، شرع يتأمل بامعان فى كنوزه ؛ وعرف أنها يحزنها كثيرا أن يفقده . وبعد تفكير طويل ، استقر رأيه على أن خاتمه الذى اعتاد أن يوضع به امضاه ، ويلبسه فى أصبعه ؛ هو أنفس كنز لديه . وكان هذا الخاتم عبارة عن فص من الزمرد داخل إطار من الذهب (١) ، صنعه ثيورد بن تيليكيس السامى . وبناء عليه قرر أن يرمى ذلك الخاتم . فركب سفينه ذات خمسين مجدافا ؛ وأمر البحارة بالاقلاع الى عرض البحر . فلما صار على مسافة بعيدة من الجزيرة خلع الخاتم من أصبعه وقذف به الى الاعماق أمام جميع من كانوا على ظهر تلك السفينة . وبعد أن فعل هذا ، عاد الى قصره وأظهر الحزن على ضياع ذلك الخاتم .

حدث بعد خمسة أو ستة أيام أن اصطاد أحد الصيادين سمكة خالها لا تصلح الا أن تكون هدية للملك ولذلك حملها وذهب بها الى باب القصر وطلب مقابلة بوليقراط ؛ فسمح له بالدخول ، فأعطاه الصياد السمية وهو يقول : « مولاي الملك ؛ لقد وهبني الله هذه الجائزة فيجال بخاطرى ألا أذهب بها الى السوق رغم أننى رجل فقير أعيش من مهنتى فقلت لنفسي : إن هذه السمية لا تصلح الا لمولاي بوليقراط وعظمته . ولذا أحضرتها الى هنا لاقدمها لكم » . فسر الملك من كلامه ، وقال له : « ما فعلت الا حسنا ، وانى لمدين لك بدينين ، دين هذه الهدية والآخر من أجل هذا الكلام . تعال ، اذن وتناول طعام العشاء معى الليلة » . فذهب الصياد الى بيته واعتقد أنه

(١) أخذ العرب قصة الصياد والخاتم من هذه القصة بعد أن غروا فيها بعض الشيء .

شرف عظيم أن يتعشى مع الملك . وفى تلك اللحظة ، بينما كان الخدم ينطفون بطن السمكة اذ وجدوا فيه خاتم سيدهم . فما أن أبصروه حتى أسرعوا الى بوليقراط والبشر باد على وجوههم ، وأعادوا الخاتم اليه وأخبروه فى أى موضع وجدوه . فرأى الملك فى تلك المسألة تدخل الهيا فكتب خطابا الى أماسيس يخبره بكل ماحدث ، وأوضح له ما فعله وما آلت اليه الامر - ثم أرسل الخطاب الى مصر .

عندما قرأ أماسيس الخطاب الذى جاءه من بوليقراط ، أدرك أنه ليس بوسع الإنسان أن ينقذ زميله من المصير المقدر له . كما أدرك سوء عاقبة بوليقراط اذ نجح وازدهر فى كل شيء ، حتى قوى استعادة ما رماه . وعلى ذلك بعث رسولا الى ساموس وألغى معاهدة الصداقة التى كانت بينهما . فعل هذا ، حتى اذا ما حلت الضربة القاضية ببوليقراط ، استطاع اجتناب الحزن الشديد لصبية صديق ارتبط معه بمعاهدة صداقة .

الفصل الثالث والعشرون

وقفة قمبيز

بيتاما كان قمبيز في مصر ابان فترة جنونه ، ثار ضده أخوان مجوسيان . أحدهما ، كان قمبيز قد وكل اليه الاشراف على شئون قصره في فارس . وهذا هو الذي بدأ بالتمرد فاذا كان عارفا أن قمبيز قد قتل أخيه سميريس ، وأن موته أخفى عن الشعب الفارسي ولا يعلم به منهم سوى فئة قليلة ، بينما يعتقد معظمهم أنه لا يزال حيا ، انتهز هذه الفرصة وقام بمحاولة جريئة للوصول إلى الناج ٠٠٠ كان له أخ - نفس الأخ الذي سبق أن قلت أنه شريكه في التمرد - وقد شاءت الصدف أن يشبهه إلى حد كبير سميريس بن كوروس الذي قتله أخوه قمبيز . ولم يشبه سميريس في صورته فحسب ، بل في اسمه كذلك . أى انه كان يدعى سميريس أيضا . فحنه باتيزيسيس ؟ المجنوسي الآخر ، على القيام بالدور كله . فأخذه وأجلسه على عرش المملكة . وبعد أن فعل هذا ، أوفد رسلا إلى جميع البلدان . إلى مصر وإلى كل موضع آخر ، يعلنون الجيوش بأن عليهم منذ ذلك الوقت فصاعدا أن يطيعوا أوامر سميريس ابن كوروس ، وليس قمبيز .

بنساء على ذلك قام الرسل بمهمتهم وأعلنوا الجيوش كما أمروا . كذلك فعل الرسول الذي أوفد إلى مصر . فلما وصل هذا الرسول إلى أجياتانا في سوريا ، وجد قمبيز مع جيشه هناك . فذهب من فوره إلى وسط الجيش مباشرة ، ووقف أمامهم جميعا وأعلن عليهم ما أمره به باتيزيسيس المجنوسي . مما أن سمع قمبيز هذا الإعلان حتى اعتقاد بصحة ما قاله الرسول ، وظن أن بريكساسبيس قد خدعه (أى حسبه لم يقتل سميريس عند ما أرسله إلى فارس) ، فتحول بصره نحو بريكساسبيس وقال له : «أهذه هي الطريقة التي تنفذ بها أوامری ، يا بريكساسبيس ؟»

فأجاب الآخر قائلاً : « مولاي ، لا صحة للنباء القائلة بأن أخاك سميرديس قد ثار ضدك . كما أنه لن يتسرب إلى نفسك أي خوف من قيام أية حرب مع ذلك الرجل ، سواء أكانت الحرب عبارة عن قتال كبير أو صغير . فقد نفذت أمرك فيه بيدي . وبيدي دفنته . فان جاز للموتى أن يخرجوا من قبورهم ، فتوقع أن يثور ضدك استياجيس الميدى ، ويحاربك . بيد أنه إذا سارت الأمور حسب ناموسها الطبيعي الذى الفناه فى الماضى ، فلن على يقين من أنه لن يصيبك ضر من هذه الناحية وانى لاتنصح الان بأن نرسل فى أعقاب هذا الرسول من يقبض عليه ، ثم نسألة ونسدد عليه فى السؤال لمعرفة من الذى كلفه بأن يأمرنا باطاعة الملك سميرديس » .

ما أن انتهى بريكساسبيس من كلامه حتى استتصوب قمبيز مشورته ، وأرسيل فى مطاردة ذلك الرسول فقبض عليه وجئ به الى الملك فقال له بريكساسبيس : « أيها السيد ، لقد حملت علينا رسالة وقلت أنها من سميرديس بن كوروس . اذن ، فلتدرك على سؤالى بغاية الصراحة ، ثم تصرف فى طريقك دون أن يصيبك أى أذى : هل مثلت فى حضرة سميرديس وأصدر إليك هذه الاوامر بنفسه ؟ أم تلقيتها من أحد موظفيه ؟ » فأجاب الرسول يقول : « الحقيقة أن عينى لم تقع على سميرديس بن كوروس منذ أن قاد الملك قمبيز الفرس الى مصر . أما الذى أصدر الى هذا الأمر فهو الرجل المخوس الذى تركه قمبيز مشرفا على ادارة قصره ، اذ قال لنا : ان سميرديس بن كوروس يبعث اليكم بهذه الرسالة » لم ينطق الرسول فى كلامه هذا بغير الحقيقة الحرافية . عند ذلك قال قمبيز لبريكساسبيس : « ها إنذا برىء الآن من كل لوم ، يا بريكساسبيس لأنك نفذت أمري . كرجل مخلص . ولكن خبرنى الآن ، من من الفرس يمكن أن يكون قد انتحل اسم سميرديس وتالب ضدى ؟ » فأجابه بقوله : « أعتقد يا مولاي ، اننى فهمت سر المسألة كلها . ان الذين ثارا ضدك هما المخوسين ، باتيزيشيس الذى وكلت اليه الاشراف على قصرك ، وأخوه الذى يدعى سميرديس .

ما أن سمع قمبيز اسم سميرديس حتى أدرك لتوه صدق كلام بريكساسبيس ، يتحقق الحلم الذى رأه هو نفسه فى منامه – أقصد الحلم الذى رأه فيما مضى ، من أن شخصا ظهر له فى نومه وأخبره بأن سميرديس جلس على عرش المملكة ، وطاول برأسه السماء فلما رأى أنه قتل أخاه دون ذنب ولا جريمة ، بكى وحزن على فقده اياه . بعد ذلك استنشاط غيظا وهو يفك فى حظه العائز ، فقفز بسرعة الى ظهر جواده ، معتزما السير بجيشه بغاية السرعة الى سوسى ، لمقاتلة ذلك المخوسى .

وبينما هو يقفز سقط رباط غمد سيفه ، فدخلت سن السيف العارية في فخدنه وجرحته في نفس الموضع الذي جرح فيه الاله المصري أبليس . فلما أحس قمبيز بأنه أصيب بجراح الموت ، سأله عن اسم البلد الذي هو فيه " فقالوا له انه « أجباتانا » . وكان وحى بوتو قد أخبره من قبل بأنه سيقضى آخر أيامه في أجباتانا . فظن أنه سيموت في مدينة أجباتانا السورية . وعلى ذلك ، عندما سمع قمبيز اسم ذلك المكان " أرجعته الصدمة المزدوجة إلى صوابه : الصدمة التي أصابته عندما علم بنوبة المجنوسي ، وصدمة جرحه . وبناء على كل هذا ، أدرك الآن قصد الوحي ، فقال : « اذن ، فقد قدر لقمبيز بن كوروس أن يموت هنا » .

فلمَّا رأى الفرس ملكهم يبكي " مزقوا ثيابهم التي كانوا يرتدونها ، وصاحوا مولولين بعد ذلك ، واذ تعفن العظم وسرت الغنرينا في الفخذ ، مات قمبيز بن كوروس . وقد ظل في الحكم سبع سنوات وخمسة شهور ، ولم يترك وراءه ذرية من البنين ولا من البنات . ولم يشق رجال الفرس الذين سمعوا كلامه ، في شيء مما قاله فيما يتعلق بأن القابض على زمام الحكم رجل مجنوسي . ولكنهم اعتقادوا بأنه إنما يقول هذا حقدا على أخيه سميرديس ، وأنه اخترع قصة موته لتشوّه صدّه جميع الأمة الفارسية بقوة السلاح . وهكذا كانوا متأكدين من أن سميرديس بن كوروس هو الذي ثار ضد قمبيز وتبوأ العرش ، لأن بريكساسبيس انكر انكارا باتا انه قتل سميرديس ، اذ من الخطأ عليه ، بعد موته قمبيز ، أن يعترف بأن سميرديس بن كوروس قد لقى حتفه على يديه .

مات قمبيز ، وحكم المجنوسي آمنا ، متخدنا شخصية سميرديس بن كوروس . وهكذا حكم الشهور السبعة التي تكمل السنة الثامنة من حكم قمبيز . وفي مدة حكمه نال رعاياه خيراً كثيراً على يديه ، حتى انه عندما مات حزن عليه جميع سكان آسيا ، حزنا بالغاً ، ما عدا الفرس . لأنه بمجرد أن جلس على العرش أرسل إلى كل أمة خاضعة لحكمه يمنحها الاعفاء من الخدمة العسكرية ومن الضرائب لمدة ثلاثة سنوات .

الفصل الرابع والعشرون

كيف أرتفقَ داريوسَ إلى العَرْشِ

في الشهر الثامن لحكم سميرديس اكتشفت شخصيته بهذه الطريقة : كان بفارس رجل يدعى أوتانييس بن فارناسبيس ، لا يقل عن أبي فارس آخر في الجاه أو في الشراء . وكان أوتانييس هذا أول من ساورته الشكوك في أن ذلك المجنوس هو سميرديس بن كوروس حقيقة . فأخذ يستقصي عن حقيقة نسبه فرأى أن الملك لا يغادر القلعة إطلاقا ، ولا يستدعي قط إلى حضرته أبي أحد من نبلاء الفرس . فساقه هذا إلى الحدس بالحقيقة . وما أن بلغت شكوكه ذروتها حتى عمد إلى الطريقة الآتية : كان له ابنة تدعى فايديمما ، كانت زوجة لقمبيز ، ثم تزوجها ذلك المجنوس مع زوجات قمبیز الأخريات . فبعث أوتانييس رسالة إلى ابنته هذه يطلب منها أن تخبره : «من يكون ذلك الذي تقاسمه الفراش - هل هو سميرديس بن كوروس ، أو هو رجل آخر ؟» فردت عليه فايديمما بأنها لا تعرف أذ لم يسبق أن رأت سميرديس بن كوروس » ولذلك لا يمكنها أن تحكم على شخصية الرجل الذي تقاسمه الفراش . فأرسل إليها أوتانييس مرة ثانية، يقول : «إذا لم تكوني تعرفي سميرديس بن كوروس ، أنت نفسك ، فسأل الملكة أتوسا عنمن يكون ذلك الرجل الذي تعيشان معه - فلا يمكن أن تجهل شقيقها » فأجابت الابنة بقولها : « لا أستطيع الوصول إلى التحدث مع أتوسا ، ولا مع أية امرأة أخرى من يعشن في القصر . فيما أن استولى هذا الرجل ، على زمام الملك ، حتى فرق بين كل منها والآخر ، وخصص لكل واحدة حجرة منفصلة عن حجرة زميلتها » .

زاد هذا في وضوح الموقف أمام أوتانييس . ومع ذلك فقد بعث برسالة ثالثة إلى ابنته يقول فيها : «ابنتى ، انك من دم نبيسل - ولن تتحجمى عن القيام بعمل خطر يأمرك . والدك بأن تقومى به . اذا لم يكن

هذا الرجل هو سميرديس بن كوروس ، وأنه هو الرجل الذى أظنه اغتصب الملك ، فلا يجب أن تمر جرأته فى اتخاذك زوجة له والحكم على الفرس ، دون أن يعاقب . وعلى هذا ، افعل ما آمرك به – عندما يقضى الليلة معك ، انتظرى حتى تتأكدى من أنه قد استغرق فى النوم ؛ ثم تحسى أذنيه . فان كان له أذنان فاعلمى أنه سميرديس بن كوروس . وان كان بغير أذنين ، فكونى على يقين من أنه سميرديس الم Gorsu . «فردت عليه فايدىما تقول : « انه لمن الخطر الجسيم ، ان كان بغير أذنين؟ وقبضت عليها وهى تبحث عنهم . انها لتعلم علم اليقين أنه سوف يقتلها من أجل هذا ، ماف ذلك ريب – وبرغم هذا فستقوم بهذه المغامرة » . وهكذا حصل أوتانييس على وعد من ابنته بأنها ستقوم بما طلبها منها . كان سميرديس الم Gorsu قد قطعت أذناه فى عهد كوروس بن قمبيز عقابا له على جريمة دنئة . وعلى ذلك اعتزمت فايدىما ابنة أوتانييس القيام بما وعدت به والدها عندما جاء دورها لتبييت فى فراش الم Gorsu (فى فارس ، تنام زوجات الرجل معه ، كل حسب دورها) . وبينما كانت بين أحضانه ؛ انتظرت حتى راح فى نوم عميق وتحسست أذنيه ؛ فإذا بها تجده بغير أذنين . وما أن بزغ الفجر حتى أرسلت كلمة بهذا الى والدها .

بعد ذلك استدعاى أوتانييس اليه الثنين من وجهاء الفرس ؛ هما أسباثينيس ، وجوبرياس . وهما رجلان يمكن الثقة بهما تماما فى مثل هذا الموضوع ، وأفضى اليهما بكل شيء . وكان هذان من ناحيتهما قد ساورتهما الشكوك من قبل فى هذه المسألة . ولذلك ، عندما بسط أوتانييس قضيته وحججه اليهما ، انضمما الى رأيه فى الحال ، واتفقا على أن يختار كل واحد منهم لنفسه رفيقا فارسيا يثق به أعظم ثقة . فاختار أوتانييس انتافيرنيس ، واختار جوبرياس ميجابوزوس . أما أسباثينيس فاختار هودارنيس فلما صار عددهم ستة تصادف أن وصل داريوس بن هوستاسبيس الى سوسا قادما من فارس حيث كان والده حاكما . وعند مجئه رأى الستة أنه من المخى أن يشركوه معهم فى ذلك الأمر .

واذ صار الرجال سبعة ، اجتمعوا معا ليحللوا اليمين ويتحددوا معا ، ويبسطوا وجهات النظر – فلما جاء دور داريوس فى الكلام ليفرضى عليهم بما يجول فى خاطره قال : « كنت أظن أن لا أحد غيرى يعرف أن سميرديس بن كوروس ليس على قيد الحياة الآن ، وأن سميرديس الم Gorsu هو الذى يحكمنا . وعلى ذلك أسرعـت بالمجيء الى هنا لتدبـير مقتل ذلك الم Gorsu . ولكن ، بما أن الامر ، كما يبدو ، معروف لكم جميعا وليس لـ

وحدي ، فمن رأى أن نعمل في الحال دون أى تأخير . اذ التأخر يضر بخطتنا » . فقال أوتانيس : « يابن هوسناسبيس ! إنك ابن أب شجاع ويليق بك أن تبدي أنك شجاع وجريء مثله . غير أنه يجب أن تلتزم جانب الحذر في هذا الأمر . لا يجب الاسترخاء ، بل العمل بحزم . ينبغي أن نزيد عدتنا قبل أن نضرب ضربتنا » فأجاب داريوس : « ليس الأمر كما ترى ، اذ يجب أن نعلم ، نحن الحاضرين هنا ؛ إننا انأخذنا برأي أوتانيس فستموت أشئن ميتة ؛ اذ سوف يفشى شخص ما خطتنا إلى المجرم طمعا في الحصول على مكافأة مالية . كان يجب أن نحتفظ بالمسألة فيما بيننا ، ونقوم بالغامرة وحدنا . ولكن بما أنك قررت أن تشرك معك آخرين وتطلعهم على هذا السر ، كما أطلعتنا عليه ؛ فاني أنصبح بالقيام بالعمل اليوم ، واذا هر يوم واحد ولم ت عملوا فتآكلوا من أنني لنأسمع لأحد بأن يشى بي لدى المجرم ، بل سأذهب اليه بنفسي ؛ وأنهمكم جميرا علينا » .

لما رأى أوتانيس أن داريوس متهمس إلى تلك الدرجة ، قال : « ولكن بما أنك تجبرنا على العمل اليوم دون أن تمهلنا يوما واحدا ، فأخبرنا بربك ، كيف ندخل إلى القصر لنهجم عليه . ان الحراس ، كما تعلم ، في كل مكان – فإذا لم تكن قد رأيتهم بعيني رأيك ، فلا بد أنك سمعت عنهم – فكيف يتسلى لنا أن ندخل وسط أولئك الحراس ؟ فأجاب داريوس : « يا أوتانيس ، هناك أشياء كثيرة سهلة عند التنفيذ بينما يصعب شرحها باللغاظ . كما أن هناك أشياء سهلة عند الكلام ولا يتم بخصوصها أى عمل نبيل بعد الكلام . أما عن أولئك الحراس ، فإنك تعلم إننا لن نجد صعوبة في المرور من بينهم . ان ربنا وحدها كفيلة بأن يجعلهم يسمحون لنا بالدخول ، أما الخوف والتrepid فيحيثانهم على رفض طلبنا . وعلاوة على هذا ، فإن لي أقوى حجة في الدخول ؛ اذ يمكنني أن أقول إنني رجعت الآن فقط من فارس ومعي رسالة من أبي ي يجب أن أفضي بها إلى الملك . يجب على المرأة أن يكذب عندما تقتضي الضرورة هذا . فلا يقول الناس لأنهم يرون الكسب في خداع الآخرين . ويقولون لا الصدق لأنهم يأملون في الحصول على شيء من قولهم الصدق ، كما أنهم يأملون في أن يصدقهم الناس بعد ذلك في أمور أكثر أهمية . وهكذا رغم تناقض سلوكهم فإن الغاية واحدة فإذا لم تكن هناك مكاسب يسعى المرأة وراءها فإن الصادقين يكذبون بقدر ما يكذب الكاذبون . ويصدق الكاذبون بقدر ما يصدق الصادقون . فالحارس الذي يسمح لنا بالدخول بسهولة سينال مكافأته يوما ما ، والويل لمن يقاومنا ، اذ يجب

أن نعتبره عدوا . فتدخل أمامه بالقوة ، ونتخذ طريقنا ونذهب مباشرة لتنفيذ عملنا » .

بعد أن انتهى داريوس من كلامه هذا ، قام جوبرياس ، وقال : « أصدقائي الأعزاء ، متى تسعن لنا فرصة أنساب من هذه لاستعادة الملكة ؟ فإذا لم نكن أقوىاء بما فيه الكفاية ، فلا أقل من أن نموت ونجن حماول استعادتها . تصوروا أننا ، نحن معاشر الفرس ، نخضع لحكم رجل ميدى مجوسي . وأى نوع من الرجال هو ؟ انه رجل قطعت أذناه ! كان بعضكم حاضرا وقمبيز راقد على فراش الموت ، تذكروا اللعنات الكثيرة التي صبها على الفرس ان لم يقوموا بمجهود لاستعادة الملكة . والحقيقة أننا لم نهتم كثيرا بما قاله ، لأننا خلناه يتكلم بدافع العداوة ليحشنا على الثورة ضد أخيه والآن ها أنذا أعطى صوتي للعمل بحسب نصيحة داريوس ، هيا ، سيروا كتلة واحدة الى القصر ، من القصر الذى نحن فيه الآن ، ومن ثم ننقض على ذلك المجوسي » . هكذا قال جوبرياس ، فاستحسن الآخرون رأيه .

بينما كان هؤلاء السبعة يتشارون معا ، تصادف أن وقعت هذه الأحداث : كان المجوسين يفكرون في خير ما يفعلانه . فاستقر رأيهما ، لعدة أسباب ، على أن يصادقا بريكساسيبيس . كانوا يعلمون كم أنثاره قمبيز في قسوة ، وقتل ابنه بسهم . كما كانوا يعلمون أنه هو الذي قتل سميرديس بن كوروس ، وأنه الشخص الوحيد الذي يعلم سر مقتل ذلك الأمير . كذلك وجدا أن جميع الفارسيين ينظرون إليه نظرة احترام وتقدير ولذلك استدعياه إلى حضرتهما وإتخاذه صديقا لهما ، وجعلاه يرتبط بوعده ويقسم باليمان المغلظة إلا يكشف التدليس الذي قاما به على الشعب الفارسي ، وألا يكتشفه لأحد قط . وتعهدتا بهما أنفسهما بأن يعطياه في تلك الحال آلاف الهدايا من كل نوع وصنف . وعلى هنذا وافق بريكساسيبيس . فلما رأى المجوسين أنهما أفلحا في إغرائه إلى هذه الدرجة ، انتقلا إلى اقتراح آخر ، وقالا إنهم سيجمعون الفرس عند سور القصر ؛ وأن يصعد بريكساسيبيس إلى أحد الأبراج ويخطب في الشعب من ذلك المكان ، ويقول لهم أن الذي يحكمهم هو سميرديس بن كوروس ، فولا أحد سواه ، أمراه بأن يفعل هذا لأن بريكساسيبيس كان رجلا عظيم الشأن بين مواطنيه ، وكثيرا ما أعلن على الملأ أن سميرديس بن كوروس لا يزال حيا ، وأنكر أنه قتله .

أبدى بريكساسيبيس استعداده لتنفيذ مشيئتهما فيما يختص بهذا الموضوع وعلى ذلك جمع المجوسين الشعب وجعله بريكساسيبيس يصعد

إلى قمة البرج ، وطلبها منه أن يلقى خطابه . غير أن بريكساسبيس نسى كل ما أوصاه به المجنوسين ، وببدأ خطبته بأنحى ميميس ، وتسلل منه إلى أن بلغ حكم كوروس . وعند ما وصل بعد ذلك وبالتالي إلى حكم هذا الملك عدد جميع الخدمات التي قدمها للفرس . ومن ثم أخذ يقرر الحقيقة التي أخفاها خوفا على حياته ، إذ كان في اذاعتها خطر أى خطر بيد أن الضرورة أضطرته الآن إلى أن يفتش كل شيء . فأوضح كيف أجبره قمبيز على قتل سميرديس بن كوروس ، وأن فارس يحكمها الآن رجال مجنوسين . وأخيرا طفق يصب اللعنات الجمة على الفرس إن لم يعلموا على استعادة مملكتهم والانتقام من المجنوسين وبعد أن أفضى بكل هذا ، ألقى بنفسه رأسا من ذلك البرج إلى الهوة أسفله . وهكذا كانت نهاية بريكساسبيس الذي كان رجلا ذائعا الصيت بين الفرس طول حياته .

الآن وقد اعتزم الفارسيون السبعة مهاجمة المجنوسين دون ابطاء، قبسموا الصلاة أولا للآلهة ، ثم انطلقوا صوب القصر ، ولم يكونوا يعلمون بعد بما فعله بريكساسبيس وبينما هم في الطريق إلى القصر ، بلغتهم تلك الأنباء بعد أن قطعوا حوالي نصف المسافة إلى القصر . وعلى ذلك انتجووا جانبا ، بعيدا عن الطريق وتشاوروا فيما بينهم ، فقال أوتانيس وحزبه أنه يجب عليهم أن يرجئوا هذا الامر الآن ، وألا يقوموا بالهجوم . والاحوال في مثل ذلك الغليان ، وأما داريوس وأتباعه فكان رأيه ضد أي تغيير في الخطة، ورغبوا في التوجيه مباشرةً وعدم اضاعة أية لحظة . وبينما هم في مناقشات وتشاحنوا أذ رأوا فجأة زوجين من النسور تطاردهما سبعة أزواج من الصقور . فمزقت الصقور النسور بمخالبها ومناقيرها . فلما أبصر السبعة هذا المنظر وافقوا بصوت واحد على رأي داريوس . وازد شجعهم لهذا الفail ، أسرعوا بالانطلاق إلى القصر .

قوبل هؤلاء الرجال عند الباب كما كان داريوس يتوقع . فقد سمع لهم الحراس الذين لم يشكوا في أن وجهاء الفرس قد جاءوا لارتكاب جريمة ، بالدخول دون أية صعوبة – يبدو أنهم كانوا في حراسة خاصة من الآلهة – ولم يتقدم حارس واحد حتى ليسألهم أى سؤال . فلما وصلوا إلى القاعة الرئيسية ، التقوا ببعض الخصيان الذين كانت مهمتهم حمل الرسائل من الملك وإليه . فأوقفوهم وسائلوهم عما يريدون ، بينما هددوا حارس الابواب في الوقت ذاته ، للسماح لهم بالدخول . حاول السبعة الاستمرار في طريقهم غير أن الخصيان منعوهم . مما كان من هؤلاء الرجال ، وقد شجع كل منهم الآخر بالعبارات الحماسية ، إلا أن

استلوا خناجرهم وطعنوا بها كل من حاول الوقوف في طريقهم ، ثم
اندفعوا إلى بيت الذكور .

في ذلك الوقت كان المجوسين كلهم في الداخل يتشارون في موضوع بريكسابيس فلما سمعوا الضجة مع الحصان وصياحهم المرتفع ،
أسرعوا بالخروج مما أنفسهم لينظروا ما الخطب . فلما أبصروا الخطير
المحذق بهما ، جريا إلى الأسلحة . فاستطاع أحدهما أن يصل إلى قوس ،
وأنمسك الآخر برمي . وعندئذ بدأ القتال في الحال . فوجد الذي تسلح
بالقوس أنها لا تجديه نفعا لأن العدو كان على مسافة قريبة جدا لا تستمع
باستخدام القوس . أما المجوس الآخر فقاتل برمي قتالا عنيفا فجرح
اثنين من السبعة . أصاب أبوابينيس في ساقه ، وانتافيرنيس في عينيه .
بيد أن جرح انتافيرنيس لم يكن قاتلا . ومع ذلك فقد كلفه فقد بصر تلك
العين . فلما رأى المجوس الآخر أن قوسه عديمة الجدوى ، جرى هاربا
إلى حجرة توصل إلى دار الذكور ، وأراد أن يقفل الباب خلفه . غير أن
اثنين من السبعة دخلوا معه ، وهما داريروس وجوبرياس . فأمسك هذان
الأخير بالمجوس وتصارع الاثنان على الأرض بينما وقف فوقهما داريروس
حائرا لا يدرى ماذا يفعل إذ كان الظلام حالكا فسألته جوبرياس : « فيم
كسل يدك يا هذا » قال : « أخشى أن طعنـتـ أـصـحـبـكـ بـأـذـىـ » . فقال
جوبرياس : « اضرب ولا تخش شيئا حتى لو أصابت الضربة كلينا » .
فهوى داريروس بخجره ، ولحسن الحظ قتل المجوسى .

هكذا قتل المجوسين . فقطع السبعة رأسـهـماـ وـتـرـكـواـ جـرـيـحـهـماـ
في القصر ، لأنهما عجزا عن السير ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لكي
يحرسـاـ القـلـعـةـ . وـخـرـجـواـ مـنـ الـأـبـوـابـ يـحـمـلـونـ الرـأـسـينـ فـيـ أـيـدـيـهـمـ ، وـهـمـ
يـصـيـحـونـ مـحـدـثـيـنـ جـلـبـةـ وـصـخـبـاـ . فـصـاحـوـاـ يـعـبـرـونـ الفـرـسـ باجـتمـاعـهـمـ
وـمـاـ أـسـفـرـ عـنـهـ ذـلـكـ الـاجـتمـاعـ ، وـأـبـرـزـواـ لـهـمـ رـأـسـيـ المـجـوسـينـ . وـفـيـ نـفـسـ
الـوقـتـ ، أـخـنـوـاـ يـقـتـلـوـنـ كـلـ مجـوسـيـنـ ، وـجـدـواـ مـنـ الصـوـابـ أـنـ يـقـتـلـوـاـ
بـمـاـ فـعـلـهـ السـبـعـةـ ، وـعـرـفـواـ خـدـاعـ المـجـوسـيـنـ ، وـجـدـواـ مـنـ الصـوـابـ أـنـ يـقـتـلـوـاـ
بـالـمـثـلـ الـذـىـ قـدـمـ لـهـمـ . فـاسـتـلـواـ خـنـاجـرـهـمـ وـأـعـمـلـواـ التـقـتـيلـ فـيـ المـجـوسـ أـيـتـماـ
وـجـدـوـهـمـ . هـكـذاـ كـانـ هـيـاـجـهـمـ . وـلـوـ لـمـ يـخـيمـ الـلـيـلـ بـظـلـامـهـ عـلـىـ الـكـوـنـ لـمـ
يـبـقـىـ هـنـاكـ مجـوسـيـ واحدـ عـلـىـ قـيـدـ الـحـيـاةـ . هـذـاـ ، وـلـاـ يـزـالـ الفـرـسـ جـمـيـعاـ
يـحـافـظـونـ عـلـىـ ذـكـرـيـ هـذـاـ الـيـوـمـ ، وـيـحـتـفـلـوـنـ بـهـ أـكـثـرـ مـنـ أـيـ يـوـمـ آـخـرـ فـيـ
الـسـنـةـ كـلـهاـ . أـصـبـحـتـ هـذـهـ الذـكـرـيـ عـيـداـ عـظـيـماـ يـسـمـونـهـ « عـيـدـ قـتـلـ
المـجـوسـ » ، وـلـاـ يـجـرـؤـ أـيـ مجـوسـيـ عـلـىـ الخـرـوجـ مـنـ بـيـتـهـ طـيـلـةـ هـذـاـ الـعـيـدـ ،
بـلـ يـبـقـىـ بـمـنـزـلـهـ الـيـوـمـ كـلـهـ .

بعد مضي خمسة أيام على هذا الحادث ، وقد سكن الهياج ، اجتمع المتأمرون معاً ليتشاوروا في مصير الاحوال اذ ذاك . فألقيت الخطب في ذلك الاجتماع . ولم يؤمن الاغارقة بصحة ما ورد في كثير من تلك الخطب ، ولكنها برغم هذا قد ألقىت . وأشار أوتانيس باسناد ادارة الشئون العامة الى الشعب بآجتمعه . فقال : « أما عن نفسي ، فيبدو لي أن من الصواب الا نسلم مقاليد حكمنا الى شخص واحد – فليس حكم الفرد صالحًا ولا سارا . انكم لا تنسون الى أي حد ذهب قمبيز في كبرياته وطغيانه ، كما لا تنسون غطرسة هذين المجرسيين التي لستم بها أنتم بأنفسكم . أما حكم الكثرة فيمتاز أولاً بأجمل الأسماء وهو : « حكومة السلطات التكافئة » وفضلاً عن هذا ، فهو بعيد عن كل الحماقات التي يرتكبها الملك المطلق السلطة . وتملاً كراسى الحكم في هذه الحكومة بالاقتراع . فالحاكم مسئول عما يفعله ، والتنفيذ هو كول الى عامه الشعب . وعلى هذا ، أعطى صوتي في جانب الغاء الملكية ورفع الشعب الى مناصب السلطة ، لأن الشعب هو الكل في الكل » .

هكذا كانت احساسات أوتانيس . فقام بعده ميجابوزوس ، وخطب موصياً باقامة الاولى بياركيه أو حكم الاقلية ، فقال : « وأشار اوتانيس في كل ما قاله بالغاء الملكية » ، وانى لا اتفقه في هذا تمام الموافقة . ولكنني لا أرى بوصيته بأن نعهد بالحكم الى الشعب ، خير مشورة . فيما من شيء يخلو من التفاهم . ولا أحد أكثر شروراً من السوقه غير الخاضعين لنظام أو قانون ومن الحماقة غير المحتملة أن يسعى الناس الى الهروب من شرور ملك طاغية ، فيسلموا أنفسهم لشروع الطعام المطبوعين على الفظاظة وعدم الانقياد . فمهما فعل الطاغية فهو على الأقل عالم بما يفعله . أما الرعاع فجهله لا يعرفون شيئاً على الاطلاق . اذ أنى تكون هناك معرفة لدى العوام غير المتعلمين والعديمي الاحساس الطبيعي بما هو صواب ومناسب؟ سرعان ما نجدتهم يندفعون للتدخل في شئون الدولة اندفاع مجرى الماء المفعم بما الشتاء ، وفي تلك الحال يربكون كل عمل . دعوا الديمقراطية تحكم أعداء فارس . أما نحن فلننتخب من بين مواطنينا عدداً من الأكفاء ، ونضع الحكم في أيديهم . عندئذ تكون نحن أنفسنا بين الحكماء؛ وتكون السلطة قد وكلت إلى خير الرجال . والأصلح الأوفق ، هو أن تسود أفضل المشورات حكومة الدولة » .

هذا هو ما نصح به ميجابوزوس . ثم قام بعده داريوس ، فقال : « هنا قد أجاد ميجابوزوس في كل ما قاله عن الديمقراطية على ما أظن . ولكنه لم يحسن الكلام عن حكم الاقلية . فلنأخذ الانواع الثلاثة للحكومات ،

وهي : الديموقراطية ، والوليغاركيه أو حكم الاقلية ، والملكية – ولنفرض أن كل حكومة منها في خير أنظمتها عندئذ لا أرى الا أن تتفوق الملكية على الحكومتين الآخرين . وأية حكومة أفضل من حكومة خير رجل في المملكة كلها ؟ فنصائح هذا الرجل خيرة مثله ، ولذا فهو يحكم جموع الشعب بما يرضي نفوسهم ، وفي نفس الوقت ، تبقى خططه حيال الاشرار في طى الكتمان ، أكثر مما يحدث في نوعي الحكومة الآخرين . ويحدث عكس هذا في حكومة الاقلية حيث يتنافس الاشخاص في خدمة الصالح العام . فيؤدي هذا إلى خلق العادات والاحقاد بين رجل وآخر ، واز يزيد كل منهما أن يكون القائد ؛ وأن ينفذ آرائه . ومن هنا تأتي المذازعات العنيفة ، التي تتطور إلى تشارن سافر غالبا ما ينتهي بسفك الدماء . ومن المؤكد أن تحول الحكومة بعد ذلك إلى الملكية . وعند ذاك تبرهن الملكية على أنها أفضل نظام الحكم . وكذلك الحال في الديموقراطية . فلا بد فيها من سوء الادارة . ييد أن سوء الادارة هذا ، لا يسوق إلى العادات ، بل إلى الصداقات بين أطرافها ، الذين يجب أن يرتبط بعضهم ببعض ارتياطا وثيقا لتنفيذ دناءاتهم . وهكذا تستمر الاحوال على ذلك المنوال حتى يظهر رجل كصديق لعامة الشعب ، ويضرب على أيدي المفسدين . وسرعان ما يعجب الجمود بذلك الرجل ويعينه ملكا . وهكذا الحال هنا أيضا اذ يتضح أن الملكية هي خير أنظمة الحكومات . وأخيرا ، لكي نلخص الموضوع في كلمة ، أسألكم : من أين لنا الحرية التي نتمتع بها ؟ هل منحتنا ايها الديموقراطية أو الوليغاركيه أو الملكية ؟ ولما كان رجل واحد هو الذي أعادلينا حريتنا ، فان حكمى اذن ، هو أن نحافظ على حكم الفرد . وبصرف النظر عن هذا ، يجب ألا نغير في قوانين آبائنا عندما نراها عادلة ، اذ لا يصح أن نحدث فيها تغييرا ما على الأطلاق . »

وهكذا كانت الآراء التي عرضت في ذلك الاجتماع . أما الاربعة الفارسيون الآخرون فأعطوا أصواتهم في صالح الرأي الأخير . فلما رأى أوتانيس ، الذي أراد أن يمنحك مواطنه حكومة ديمقراطية ، أن الأغلبية ضده ، نهض ثانية وقال هكذا أمام المجتمعين : « إخوانى المتآمرين ! من الجلي أن الملك الذى سينتخب ، سيكون أحدنا ، سواء اختير بالاقتراع أو انتخب عامة الشعب هنا من يريدون أن يحكمهم ، أو بأية طريقة أخرى ، وبما أننى لأعتزم أن أحكم أو أحكم ، فلن أرشح نفسي لهذا المنصب . سأنسحب على شرط واحد – وهو ألا يفرض أحدكم سلطاته على أو على أحد من ذريته إلى الأبد » . فوافق السادة الآخرون على هذا الشرط . وانسحب أوتانيس ، ولم يدخل فى المسابقة . ولا تزال أسرة أوتانيس .

الى اليوم ، هى الاسرة الحرة الوحيدة فى فارس ، التى لا يخضع افرادها لحكم الملك الا بحسب اختيارهم . ومع ذلك فمفروض عليهم أن يعملوا بقوانين البلاد شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الفرس .

تشاور الستة معا فى أنساب طريقة لاختيار الملك ، وفيما يختص بأوتانيس . فإذا نال أحد المملكة ، أعطى أوتنيس ونسله من بعده ، فى كل عام كعلامة شرف خاصة ، ثوبا ميديا وغيره من الهدايا المعتبرة أفحى هدايا شرفية فى فارس . قرروا منحه هذه الهدايا لانه أول من فكر فى المؤامرة ، وهو الذى جمع المتأمرين السبعة معا . ولذلك منحت هذه الامتيازات لأوتانيس بصفة خاصة . أما الامتيازات الآتية فهو عامة لمجتمعهم ، وهى : يمنحك كل فرد منهم حرية الدخول الى القصر بغرض اذن ، الا اذا كان الملك مع احدى زوجاته . ولا يسمح للملك بالزواج من أية اسرة خلاف اسرات المتأمرين . أما تعين الملك فيكون بهذه الطريقة : يركب المرشحون الستة جيادهم فى صبيحة اليوم الثالث ، ويخرجون الى ضواحي المدينة ، والذى يصهل جواده اولا بعد ان تشرق الشمس ، يعين ملكا .

كان لداريوس سايس عبد حاد الذكاء اسمه أيباريis . فبعد أن انقض الاجتماع ، أرسل داريوس فى طلبه، وقال له : « اسمع يا أيباريis سينتخب الملك بهذه الطريقة : سنركب جيادنا ، ومن هنا يصهل جواده اولا بعد ان تشرق الشمس ، فهو الذى سيحظى بالمملكة فان كنت ماهرا حقا ، فدبر حيلة يمكن أن تصير بها الجائزة من نصيبنا ، وليس من نصيب الآخرين » . فأجاب أيباريis : « حقا ، يا سيدي . ان كان على هذا يتوقف أن تكون ملكا ، فليطمئن قلبك ولا تخاف شيئا : أعرف تعويذة أكيدة المفعول ولا تخفق اطلاقا» . فقال داريوس : « ان كنت ، حقا ، تعرف شيئا من هذا القبيل ، فأسرع باستخدامه ، لأن المسألة لا تتحمل التأخير فستكون التجربة غدا . فلما سمع أيباريis هذا ، فعل هكذا : عندما أقبل الليل ، أخذ احدى الأفراط ، وكانت أحب فرس الى الجواد الذى سيركبه داريوس ، فربطها فى ضاحية المدينة ثم ساق جواد سيمده الى ذلك المكان . وأخذ يدور به حول الفرس عدة مرات ، مقتربا بالجواد من الفرس فى كل مرة ، حتى التقى الحصان بالفرس أخيرا .

عندما أصبح الصباح ، تقابل الستة معا ، حسب اتفاقهم على ظهور جيادهم ، وركبوا الى الضاحية . فلما اقتربوا من الموضع الذى ربطت فيه الفرس فى الليلة السابقة ، قفز جواد داريوس الى الامام وصهل . وفي نفس تلك اللحظة لمع البرق فى السماء ، اذ كانت السماء

صافية الاديم ! وتبعه قعقة الرعد . . . يبدو أن السماء كانت تتأمر مع داريوس ، وبهذا عينته ملكا . عندئذ قفز النبلاء الخمسة من فوق ظهور جيادهم في وقت واحد ، وانحنوا أمام داريوس ، واعترفوا به ملكا .

عقد داريوس بعد ذلك زيجات من أرقى الطبقات ، تبعاً لآراء الفرس . فتزوج باثنتين من بنات كوروس ، أتوسا وأرتوستونى . وقد سبق لاتوسا أن تزوجت مرتين ، اذ كانت في الاصل زوجة شقيقها قمبيز ، ثم زوجة للمجوسي . أما أرتوستونى فكانت عذراء . كما تزوج بارموس ابنة سميرديس بن كوروس وكذلك بابنة أوتنيس التي اكتنفت سر ذلك المجوسي . ولما توطن سلطان داريوس في جميع أرجاء المملكة ، كان أول عمل قام به هو أن أقام تمثلاً من الحجر يمثل رجلاً على ظهر جواد ، نقشت تحته هذه العبارة : « داريوس بن هوماسبيس ، بمساعدة جواده (وبعد هذه ، اسم الحصان) ، وسايسه الطيب أبيارييس هو الذي مكنه من أن ينال مملكة الفرس » .

أقام داريوس هذا التمثال في فارس ، وبعد ذلك شرع في تكوين عشرين حكومة من النوع الذي يسميه الفرس Satrapies وعين لكل واحدة منها حاكماً وحدد الجزية التي يدفعها مختلف الأمم له .

لما كان الهنود أكثر عدداً من أية أمة نعرفها ، فقد كانوا يدفعون جزية تفوق ما كان يدفعه أي شعب آخر ، وهي تلثمانة وستون تالتنا من تبر الذهب .

ولو حولت الاموال البابلונית إلى نفس هذه الموازين الآيوية ، لبلغت تسعة آلاف وخمسمائة وأربعين من هذه التالنتات . ولو كان الذهب قدر الفضة ثلاثة عشرة مرة ، لبلغ وزن تراب الذهب أربعة آلاف وستمائة وثمانين تالنتاً . وبإضافة هذين المبلغين إلى بعضهما يصير الدخل الذي يصل إلى داريوس سنة بعد أخرى أربعة عشر ألفاً وخمسمائة وستين تالنتاً من النقود الآيوية ، مع اهمال كسور التالنت .

هذا هو الدخل الذي كان داريوس يحصل عليه من آسيا وجزء صغير من ليبيا ويحفظ الملك العظيم الجزية التي يحصل عليها ، بالطريقة الآتية : يصهر الذهب ثم يصبه وهو لا يزال سائلاً في قدور من الفخار . بعد ذلك يتزع القدور تاركاً الذهب كتلتاً صلبة على صورة سبيكة . وعندما يحتاج إلى نقود ، يisks من السبيائك التي لديه بحسب الحاجة .

الفصل الخامس والعشرون

بعض قصص غريبة

هك الطريقة التي يحصل بها الهندو على كميات الذهب الكبيرة ، التي تمكنهم من ارسال تلك الكميات الهائلة من تبر الذهب الى ذلك الملك في كل عام : يوجد في شرق الهند طريق مكون كله من الرمال ، اذ تقع الصحراء الرملية في هذه الجهة من الهند . ويعيش وسط الرمال في هذه الصحراء نوع من النمل الضخم ، يقل حجمه عن حجم الكلب ، ولكنه أكبر من الثعلب . ولدى الملك الفارسي عدد من هذا النمل ، صاده له الصيادون من تلك الأرض التي تتكلم عنها الآن . ويصنع ذلك النمل بيته تحت سطح الأرض . وهو كالنمل الاغريقي الذي يشبهه في الشكل الى حد كبير يخرج أكوااما من الرمل وهو يحفر جحوره . وذلك الرمل الذي يخرجه النمل مملوء بالذهب (١) . وعندما يذهب الهندو الى الصحراء لجمع هذه الرمال ، يأخذون معهم ثلاثة من الابل ويسرجنها معا ، جاعلين ناقة في الوسط ، وجملان ذكران على كل من جانبيها ، ويربطونها في خطام واحد يقودونها به . يجلس الراكب فوق الناقة ويختارون لهذا الغرض ناقة قد وضعت مولودها حديثا ، لأن النياق تستطيع أن تجري بسرعة الحصان ، بينما تحمل أثقالا أكثر مما يستطيع الحصان أن يحمل .
لما كان الاغارقة يعرفون شكل الجمل حق المعرفة ، فلن أتعب نفسي في وصفه . ولكنني سأوضح أشياء فاتتهم ملاحظاتها . ٠٠٠ للجمل في أربلة الخلفية أربع عظام فخذ ، واربعة مفاصل من مفاصل الركبة .
بعد ان يستعد الهندو هكذا ، يخرجون في طلب الذهب . وينسبون

(١) لم تكشف الابحاث الحديثة عن معلومات معقولة سواء بخصوص هذا الحيوان او بخصوص الطابع الذي تنسب اليه وربما كان أقرب حيوان اليه هو آكل النمل الذي يحفر جحوره في السهول الواقعة شمالي الهند .

الوقت بالضبط بحيث يجتمعون الذهب في أشد ساعات القيلط حرارة ، تلك التي يختفي فيها النمل هربا من الحر . وتكون حرارة الشمس ، في تلك البقاع ، على أشدتها في الصباح " وليس في وقت الظهيرة كما هو الحال في أي مكان آخر . وتبعد الحرارة أقصاها منذ أن تصل الشمس إلى ارتفاع معين في كبد السماء ، حتى الساعة التي تقفل فيها السوق أبوابها . في تلك الفترة تكون حرارة الشمس أقسى مما هي في بلاد الأغريق ظهرا ، حتى ليقال إن القوم يبلون أنفسهم بالماء في ذلك الوقت من النهار . أما في الظهر ، فحرارة الشمس مثل الهند مثل حرارتها في غيرها من المالك . وبينما يقترب النهار من الغروب ، تكون الحرارة مساوية لحرارة الشمس في الصباح في البلاد الأخرى . ثم تزداد برودة الجو كلما اقترب المساء حتى يصل شديد البرودة .

عندما يصل الهند إلى موضع الذهب ، يملئون (الزكائب) بالرمال ثم يركبون الجمال عائدين بأقصى سرعة ومع ذلك ، فإن النمل يسم رائحتهم ، كما يقول الفرس " ويندفع خارجا من جحوره لمطاردتهم . ويقولون إن النمل يجري بسرعة لا يباريه فيها أي حيوان آخر في العالم كله . وإذا لم يسرع الهند ويقطعوا مسافة طويلة قبل أن يصل النمل إليهم ، فيما من جامع ذهب يستطيع أن يفلت من أذاء . وفي أثناء الفرار ، تشعب ذكور الأبل التي ليست في سرعة اناثها " وتببدأ تجر أرجلها جرا . يفعل هذا ، أولا ، أحد الجملين " ثم يليه الجمل الآخر . أما الانثى فتتذكرة صغيرها الذي تركته وراءها " فلا تبطئ أو تكل . هذه هي الطريقة التي يحصل بها الهند على معظم كميات الذهب ، تبعا لرواية الفرس . أما الجزء الباقي فيستخرج من باطن الأرض حيث يوجد بكميات قليلة .

يبدو أن الطبيعة تحابي الأقطار النائية من الأرض فتمنحها أبهى المحاصيل كما حبت بلاد الأغريق يجعلتها تتمتع بجو معتدل أروع مما تتمتع به أية بلاد أخرى . وكما لاحظت أخيرا ، توجد بالهند أقصى بقاع مأهولة إلى جهة الشرق . وجميع حيواناتها ذات الأربع وظيفتها أكبر من مثيلاتها في أي مكان آخر ، ما عدا الحيوان فقط ، إذ تتفوق عليها الحيوان الميدية المعروفة « بالنيسانية » كما أن الذهب يستخرج هناك بكميات وافرة ، فيستخرج بعض منه من جوف الأرض ، وبعض يؤخذ من الرمال التي تقدفها الانهار . كما يؤخذ بعض آخر بالطريقة التي ذكرناها . وزيادة على هذا ، تنمو بالهند أشجار بريمة تنتج صوفاً أجمل من صوف الأغنام . ومن هذا الصوف النباتي يصنع الأهالي ملابسهم (1) .

(1) شجرة الصوف هي الاسم الالماني للقطن .

أما بلاد العرب فهي آخر بلاد مسكونة إلى جهة الجنوب . وهي البلاد الوحيدة التي تنتج اللبان الذكر والمر المكى وخيار الشنبر والقرفة والافيون ولا يحصل العرب على كل هذه الأشياء ، باستثناء المر المكى ، الا بشق الأنفس . فيحصلون على اللبان الذكر بوساطة صنع الجاوي الذي يأخذه الغريق من الفينيقيين ، ويحصل هؤلاء بدورهم على (البهارات) بدلا منه . وذلك لأن الأشجار التي تنتج اللبان الذكر تحرسها حيات مجنة صغيرة الحجم مختلفة الألوان . وتندلى من كل شجرة أعداد كبيرة من هذه الأفاعى . وهي من نفس نوع الثعابين التي تغزو مصر . ولا شيء يمكن أن يطرد هذه الحيات المجنة عن أشجار اللبان الذكر سوى دخان الجاوي .

يقول العرب ، إن الدنيا كلها ستمليء بهذه الحيات إذا لم يسيطر على تكاثرها بالطريقة التي يسيطر بها على تكاثر الثعابين العادية . والحقيقة ، أن القدرة الإلهية هي أحدي القوى التي يمكن للمرء أن يتوقعها من قبل . وانها لذات تدبير حكيم . فان الحيوانات الضعيفة المتصفة بالجبن ، والتي تقع فريسة لغيرها ، تلد صغارها بوفرة زائدة حتى لا ينقرض نوعها بسبب الاعداد الكبيرة التي تأكلها الحيوانات الأخرى منها . في حين تجد نتاج الحيوانات المفترسة قليلا . فالارانب مثلا ، التي تصيدها الوحوش والطيور والانسان ، كثيرة النسل ، بحسب تتفوق في هذه الناحية على أي حيوان آخر . ففي وقت واحد ، تجد في بطنه الارنب بعض الصغار المكسوة تماما بالفراء ، وبعضا آخر عاري تماماً ، وبعضاً كاملا التكواين في رحمها ، في حين تكون قد حبت من جديد بعد أن تكونت هذه الصغار في بطنه ولم تولد بعد . أما البؤة التي هي من أقوى وأجرأ الوحوش ، فلا تلد إلا مرة واحدة طول حياتها ، وتلد شيئاً واحداً ليس غير ، ولا تتحبل بعده اطلاقا ، اذ تفقد رحمها في نفس الوقت الذي تلد فيه صغيرها . والسبب في هذا أنه بمجرد أن يبدأ الجنين في التحرك داخل الرحم يخدش جدار الرحم بمخالبه التي تفوق في حدتها مخالب أي حيوان آخر . وبمرور الوقت ، يكبر الجنين ويستمر في تمزيق الرحم أكثر فأكثر ، حتى انه عندما يولد أخيراً لا تكون في الرحم قطعة واحدة سليمة .

نعود ثانية إلى الأفاعى والحيات المجنة في بلاد العرب . فلو تكاثرت بسرعة التي تسمح لها الطبيعة بها ، لما استطاع رجل واحد أن يبقى على وجه الأرض . بيده أنه عندما يجتمع الذكر بالأنثى " تقبض الانثى على الذكر من رقبته في نفس لحظة الحمل . وما أن تمسك به حتى لا يستطيع الفكاك من قبضتها ، اذ تعض رقبته ولا تتركها الا بعد أن تقطعها . وهكذا يموت الذكر غير أنه بعد مدة وجيزة تنتقم الصغار للأم ، اذ تشق

لنفسها طريقاً داخل الرحم وهي لم تولد بعد ثم تشق لنفسها طريقاً آخر خارج بطن أمها . وبذا تخرج صغار الثعابين الى العالم . وهناك حيات على عكس هذا ، وهي المحيات غير السامة ، التي تضع بيضاً يفقس عدداً كبيراً من الصغار . وتوجد الثعابين في جميع بقاع العالم ، أما المحيات المجنحة فلا توجد في أي مكان غير بلاد العرب حيث تجتمع معاً ، وبذا تبدو كثيرة العدد .

هذه هي الطريقة التي يحصل بها العرب على اللبان الذكن . أما طريقتهم في جمع خيار الشنبر فهي : يكسون جميع أجسامهم ووجوههم بجلود الشiran أو بأي نوع آخر من الجلد ، ولا يترك كل منهم إلا فتحتين لعينيه ، ثم يخرجون في طلب خيار الشنبر الذي ينمو في بحيرة غير بالغة العمق . وتزخر هذه البحيرة وشواطئها بالهوا وذوات الأجنحة التي تشبه الحفافيش إلى حد كبير ، والتي تنقض بفطاعة وبجرأة على فريستها لتنمزق جسمها بمخالبها . وينبغى على العرب ، اذن ، أن يبعدوا هذه الحيوانات عن عيونهم طول الوقت الذي يجمعون فيه خيار الشنبر .

أما الطريقة التي يحصلون بها على القرفة فأغرب من هذه . فهم لا يعرفون أين تنمو أشجار القرفة ، ولا أى المالك تنتجهما – غير أن البعض يجري وراء الاحتمالات ويرى أنها تأتي من البلد الذي تربى فيه باخوص . يقولون أن طيوراً ضخمة تحضر تلك العيدان التي نسميتها ، نحن الإغارة . « القرفة » ، تبعاً للاسم الذي يطلقه عليها الفينيقيون . تحملها عالياً في الجو لتبني بها عشاشها . فتلتصقها ببعضها بنوع من الطين ، إلى حافة صخرة عالية لا تستطيع قدم انسان أن تتسلق إليها . وعلى هذا ، فلكي يحصل العرب على القرفة ، يلجهتون إلى هذه الحيلة : يجمعون كل الشiran والحمير ودواب الحمل الأخرى التي تنفق في بلادهم ، ويقطعون أجسامها قطعاً كبيرة ، يحملونها معهم إلى تلك البقاع ، ثم يضعونها قريباً من العشاش ، ويسحبون إلى مسافة بعيدة . وعندئذ تنقض الطيور الكبيرة ، وتقبض على قطع اللحوم وتقع على الأرض . وحينئذ يرجع العرب فيجمعون القرفة التي تصدر بعد ذلك من بلاد العرب إلى الدول الأخرى .

الفصل السادس والعشرون

داريوس

من بين السبعة الفرسن الذين ثاروا ضد المجوسي ، فقد انتافيرنيس حياته بسرعة عقب تلك الثورة بسبب عمل من أعمال الواقحة . فقد رغب ذات يوم في أن يدخل القصر لاتمام عمل ما مع الملك . وكان القانون ينص على السماح لكل فرد من اشتراكوا في الثورة ضد المجوسي بأن يدخل القصر بغير استئذان ، الا اذا كان الملك في خلوة مع احدى زوجاته . وعلى ذلك لم يكن انتافيرنيس بحاجة الى أن يطلب الاذن له بالدخول الى القصر، اذ بصفته أحد السبعة ، يحق له أن يدخل بغير استئذان . ولكن بالرغم من هذا ، رفض الحاجب ورئيس الحجاب السماح له بالدخول ، بحجة أن الملك كان مع زوجته . غير أن انتافيرنيس ظنها يكذبان عليه ، فاستغل مديته وقطع بها أنفيهما وآذانهما⁽¹⁾ . وعلقهما في جام حصانه ، ووضع اللجام حول رقبته ، ثم تركهما .

دخل هذان الرجالان على الملك بحالتهما تلك ، وذكر له كيف حدث ذلك لهما . فاضطر داريوس خشية أن يكون هذا قد حدث باتفاق الزملاء الستة فأرسل في طلب كل واحد منهم على انفراد ، وسألهم عما اذا كانوا قد وافقوا على سلوك انتافيرنيس . فلما علم من اجاباتهم أنه لم يحدث قط أى اتفاق بينه وبينهم ، قبض على انتافيرنيس وأولاده وجميع أقربائه القربيين ، اذ اشتبه في أن يكون هو وأصدقاؤه على وشك القيام بفتنة . فلما قبض عليهم جميعا ، وقيدوا بالسلاسل كعاشبين بالامن محكم عليهم بالاعدام ، ظلت زوجة انتافيرنيس تذهب الى باب القصر ، وتقف

(1) كانت طريقة العقاب هذه شائعة في الشرق . ويدرك جميع القراء كيف طبقها افراد سببوا الثأرون على مواطنينا ومواطناتنا في عام ١٨٥٧ .

هناك باستمرار ، وتبكي من البكاء . فلما أبصر داريوس أنها لا تكف عن البكاء أمام يابه ، أخذته الشفقة عليها . فبعث إليها رسولا يقول لها : «أيتها السيدة ، إن الملك يمنحك ، هدية منه ، حياة أحد أقاربك فاختارى من تريدينه من المقبول عليهم » . ففكرت مليا قبل أن تجيب ، ثم قالت : « اذا كان الملك يرغب في أن يهب لي حياة شخص واحد فقط ؛ فاتني اختياري أخرى » . فلما بلغ الملك ردها ، دهش وأرسل إليها ثانية ، يقول : «أيتها السيدة ؟ إن الملك ليطلب منك أن تخبريه ؟ لماذا تركت زوجك وأولادك ، وفضلت عليهم أخاك لتنقذيه من الموت ؟ انه ليس أقرب إليك من أولادك ولا أعز من زوجك » . فأجبت : « أيها الملك ، اذا شاعت الالهة حصلت على زوج آخر وعلى أولاد آخرين بعد موتي هؤلاء . ولكن بما أن أبي وأمي ليسا على قيد الحياة ، فمن المستحيل أن أحصل على آخر آخر . كانت هذه فكرتى عندما اخترت انقاد حياة أخرى » . فبدا لداريوس أن هذه السيدة قد فكرت تفكيرا حكيمـا ، فمن بعها علاوة على حياة أخيها ، حياة ابنها الأكبر ؛ اذا سر منها غاية السرور . ولكنه قتل جميع الباقيـن . وهكذا مات أحد السبعة بالطريقة التي ذكرناها ، بعد الثورة بمدة وجيزـة .

حدث ذات مرـة ، عندما قفز الملك داريوس من فوق ظهر جواده ، أن التوت قدمـه ؟ فسبـب له هذا الالتواء ألمـا بالـغ القسوـة ، اذ خرجـت عـظمة المفصل من موضعـها . وكان فى بلاط الملك بعضـ من الاطباء المصريـين الذين يعتبرـهم داريوس أمهـر أطبـاء العالم . وعلى هذا لما الى مساعدـتهم . بـيد أنـهم لـووا قـدمـه بـطريـقة فـطـيـعة ، واستـخدمـوا معـه منـتهـى العـنـفـ حتى زـاد الـأـلـمـ قـسـوـة . فـظلـ الملك سـبـعة أيام وـسبـع ليـالـ لاـيـدـوقـ للـنـوـمـ طـعـماـ اـذـ كانـ يـعـانـى أـلـمـ مـبـراـحاـ . وـفـىـ الـيـومـ الثـامـنـ لـبـلـوـاهـ كانـ أـحـدـ الفـرسـ قدـ سـمعـ قـبـلـ مـبارـحتـهـ سـارـديـسـ عـنـ مـهـارـةـ الطـبـيبـ دـيمـوكـيـدـيسـ الـكـرـوـتـونـيـ فـأـخـبـرـ دـارـيـوسـ بـأـمـرـهـ ، وـعـنـدـ ذـلـكـ طـلـبـ دـارـيـوسـ اـحـضـارـهـ إـلـيـهـ بـغـايـةـ السـرـعـةـ . فـلـمـ وـجـدـهـ مـنـ ذـهـبـواـ لـاحـضـارـهـ ، بـيـنـ عـبـيدـ أـورـويـتـيسـ مـهـمـلاـ ؟ أـحـضـرـوهـ إـلـيـ دـارـيـوسـ بـحـالـهـ التـىـ كـانـ عـلـيـهـ ، يـرـسـفـ فـىـ الـأـغـلـالـ ، وـيـرـتـدىـ أـسـمـالـ بـالـيـةـ .

ما ان مثل ديموكيديس بين يدي الملك حتى سـأـلـهـ عـماـ اـذـ كـانـ يـعـرـفـ الطـبـ . فـأـجـابـ بـقـولـهـ : « كـلاـ ، يا مـولـاـيـ » . اـذـ خـشـىـ اـنـ هوـ اـعـلـمـ عـنـ نـفـسـهـ اـنـ يـفـقـدـ كـلـ أـمـلـ فـىـ روـيـتـهـ بـلـادـ الـأـغـرـيقـ ثـانـيـةـ . وـبـرـغـمـ هـذـاـ ؟ فـقـدـ أـدـرـكـ دـارـيـوسـ اـنـ هـذـاـ الرـجـلـ يـسـتـخـدـمـ الـدـهـاءـ ، وـأـنـهـ يـعـرـفـ الطـبـ حـقـيـقـةـ . فـأـمـرـ

من جاءوا به بأن يحضروا إليه السياط وأسياخ الكى (١) وعند ذلك اعترف ديموكيديس ؟ ولكنه قال في الوقت ذاته إن معرفته بالطب ليست شاملة . لقد عاش زماناً ما مع أحد الأطباء ، وبذا ألم بعض الشيء بهذا الفن . ومع ذلك فقد عهد داريوس بنفسه إلى ذلك الطبيب . فاستخدم ديموكيديس الأدوية الشائعة لدى الاغارقة . واستبدل الطرق العنيفة التي كان يستعملها المصريون بطرق أخف . وبهذا مكن الملك ، أولاً من أن ينال قسطاً من النوم ؛ ثم بعد وقت قصير جداً شفى داريوس شفاء تاماً ، بعد أن كان قد قطع الأمل في أن يستخدم قدمه تلك مرة أخرى . وعلى ذلك قدم الملك لديموكيديس قيدين مصنوعين من الذهب . وعندئذ بحث ديموكيديس عما إذا كان يعني بهذا مضاعفة آلامه نظير المعاذه صحته إليه . فسر داريوس من كلامه ، وأمر خصيانته بأن يصحبوا ديموكيديس ليرى زوجاته . ففعل الخصيان ما أمرهم به الملك ، وأخبروهن جميعاً بأن هذا هو الرجل الذي أنقذ حياة الملك . وبعد ذلك أخذت كل زوجة طبقاً وصارت تغرف به من صندوق مليء بالذهب ، فتقديم ما فيه إلى ديموكيديس الذي حصل على أموال كثيرة أيماناً كثرة ، لدرجة أن عبداً يدعى سكيتون كان يسيراً وراءه ويجمع النقود الرسمية (٢) التي كانت تسقط من الأطباق . فجتمع بهذا كومة كبيرة من الذهب .

بعد أن عالج ديموكيديس داريوس في سوسا ، أقام هناك في بيت كبير . وكان يتناول طعامه يومياً على مائدة الملك . ولم يفتقر قط إلى شيء يشتهيه قلبه غير الحرية في أن يعود إلى وطنه . وقد تشفع لدى داريوس للأطباء المصريين الذي عالجو الملك قبل مجئه ، فأبقى على حياتهم بعد أن كانوا على وشك الاعدام وخزاً بأمسنة الحراب ، لأن طبيعياً أغريقياً تفوق عليهم . وبعد ذلك ، تمكّن من إنقاذ حياة عراف إيليانى كان مهملاً اهتماماً ذريعاً بين العبيد بعد أن تنبأ بحظ بوليقراط وبالاختصار ، بلغ ديموكيديس متزلة لدى داريوس لم يبلغها أى شخص سواه .

وزيادة على ما تقدم ، فيبعد وقت قصير ، حدث أن أصيبت أتوسا ، ابنة كوروس التي تزوجت داريوس ؛ بدمel فوق ثديها . فأخذ الدمل

(١) كان فقاً العين مقابلاً فارسياً في الأزمنة القديمة كما هو كذلك في العصور الحديثة .

(٢) نفهم من كلمة « النقود الرسمية » أنها كانت الدريرات التي يسميها هيرودوت في مواضع أخرى ، « الدريرات الرسمية » وكانت قيمتها تقرب كثيراً من قيمة العملة الرسمية الرئيسية المتداولة في بلاد الاغريق .

يتسع ويكبر بعد أن انفجر . ولما كان الدمل في بدء ظهوره صغيرا ، أخفته أتوسا بدافع الحياة ، ولم تخبر به أحدا . ولكنها لما رأت حاله قد ساعت ، لم تجد بدا من أن ترسل إلى ديموكيديس . فلما جاءها أطلعته على الحرج . فقال لها إن بوسعه أن يعالجها على شرط أن تعوده أولا ، بقسم ، بأن تمنعه كل ما يطلبه . وأكده لها أن طلبه لن يكون شيئا تخجل لسماعه .

بهذه الشروط أخذ ديموكيديس يعالج أتوسا وسرعان ما شفيت الحرج . ولما أصغت إلى طلبه ؛ تحدث ذات ليلة إلى داريوس بالحديث التالي :

« ييدو لي غريبا ، يامولاي ، مع كل بأسك وسلطانك ، إنك تقضى الوقت بغير عمل ؟ ولا تقوم بأية غزوات ؟ ولا توسع سلطان الفرس . وأعتقد أن رجلا صغير السن مثلك ، واسع الشراء ، يجب أن يقوم بعمل نبيل ليبرهن للفرس على أن من يحكمهم رجل . كما أن هناك سببا آخر يدعوك إلى القيام بعمل ما . ليس فقط لأنه مما يليق بك أن تثبت للفرس أن من يحكمهم رجل ، بل وكذلك من أسباب سلامتك أن تنهك قواهم في الحروب لثلا تدفع البطالة الجنود إلى التآمر ضد سلطانك . والآن ، وأنت لا تزال في شرخ الشباب ، تستطيع القيام ببعض الفتوحات . في بينما تنموا قوة الجسم ، ينضج العقل أيضا . وعندما يشيخ الجسم تأخذ القوى العقلية في الذبول ، حتى تهبط تماما » .

هكذا تكلمت أتوسا تبعا لما لقنتها آياته ديموكيديس . فرد عليه داريوس بقوله : « أيتها السيدة العزيزة . لقد تكلمت بنفس ما كان يجعل بخلدي . اتنى أزمع اقامة جسر يصل بين القارتين ، وبذا أقوم بمحاربة سکوثيا . ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى يتم كل شيء كما ترغبين » . غير أن أتوسا استطردت تقول : « اعلم يا سيدي أنه من الحير ارجاء الحرب مع سکوثيا بعض الوقت لأنه من الممكن هزيمة السکوثيين في أي وقت ؛ أرجو يا سيدي ؛ أن تقود جيوشك أولا إلى بلاد الأغريق . فاني أتوق إلى أن تخدمني بعض الفتيات اللاكيديايمونيات اللائي سمعت عنهن الشيء الكثير . كما اتنى أرغب في نساء أرجوسيات واثينيات وكورنثيات . يوجد في بلاطك الآن رجل بواسعه أن يخبرك ، وهو خبير من أي فرد آخر في العالم كله ، بجميع ماتريد معرفته عن بلاد الأغريق . كما أن بوسعه أن يكون مرشدنا ، وانى لأقصد ذلك الرجل الذى عالج قدمك » .

فأجاب داريوس بقوله : « زوجتى العزيزة ؛ بما أن رغبتك هي أن تجرب أولا قوة الاغارقة ؛ أرى من الاوفق قبل المسير اليهم ؛ أن ترسل

أولاً بعض الفرس للتجسس ومعرفة أحوال تلك البلاد . ومن الممكن أن يذهبوا إلى هناك بصحبة ذلك الرجل الذي تذكرنيه . وبعد أن يروا ويعرفوا كل شيء ، يمكنهم العودةلينا وتقديم تقرير شامل عن كل ما هناك . وبعد أن ألم بجميع أحوال الأغارة ، أبدأ بمحاربتهم » .

بعد ذلك حاصر الملك داريوس ساموس واستولى عليها . فكانت أول مدينة غزاها ، من جميع المدن الأغريقية والبابلية . والسبب الذي جعله يغزو ساموس ، هو أنه عندما سار قمبيز بن كوروس لغزو مصر ، اجتمعت هناك أعداد غفيرة من الأغارة : بعضهم لترويج تجارتة ؛ وبعض آخر ليخدم في الجيش ، وأخرون لمجرد مشاهدة تلك البلاد . وكان من بين هؤلاء الآخرين سولوسون بن أبيكيس وشقيقه بوليقراط . وكان في ذلك الوقت منفياً من ساموس . وحدث أن التقى سولوسون هذا ؟ ابن اقامته في مصر بضربة سعيدة واحدة من ضربات حسن الخط . تصادف أن كان يرتدي في أحد الأيام عباءة حمراء وهو ذاهب إلى ميدان السوق بمدينة ممفيس . فرأاه داريوس ؛ الذي كان وقتذاك أحد رجال حرس قمبيز ، ولم يكن ذا شأن يذكر . فتاقت نفس داريوس ، واجتاحته رغبة ملحة في الحصول على هذه العباءة . فذهب إلى سولوسون وعرض عليه أن يشتريها منه . فأدرك هذا الأخير لهفة داريوس إلى العباءة ، وأوحى إليه حظه الحسن ، أن يرد عليه بقوله : « لا يوجد شيء في هذا العالم كله يمكن أن أبيع عباءتي من أجله ، ولكنني سأمنحك أيها بغير مقابل ، طالما أنك راغب فيها إلى هذه الدرجة » فشكراً داريوس ؛ وقبل العباءة منه .

أحسن سولوسون المسكين أنه خدع في عياته وتخل عندها بغاية البساطة . غير أنه بعد ذلك ، عندما توفي قمبيز ؛ وقام السبعة بثورتهم ضد المجنوسي ، وكان داريوس هو الرجل الذي وقع عليه الاختيار من بينهم ليحكم المملكة ، علم سولوسون أن الرجل الذي ليس تاج فارس هو ذلك الحراس الذي اشتهرت به مصر ، وأنهما بغير مقابل وعلى ذلك سافر إلى سوسا . ولما صار أمام باب القصر الملكي ، أخبر الحاجب بأنه رجل له فضل على الملك (١) . فذهب الحاجب إلى داريوس وأخبره بالأمر فدهش داريوس لما سمع ، وقال في نفسه : « أي أغريق يمكن أن يكون صاحب فضل على ؟ أو من منهم يديننى بشيء بعد أن صرت ملكاً ؟ من النادر أن كان

(١) ذوق الفضل على الملك ، جماعة من الأشخاص ، سجلت أسماؤهم رسمياً في الأرشيف الملكي . ويطلب سولوسون بوضع اسمه في ذلك السجل .

أحد منهم هنا . لم يكن هنا سوى رجل أو اثنين منذ أن ارتقىت إلى العرش كما أتنى لا أذكر إن مدین بشيء لاي اغريقي . وعلى أية حال ، أحضره إلى هنا لاسمع منه ماذا يقصد بهذا الزهو . وعلى ذلك ، أدخل الحاجب سولوسون إلى حضرة داريوس ، وسأله المترجمون عن شخصيته ؛ وماذا فعل حتى يقول انه ذو فضل على الملك . فروى سولوسون قصة العباءة كلها ، وقال أنه هو الذي قدم الهداية لداريوس . عندئذ صاح داريوس متعجبا : « مرحبا ، بأكرم الرجال . أحقا أنت هو الذي أعطاني شيئا ، مما كان صغيرا ؟ وأنا غير ذي سلطان على الاطلاق ؟ حقا ؟ إن معروفك لعظيم كأعظم هدية تقدم إلى اليوم . ولهذا ساعطيك في مقابلة ذهبها وفضة بغير حساب ، حتى لا تندم قط على أنك قدمني خدمة لداريوس ابن هوستاسيسيس » . فأجاب سولوسون بقوله : « لا تعطني ذهبها ولا فضة ، أيها الملك ، وإنما أريد أن تستعيدي لساموس ، مسقط رأسي ، واجعلها هديتك لي . إنها الآن ملك لأحد عبيدين الذي صار حاكما بعد أن قتل أورويتيس أخي بوليقراط . أتوسل إليك أن تهبني ساموس ، وإن تهبني إياها سليمة دون اراقة دماء ولا أسر » .

فلما سمع داريوس كلامه هنا ، أرسل جيشا بقيادة أوتانييس ؛ أحد السبعة ؛ وأمره بأن يحقق جميع رغبات سولوسون .

الفصل السابع والعشرون

ثورة بابل

بعد أن أفلح جيش أوتانيين قاصدا ساموس ؛ تمرد البابليون ؛
اذ أعدوا جميع وسائل الدفاع طيلة الوقت الذي كان الم gioسى فيه ملكا ،
والوقت الذي تأمر فيه السبعة . فانتهزوا فرصة القلاقل واستعدوا
لمقاومة المصادر . وتصادف أن تم كل ذلك في الحفاء دون أن يرى أحد ماذا
كانوا يفعلون . وأخيرا ، لما حان وقت اعلان تمردهم ؛ فعلوا هكذا : بعد
أن وضعوا أمهاائهم جانبا ، اختار كل رجل امرأة واحدة من كل أسرة . أية
امرأة أعجبته . وهؤلاء فقط هن اللائي سمح لهن بالبقاء على قيد الحياة ،
في حين جمعت سائر الباقيات في مكان واحد وشنقهن . أما النساء اللاتي
وقع عليهن الاختيار فاحتفظ بهن ليصنعن الخنز للرجال ، في حين شنقن
الآخريات كيلا يستهلكن المئونة المخزونة .

لما بلغ داريوس نبأ ما حدث هناك ، جمع كل قواته وبدأ الحرب
بالمسير فورا صوب بابل ، وألقى حولها الحصار . بيد أن البابليين لم
يهموا بهذا الحصار قيد شعرة . فصعدوا إلى الأبراج التي تعلو أسوارهم ،
وأخذوا يسخرون من داريوس ومن جيشه القوى . وبلغت الجرأة بأحدهم
أن صاح بأعلى صوته قائلا لهم : « مافائدة جلوسكم هناك هكذا ، أيها
الفارسيون ؟ لم لا ترجعون إلى دياركم ؟ لن تأخذوا مدينتنا حتى تلد
البغلة ، هذا ما قاله رجل بابل كان يظن أن البغلة لاتلد اطلاقا » .

بعد أن مررت سنة وسبعين شهور ، مل داريوس وجيشه البقاء خارج
أسوار بابل اذ وجدوا أنهم لن يستطيعوا الاستيلاء على المدينة بأية حال
من الاحوال . لقد استخدمو جميع الطرق الاستراتيجية ، وكل الفنون .
ولكن الملك لم يستطع الاستيلاء عليها ، ولا حتى عندما حاول
استعمال الطريقة التي استولى بها كوروس على تلك المدينة ، كان البابليون

في غاية اليقظة هذه المرة ، ولم يجد داريوس وسيلة قط يمكنه بها أن يهزهم . وأخيرا ؛ في الشهر العشرين من بدء الحصار ؛ حدث أمر غريب لزوبوروس بن ميجابوزوس ، الذي كان من بين السبعة الذين قضوا على المحوسى لقد ولدت أحدى بغال الحمل التي يملكها ؛ وضعت جحشا . فلما أسرع الحدم بابلاغ زوبوروس بهذا الخبر ، لم يصدقهم في أول الامر ، وذهب فشاهد الجحش بعيني رأسه . عندئذ أمر خدمه بأن يكتموا الامر ولا يخبروا به أحدا على الاطلاق ، في حين أخذ يفكر هو نفسه في ذلك الحدث الغريب . فنذكر كلام الرجل البابلي عندما بدء بالحصار ، اذ قال : « لن تأخذ المدينة حتى تلد البغالة » . تذكر هذه العبارة وهو غارق في تفكيره ، واعتقد أن الممكن أن تسقط بابل بعد ذلك . اذ بدا له أن قوة الهيبة هي التي جعلت ذلك الرجل ينطق بتلك العبارة . والآن ، قد ولدت بخلته .

وما أن أحس زوبوروس ، في قرارته نفسه ، بأنه قادر لبابل ان تسقط حتى انطلق الى داريوس وسأله عما اذا كان يهمه كثيرا أن يغزو هذه المدينة . فلما رأى أن داريوس يضع أهمية عظمى حقا على هذا الغزو ، أخذ يفكر في نفسه من جديد ، كيف يتسلى له أن ينسب فضل هذا الغزو لنفسه ، ويكون هو الرجل الذي يستولى على بابل .

يقدس الفرس الاعمال النبيلة ويرفعون فاعلها الى أقصى درجات العظمة وعلى هذا ، طرق زوبوروس يفكر ، ويقلب في ذهنه جميع الوسائل التي يمكنه بها الاستيلاء على تلك المدينة . فلم يجد وسيلة ما ؛ يمكن أن تنفع ، الا اذا شوه نفسه وذهب الى العدو . فإذا ألغى هذا أمرا سهلا ، شوه نفسه بطريقة لا يجد فيها علاج قط ؛ لانه جدع أنفه ، وقطع أذنيه؛ وتنف شعره ، وضرب نفسه بالسوط ضربا مبرحا ؛ ثم ذهب الى داريوس وهو على تلك الحال المؤلمة .

ثارت كوابن الغضب في نفس داريوس عندما أبصر زوبوروس على هذه الصورة ، فقفز من فوق عرشه وصاح بصوت مرتفع سائلًا زوبوروس عنم أحدت به تلك الاصابات وماذا فعل حتى عومل بهذه المعاملة القاسية . فأجاب زوبوروس بقوله : « لا أحد في العالم كله سواك ، يا مولاى ، يستطيع أن يحدث بي هذا الذي ترى . لم تقدم يد رجل غريب على فعل هذا بي ، ولكنها يدى أنا نفسي هي التي فعلته . شوشت نفسى لأنى لم أطق سخرية أهل بابل من الفرس » . فقال داريوس : « يا لك من رجل تعس ! إنك تضفى أجمل الأسماء على أ بشع الافعال عندما تقول ان تشويه خلقتك يساعدنا على تقدم الحصار . كيف يمكن لهيئتكم المشوهة أن تتحث

العدو على الاسراع بالحضور لنا ؟ لاشك في أن لوئه قد أصابت عفلك عندما فعلت بنفسك هذا الفعل الشنيع » . فقال الآخر : « لو كنت أخبرتك بما أزمع عمله لما سمحت لي بالاقدام عليه . ولذلك كتمت الامر في نفسي حتى نفذت خطتي . والآن ، يامولاي ، اذا لم يحدث اخفاق من جانبك ، فاننا ، لا ريب ، آخذون المدينة ؛ سأبدأ الى الاعداء بحالتي هذه ، وعندما أدخل مدینتهم سأخبرهم بأنك أنت الذى فعلت بي هذا . وأعتقد أنهم سيصدقون كلامي ويتحققون بي ثقة يجعلهم يولوننى أمر كتابتهم - أما من جهتك يامولاي فيجب أن تنتظر حتى اليوم العاشر بعد دخولي بابل ؛ ثم تتضح بالقرب من أبواب سميرامييس فرقة من جيشك ، لا يهمك كثيرا فقدانها ؛ ويكون عددها ألف جندي . ثم انتظر سبعة أيام أخرى وضع فرقة أخرى تتكون من ألفي مقاتل قوى عند أبواب نينوى . وانتظر بعد ذلك عشرين يوما وضع عند الابواب الحالية فرقة قوامها أربعة آلاف رجل . ولا تسلح هؤلاء ؛ ولا السابقين لهم بأية أسلحة غير السيف التي لا تكترث لضياعها . وبعد انقضاء عشرين يوما ؛ أصدر أوامرك لقواتك كلها بهاجمة المدينة من كل جانب . وضع فرقة من الفرس عند الأبواب البيلانية ؛ وفرقة أخرى عند الأبواب الكيسانية ؛ لأننى أتوقع أن يعهد الى البابليون بكل شيء حتى مفاتيح أبوابهم ؛ بعد أن يروا ما أحرزته من نجاح ، وبعد ذلك أقوم أنا والفرقتان الفارسيتان ببقية المطلة » .

بعد أن ترك زوبروس هذه التعليمات ، انطلق الى أبواب المدينة وهو يكثرون من التلفت خلفه ، ليبدو كجندي هارب . فلما أبصره الرجال الواقعون في الابراج ، والذين وكلت اليهم المراقبة ؛ أسرعوا بالنزول ؛ ففتحوا أحد الابواب قليلا ، وسألوه عن شخصيته وعن المهمة التي جاء من أجلها . فأجاب بأنه زوبروس ، وأنه أتى لاجئا اليهم بعد هروبهم من الفرس فلما مثل أمام المجلس ، أخذ يندب حظه العاثر وأخبرهم بأن داريروس أنزل به ذلك العقاب الذي يرونه ، لا شيء الا لانه أشار عليه بفك المصادر إذ يبدو أن لاأمل في الاستيلاء على المدينة . ثم استطرد يقول : « والآن سيبيرهن مجيشي اليكم ، أيها البابليون ، على أنه أعظم ربح يمكن أن تحصلوا عليه ، في حين سيكون أفحى خسارة لداريوس وللشعب الفارسي . والحقيقة أن من أصابتى بهذه التشوہات لن يفلت من العقاب ، لأننى أعرف جميع خططه » .

فلما رأى البابليون شخصا من ذوى المراكز العليا على تلك الحال :
أنفه مجدوع ، وأذناه مقطوعتان ، وآثار السياط ظاهرة حمراء على جسمه ؟

وكدمات الدم بادية تحت جلدك ؛ لم يخامرهم أى شك فى أنه إنما يقول الحقيقة ، وأنه أتى فعلاً ليكون صديقاً لهم وعوناً على أعدائهم . ولذا أكانوا على استعداد لأن يمنحوه كل ما يطلب ولما توسل إليهم فى أن يعهدوا إليه بقيادة فرقة من قواتهم ، وكلوا إليه قيادة كتيبة من الجنود ، بدأ بمعاونتها يفعل ما اتفق عليه مع داريوس . ففى اليوم العاشر تبعاً للاتفاق فانقض عليهم وحاصر ألف رجل كان داريوس قد أرسلهم تبعاً للاتفاق فانقض عليهم زوبوروس وقتلهم جميعاً . فلما رأى البابليون أن فعله أصدق من أقواله سروا إيماناً سرور ، ووثقوا به ثقة لا حدود لها . ولما مضت المدة الثانية المتყق عليها ، خرج بكتيبيته من الجنود المختارين ، وقتل الألفي فارسي . وبعد هذا النصر الثاني ؟ لهج كل لسان بالثناء عليه . ومرة ثانية انتظر حتى انقضاء الفترة التالية ، وقاد الكتائب البابلية إلى حيث يوجد الاربعة آلاف فارسي ، فقتلهم جميعاً . كان هذا النصر الأخير هو اللمسة الأخيرة في تكوين سلطته وجعله الكل في لدى البابليين وبناء على هذا ، عهدوا إليه بقيادة جيشه كله ، وصلموه مقاييس مدينتهم .

حافظ داريوس على الخطة المتفق عليها، فهاجم الأسوار من كل جانب، وعندئذ لعب زوبوروس الدور الباقي من خطته . ففيما بذل البابليون المحتمدون عند الأسوار قصارى جهدهم لمقاومة الهجوم الفارسي ؟ فتح زوبوروس الابواب الكيسانية والبليانية أمام العدو ، لهرب البابليين الذين أحسوا بالخدعة ؟ إلى معبد جوبيتير بيلوس ، في حين بقي من لم يدركوها ، في أماكنهم حتى علموا أخيراً أنهم وقعوا فيرصة خدعة عظمى .

هكذا سقطت بابل للمرة الثانية . فلما تمت لداريوس السيادة عليها ، هدم أسوارها وحطط جميع أبوابها ؛ لأن كوروس لم يفعل هذا ولا ذاك عندما استولى على هذه المدينة من قبل . بعد ذلك اختار داريوس حوالي ثلاثة آلاف من عظماء المدينة وصلبهم ؛ أما الباقيون فسمح لهم بالإقامة في المدينة وسكنها . ولما أراد بعد ذلك عدم ازدحام الجنس البافل ، زودهم بزوجات بدل المواتى شتنقن (كما ذكرت من قبل ؛ لعدم استهلاك كمية المؤونة المخزونة) . جمع أولئك الزوجات من نساء الامم المجاورة لبابل . وقد بلغ مجموعهن مالا يقل عن خمسمائة ألفاً . وإن البابليين الموجودين في عصرنا هذا ، لم ننسى أولئك النساء .

أما زوبوروس فقد حظى بمنزلة عظمى لدى داريوس الذي اعتبر عمله هذا عملاً يفوق كل ما قام به أي فارسي آخر ؛ سواء أكان في العصور السابقة أم في أيامنا الحاضرة، باستثناء كوروس - وهي منزلة لا يعتقد

أى فارسي غيره ، أنه جدير بها . وتبعا لأقوال الرواة ، كثيرا ما كان داريوس يقول : « كنت أفضل أن لم يشوه زويوروس نفسه ، على أن أكون سيدا على عشرين بابل أخرى » . وزاد داريوس في تكرييم زويوروس . فكان ، في كل عام ، يقدم له الهدايا التي يعتبرها الفرس أعظم ما يصبوا إليه المرء . كما منحه حكم بابل طول حياته دون أن يدفع أية ضريبة . وكذلك منحه عدة مزايا أخرى . كان ميجابوزوس « الذي تولى القيادة في مصر ضد الاثنينيين وحلفائهم » ابن زويوروس هذا ؟ كما كان زويوروس « الذي هرب من فارس إلى أثينا » ابن ميجابوزوس هذا .

الفصل الثامن والعشرون

عادات السكوثيين

بعد الاستيلاء على بابل ، خرج داريوس في حملة على سكوثيا . إنما كانت آسيا تزخر بالرجال ، والأموال الطائلة تتدفق على الخزانة ، اجتاحتها رغبة ملحة في الانتقام من السكوثيين الذين غزوا ميديا ، ذات مرة ، في عصور سابقة ، كما هزموا من التقوا بهم في الميدان . وهكذا بدأ العراق . ظل السكوثيون سادة القسم العلوي من آسيا كله ، لمدة ثمان وعشرين سنة ، كما ذكرت من قبل ، وخلوا آسيا في أثر الكيميريانين ، وأطاحوا بامبراطورية الميديين ، الذين كانت لهم السيادة حتى وصول أولئك القوم . وعند عودتهم إلى أوطنهم بعد غيبة طويلة استغرقت مدة ثمان وعشرين سنة ، كان بانتظارهم عمل شاق ، أقل تعبا من نضالهم مع الميديين . إذ وجدوا جيشا غير قليل العدد ، على استعداد ليمعن دخولهم . فلما وجدت النساء السكوثيات أن الزمن يمر دون أن يعود اليهن أزواجهن ، تزوجن بعبيدهن .

يعمى السكوثيون جميع عبادهم كي يستخدموهم في اعداد أبنائهم . والطريقة التي يتبعونها هي : يدفعون أنبوبة من العظم – لا تختلف عن الأنابيب الموسيقية – في الفتحة التناسلية للفرس ، ثم ينفخون في الأنابيب بأفواههم . فيجلب بعضهم اللبن ، من تأثير نفع البعض الآخر . ويقولون انهم يفعلون هذا لانه اذا ما امتلات أوردة الفرس بالهواء ضغطت على الضرع وجعلته يهبط الى أسفل . ويوضع اللبن الذي يحصل عليه بهذه الكيفية في جفنات من الحشب يقف حولها العبيد ليقبلوا اللبن . وتعتبر طبقة اللبن التي تطفو على السطح خير الاجراء جميما ، وما تحتها أقل أهمية . هذا هو السبب الذي من أجله يعمى السكوثيون جميع أسرارهم في المروب .

وهذا راجع الى أنهم لا يعرفون شيئاً عن فلاحة الارض ، وانما يستغلون بالرعى .

لما أنجب هؤلاء العبيد والنساء السكوثيات أولاداً ، وكبار الولاد حتى صاروا رجالاً ، وعرفوا ظروف نشأتهم ، اعتزمو مقاومة الجيش العائد من ميديا فاقتطعوا أولاً بقعة من الأرض فصلوها عن بقية سكوثيا ، بأن أقاموا سداً عريضاً – يبدأ من الجبال التورية وينتهي عند بحيرة مايوتيس الواسعة – وأخيراً .. عندما حاول السكوثيون دخول بلادهم بالقوة ، ساروا اليهم وحاربوا لهم فلم يحرز السكوثيون أي انتصار . وأخيراً قام من بينهم رجل وخطب الباقيين بقوله : « ما هذا الذي نفعله نحن عشر السكوثيين ؟ اننا نحارب عبيديننا ؛ وبذلنا نقص عدتنا بوساطة من يسقطون صرعى في القتال ، كما نقلل من عدد عبيديننا عندما نقتلهم بأيديينا . اعملوا بنصيحتى ، دعوا الرمح والقوس جانبًا ، ولديحضر كل رجل منكم سوطاً كالتي تضرب بها الحيوان ، وليدهب اليهم في جرأة وشجاعة . فكلما رأينا نحمل الاسلحة في أيدينا ، ظنوا أنفسهم أنداداً لنا ؛ ومتساوين معنا في المولد وفي الشجاعة . أما اذا لم يروا غير السياط في أيدينا ، شعروا بأنهم عبيد لنا . وعندما لا يسعهم الا أن يفروا أمامنا » .

عمل السكوثيون بهذه النصيحة . فذهب العبيد ذهولاً بالغاً لدرجة أنهم نسوا أن يحاربوا ، ورکنوا في الحال إلى الفرار . هذه هي الطريقة التي عاد بها السكوثيون إلى ديارهم واستقروا فيها بعد أن حكموا آسيا فترة من الزمن ؟ ثم اضطربهم الميديون إلى الجلاء عنها . هذا هو الغزو الذي كان داريوس يتوق إلى الانتقام منهم بسببه . وهذا هو الغرض الذي من أجله أخذ الآن يجمع جيشاً لغزوهم .

هكذا عادات السكوثيين وتقاليدهم فيما يختص بالحروب : يشرب الجندي السكوثى دم أول رجل يصرعه في الحرب . ومهما بلغ عدد الذين يقتتلهم ؛ فإنه يقطع رءوسهم جميعاً ويحملها إلى الملك . وبذلما يكون له الحق في اقتسام الغنائم في حين يضيع منه كل حق اذا لم يحضر أي رأس . ولذلك يسلخ جلد الرأس ، يقطع حزا حول الرأس فوق الأذنين ، ثم يمسك بفروة الرأس ويقذف بالجمجمة بعيداً ، بعد ذلك : يأخذ ضلع ثور ويبحث به ظهر الفروة حتى ينطفئها تماماً من الدسم ، نم بطريهما بأن يدعكتها بين يديه ، ويستعملها فوطة بعد ذلك . ويغتر الرجل السكوثى بفروات رءوس القتلى هذه ؛ ويعلقها في عنان حصانه . وكلما كان عدد الفروات التي يعرضها كبيراً ، عظمت منزلته بين مواطنيه . ويصنع كثير منهم لنفسه معطفاً من

هذه الفراء ، أشبه بعبارات فلاحينا . وذلك بأن يخيط عددا من الفروات معا . ومنهم من يسلح جلد الاذرع اليمنى لاعدائهم القتلى ، ويصنع من الجلد ، الذى ينزع بما فيه من الاطفار ، كسوة لجعبة سهامه . وان جلد الانسان لسميك ولا مع ويفوق فى بياضه سائر الجلود الاخرى تقريرا . وبعض منهم يسلح جلد الجسم كله ؟ ويشدء فوق اطار يحمله معه أينما ذهب . هذه هي تقالييد السكوثيين فيما يختص بفراء الرأس وجلود القتلى من أعدائهم .

والايك الطريقة التى يعالجون بها جمامم الأعداء . والحقيقة أنها ليست جمامم كل أعدائهم ، وإنما جمامم من يحملون لهم أعظم كراهية . بعد أن يخيطوا أسفل الحواجب وينظفوا ما بداخل الجمجمة ، يكسونها من الخارج بالجلد . هذا كل ما بفعله الرجل الفقير . أما الغنى فيبطن داخل الجمجمة بالذهب . وفي كلنا الحالين ، تستعمل الجمجمة كأسا يشربون منها . وكذلك يفعلون الشيء نفسه مع أصدقائهم وأقاربهم ان كان بينهم ثار وهزموهم فى حضور الملك . وعندما يزورهم الأغرايب يطعنونهم على هذه الجمامم ، ويشرح لهم المضيف قرابة أصحابها له ، وكيف حدثت العداوة بينه وبينهم ، وكيف تغلب عليهم . وذلك لأنهم يعتبرون كل هذه المظاهر من أمارات الشباعة .

اذا مرض الملك السكوثى أرسل فى طلب ثلاثة من أشهر العرافين فى عصره ، فيتکهنون له هكذا يقولون : عادة أن الملك مريض لأن فلان ؟ وينذرون اسمه قد أقسم يمينا كاذبة بالوطيس الملكي . وهذا هو القسم العادى الذى يحلف به السكوثيون عندما يقسمون اليمين على أمر هام . وعندئذ يقبض على من اتهمه العرافون بالخلف كذبا ، ويؤتى به أمام الملك . فيخبره العرافون بأنهم علموا بواسطة فنهم أنه أقسم كذبا بالوطيس الملكي ، وبهذا كان سببا فى مرض الملك ؛ فينكر الرجل التهمة ، ويحتاج بشدة ، ويؤكد أنه لم يحلف قط يمينا كاذبة ؟ ويعلن شكتواه بصوت عال وينمسك بأنه مظلوم . عند ذلك يرسل الملك فى طلب ستة عرافين جدد يحكمون فى الامر بوساطة العراقة فإذا وجد هؤلاء أن الرجل مذنب فيما نسب اليه ، قطع رأسه فى الحال بوساطة من اتهموه أولا ، واقتسموا أمواله وممتلكاته فيما بينهم . أما اذا برأه هؤلاء ؟ جيء بعرافين غيرهم ، ثم غيرهم ، لشکهن فى هذا الامر . فان برأته الغالبية العظمى منهم ، أعدم من أدانوه أولا .

اما طريقة اعدائهم فهى هكذا : تملاً عربة بالحطب ، وترتبط فيها

الثيران . وتقيد أرجل العرافين معاً ، وترتبط أيديهم خلف ظهورهم ، وتكمم أفواههم ، ويلقون وسط الحطب ثم تشعل النار في الحطب . فإذا تذعر الثيران من الدهب تجري بالعربة . وغالباً ما تحرق النار العرافين والثيران ببيد أنه يحدث أحياناً أن يحرق عريش العربة فتفلت الثيران بعد اصابتها ببعض الحرائق . كذلك يحرق الكهنة الكاذبون ، كما يسمون ، بهذه الطريقة لاسباب أخرى غير ما ذكرنا وعندما يعدم الملك أحدهم ؛ يحذر من بقاء أى ولد له حيا فيعدم جميع الاولاد الذكور مع أبيهم ؛ ولا يسمح بالبقاء على قيد الحياة لغير الإناث .

توجد قبور ملوك سكوثيا في أرض الجيرهين المفيدين بأول موضع يصلح فيه نهر بوروشينيس للملاحة . فعندما يموت الملك يحفرون له قبراً مربع الشكل كبير العجم . وبعد اعداد القبر ، يأخذون جة الملك بعد شق البطن واخراج ما فيه وتنظيفه ، وملئه بمخلوط من أوراق السنديان المفريدة ، واللبان الذكر ، وبذور المقدونس ، وبذور الانيسون . ثم يحيطون الفتحة ويغلقون الجنة بالشمع ويضعونها فوق عربة ، ويطوفون بها على مختلف القبائل . وعندما تتسالم كل قبيلة جنة الملك تقلد مافعله السكوثيون الملكيون في أول الامر . فيقطع كل رجل قطعة من أذنه ، ويقص شعره ، ويحز حزا حول ذراعه ، ويشرط شقا في جبهه وأنفه ، ويغرس سهما في يده اليسرى . بعد ذلك يقوم المكلفوون بالجنة ببنائها الى قبيلة أخرى من القبائل الخاضعة لحكم السكوثيين ، ويتبعها أفراد العبيلة التي مرت عليهم الجنة أولاً . وبعد تمام الطواف على القبائل التابعة لسلطان السكوثيين في دولة الجيرهين الواقعة في أقصى منطقة ، يذهب القوم بها الى مقابر الملوك حيث توضع جنة الملك الميت في القبر الذي أعد لها ، ممدة فوق خشب . وتغرس الرماح في الأرض على كل من جانبى الجنة . ثم توضع الواح من الخشب فوق الرماح لتكون بمثابة سقف يغطي بأعواد الغاب «البوص» . وييدفنون مع الملك احدى محظياته بعد شنقها ، وكذلك حامل كأسه وطاهيه وسايسه وخادمه الخاص وحامل رسائله ، وبعض حيواته وأوائل ممتلكاته الأخرى ، وبعضاً الكثوس الذهبية ، لأنهم لا يستعملون الفضة ولا النحاس . بعد ذلك يشرعون في عمل كومة فوق القبر . ويختارى كل منهم في جعلها مرتفعة قدر المستطاع .

بعد مرور عام على موت الملك ، تقام احتفالات أخرى . فيؤخذ خمسون شاباً من خيرة خدم الملك المتوفى ، وكلهم من السكوثيين الوطنيين . ولما كان شراء العبيد غير معروف في هذه البلاد ، فإن ملوك سكوثيا يختارون من يريدون من رعاياهم ليقوموا بخدمتهم ؟ يؤخذ خمسون من هؤلاء

ويشنقون . كما يقتل خمسون جوادا من أجمل الخيول . وبعد موت هذه ، تفتح بطنها وتخرج أحشاؤها وينظر التجويف ويملاً بالتبين ، ويختلط الشنق ثانية . وبعد الانتهاء من هذا تدفع عدة أعمدة في الأرض زوجين زوجين . ويوضع نصف اطار عجلة فوق كل زوج من هذه الأعمدة ؟ حتى يتكون ما يشبه القبو . ثم تدفع سيقان قوية في أجسام الخيول بطولها ؟ من الذيل إلى الرقبة ، ثم ترفع الخيول فوق اطارات العجلات بحيث تستند كتفا الحصان على اطار العجلة الإمامى . ويسند الاطار الخلفي البطن والفخذين الخلفيين . أما القوائم فتنتمي في الهواء . ويوضع في فم كل حصان لجام وعنان ، ويسقط الآخر أمام الحصان ويربط وتد . ثم يؤتى بالخمسين شبابا المشنوقين ؟ ويوضعون فوق الحمسين حصانا ، ولعمل هذا ٠٠ تدفع ساق أخرى في جسم كل شاب بطول السلسلة الفقرية حتى الرقبة . ويزر طرفيها السفلي من الجسم ، ويوضع في حفرة بالساق التي في جسم الحصان . وهكذا يرص الخمسون راكبا في دائرة حول القبر ؛ ويشركون على هذه الصورة .

هذه هي الكيفية التي يدفن بها الملوك .

الفصل التاسع والعشرون

*****ك****

داريوس يغزو سکوئیا

بدأت استعدادات داريوس لغزو سکوئیا . فأوفد الرسل إلى جميع الجهات يحملون أوامر الملك . فعلى بعضهم أن يمد الجيش بالجنود . وبعض آخر يمده بالسفن . وغير هؤلاء يقيمون جسرا فوق البوسفور . وفي هذه الائتماء توسل أرتabanوس بن هوستاسبيس ؛ شقيق داريوس ، توسل إلى الملك أن يتنازل عن هذه الحملة مبينا له المشقات البالغة التي تكتنف الهجوم على سکوئیا . وعلى الرغم من حسن نصيحة أرتabanوس ، فإنها لم تفلح في اقناع داريوس بالرجوع عن تلك الحرب . ولذلك كف عن نصيحة داريوس . وعندما تمت استعدادات الجيش ، قاده داريوس من سوسا .

حدث أن جاء إلى داريوس رجل فارسي يدعى أيوبازوس وكان أبو لثلاثة أولاد ؛ كانوا جميعا ذاهبين مع الجيش . فتوسل أيوبازوس إلى الملك أن يسمح لاحد أبنائه بأن يبقى معه . فأجاب داريوس بأنه إذا نظر إليه نظرة صديق تقدم بطلب متواضع : « سيسمع لهم جميعا بالبقاء » فسر أيوبازوس سرورا لا مزيد عليه ؛ متوقعا اعفاء أولاده من الخدمة العسكرية . فأمر الملك خدمه بأن يأخذوا أولاد أيوبازوس ، ويقتلوهم . وهكذا بقوا جميعا ؛ ولكن بعد أن جردوا من حياتهم .

عندما بدأ داريوس سيره من سوسا ؛ ووصل إلى منطقة خالكيدون على شواطئ البوسفور حيث أقيم الجسر ؛ ركب سفينته وأبحر إلى الجزر الكوانيانية التي تبعا لرواية الأغريق ؛ طفت ذات مرة على وجه الماء . فاتخذ مجلسه في المعبد ، وطفق يشاهد بحر بونت ، الجدير بحق بكل اعتبار . والحقيقة أنه لا يوجد في الدنيا بحر آخر بتلك الروعة . فيمتد طوله إلى أحد عشر ألفا ومائة فورنج وعرضه في أكثر أجزائه اتساعا ثلاثة آلاف

وثلاثمائة فورلننج . وأما مصبه فعرضه أربعة فورلننجات . ويسمى هذا البوغاز الذى أقيم فوقه جسر داريوس ، باسم البوسفور وطوله مائة وعشرون فورلنجا ، ويمتد بين ايوكسيينى وبروبونتيس أما البروبونتيس فعرضه خمسمائه فورلننج وطوله ألف وأربعمائه فورلننج . ويصب مياهه فى الهيلسبونت الذى طوله أربعمائه فورلننج ولا يزيد عرضه على تسعة فورلننجات ويوصل الى بحر متسع يسمى بحر ايجية .

بعد أن انتهى داريوس من تأمله فى البحر ، عاد ثانية الى الجسر الذى أقامه له ماندروكليس أحد الرجال الساميين . كما أنه أمعن النظر في شواطئ البوسفور ، فأقام عليها عمودين من الرخام الأبيض نقش علىهما أسماء جميع الأمم التي يتكون منها جيشه . نقش الأسماء على أحد العمودين باللغة الإغريقية ، وعلى العمود الآخر باللغة الآشورية . كان جيشه يتألف من جميع الشعوب الخاضعة لحكمه . وفيما عدا رجال البحريه ، كان جيشه يبلغ سبعمائه ألف رجل ، بما فيهم الفرسان . أما الاسطول فكان قوامه ستمائة سفينة . وبعد ذلك بمنة ، نقل البيزنطيون هذين العمودين الى مدinetهم ، واستخدموهما في اقامة مذبح لديانا الارثوذكية وتركوا قطعة منها بجوار معبد باخوص في بيزنطة ، وكانت مليئة بالكتابة الآشورية . وبحسب تخيلى ، يقع الموضع الذى أقام فيه داريوس الجسر على البوسفور في منتصف المسافة بين مدينة بيزنطة والمعبد القائم عند مدخل البوغاز .

سر داريوس أيا سرور بالجسر الذى أقامه ماندروكليس السامي فوق ذلك البوغاز ؛ لدرجة أنه لم يمنجه الجوائز العادلة فحسب ، بل وأعطاه عشرة من كل نوع منها . ولكن يقدم ماندروكليس أولى هذه الجواائز ؛ عمل على صنع صورة للجسر كلها ، ظهر فيها داريوس وهو يتبوأ مجلس الصدارة ، وجيشه يمر من فوق تلك القنطرة ، ثم قدم هذه الصورة لمعبد جونوفى ساموس .

بعد أن كاف داريوس .. ماندروكليس ؟ عبر البحر الى أوربا ، وأمر الايونيين بدخول بحر بونتوس والابحار الى مصب نهر ايسنر ، حيث أمر باقامة جسر فوق ذلك النهر ، وانتظار مجيئه . كانت البحرية تتكون أساساً من الايونيين والايوليين ، وسكان الهيلسبونت . وعلى ذلك أبحر الاسطول مارا بالجزر الكواينية ، واتجه رأسا الى نهر ايسنر ، ودخل ذلك النهر حتى المكان الذى يتفرع فيه مجراه وهذا يقع على مسافة ابحار يومين من البحر . وألقى مراسيه هناك . وفي ذلك الوقت احتاز داريوس البوسفور وسار خلال تراقيا . وادع عشر على منابع التيروس أقام معسكراً وظل هناك ثلاثة أيام .

يقول جميع من يسكنون بجوار التيروس ، انه صحي أكثر من أي نهر آخر ، ويشفى امراضًا عدّة منها الجرب سواء أصيب به الإنسان أو الحيوان . وتنتمي متابعه ٠٠ التي يبلغ عددها تمانية وثلاثين متابعاً ماءها من صخرة واحدة . وبعض هذه المتابع بارد ؟ في حين أن بعضها الآخر ساخن . وتقع جميعاً في منتصف المسافة بين مدينة هيرمايوم القريبة من بيرنيشوس وبين مدينة أبولونيا الواقعة على نهر ايوكسيني ؛ ونبلغ مسيرة يومين من كل من هاتين المدينتين . ونهر تيروس هذا ، هو أحد روافد نهر كونتاديسدوس الذي يصب في نهر أجريانيس ، وهذا بدوره يصب في نهر هيبروس ، الذي يصب في البحر قرب مدينة أينوس .

توقف داريوس عند شواطئ نهر التيروس حيث أقام معسكراً . وقد أعجبه هذا النهر لدرجة أنه أمر باقامة عمود على شاطئه في ذلك الموضع . ونقش عليه « ان متابع نهر التيروس لتخريج مياها أجود وأجمل من مياه الانهار طرا . لقد زارها أجمل الرجال جميعاً ؛ داريوس بن هوسناسبيس ملك الفرس وجميع القارة أثناء مسيره لمحاربة سكوثيا » هذه هي العبارة التي نقشها على النصب الذي أقامه في ذلك الموضع .

واصل داريوس سيره حتى بلغ نهراً نانيا يسمى أرتيسكوس ، يجري خلال بلاد الاودريسيين ysians وعند ذلك حدد موضعه ، وأمر بأن يلقى كل جندي من جيشه حجراً أثناء سيره . فلما أطاع الجنود أمره ، وواصل سيره تاركاً خلفه تللاً عظيمة من الاحجار التي قذفها جنوده .

لما بلغ داريوس نهر الايستر بجيشه البري ، أمر جنوده بأن يعبروا النهر وبعد أن اجتازوا جميعاً ؛ أمر الايونيين بأن يهدموا القنطرة التي هر فوقها ، ثم يتبعوه بكامل القوة البحرية ؛ في مسيرة على البر . كانوا على وشك تنفيذ أمره لولا أن تقدم كويوس coes بن ايركساندر قائد الميتيلينيانيين mytileneens من داريوس، وسئلاته أولاً عما إذا كان الملك يسمح بأن يسمح كلام رجل يرغب في الأفضاء بما يجول في نفسه ، ثم قال : إنك ؟ يا مولاي ؟ على وشك مهاجمة بلد ليس فيه أى جزء مزروع ، ولا يوجد به أية مدينة مسكونة . وعلى ذلك ينبغي أن تترك هذه القنطرة كما هي ، وتترك من أقاموها لحراستها . فإذا التقينا بالسكوثيون وهزمناهم؛ كما أتعشم ، أمكننا العودة من هذا الطريق . أما إذا لم نستطع أن نعش عليهم ؟ أمكننا أن نضمن تقهقرنا في أمان ، فإنني لا أخشى أن يهزمنا السكوثيون في القتال ؟ وإنما كل ما أخافه هو أن نتحقق في العثور عليهم ، وعندئذ نتكتب خسائر جسمية ونحن نسير في بلادهم . ولربما يقول

قائل انتى أبدى نصيحتى هذه أملأ فى السماح لي بالبقاء هنا . بيد أن الحقيقة هي أنه لا قصد لي سوى أن أشير بما أرى أنه خير سبيل نسلكه . كما أنتى لا أقبل أن أخالف هنا مع من سيبقون لحراسة الجسر . وإنما أعتزم أن أتبعك في جميع الحالات . فسر داريوس من نصيحة كوروس ؟ ورد عليه بقوله : « أيها المتبليين العزيز ؛ عندما أعود سالما إلى قصرى ؛ لا بد أن تحضر إلى لاكافئك بالاعمال الطيبة على نصيحتك الطيبة التي أبديتها لي اليوم .

بعد أن أتم الملك كلامه أخذ سيرا من الجلد ؛ وعقد فيه ستين عقدة . ثم استدعي إليه جميع رؤساء الأيونيين ؛ وتحدى اليهم بقوله : « أيها رجال آيونيا ، لقد سحبتم أوامرى السابقة بخصوص ذلك الجسر . انظروا ما هو ذا سير من الجلد خذوه ونفذوا كل ما أمركم به بخصوصه . . . ابتداء من اليوم الذى أترككم فيه قاصدا سكوثيا ، حلوا كل يوم عقدة . فإذا لم أرجع قبل اليوم الذى تحلون فيه آخر عقدة ؛ فغادروا مکانكم وعودوا في البحر إلى مختلف أوطانكم . وفي تلك الأثناء يجب أن تعرفوا أننى غيرت رأى بشأن هذه القنطرة التي يجب أن تقوموا بحراستها بكل عناء ! وبالمحافظة على سلامتها وبقاها . بهذا تسرعونى أبلغ السرور » . وما ان قال داريوس هذه الأقوال ، حتى سرع يسير بكل سرعة .

الفصل الثالثون

القبائل المكونة

كانت تقاليد التاورين تقضى بأن يضخوا للمعدناء بجميع الأشخاص الناجين من السفن المحطمة ! وبجميع الاغارقة الذين تضطرهم الاحوال الجوية الى الجنوح الى البر . وهاك طريقتهم فى التضحية بهؤلاء : بعد اتمام الاحتفالات التمهيدية ، يضربون الضحية على رأسه بهراوة ثم يقدفون بجثته من فوق صخرة شاهقة فيسقط الى الهوة السحيقة حيث يوجد المعد . أما الرأس ، فيشتولنه الى صلبه .

والأجاثورسيون قوم بالغوا الترف مولعون أشد الولع بالتحلي بالذهب . وزوجاتهم مشياعات فيما بينهم جميرا حتى يكونوا كلهم اخوة . كأعضاء فى أسرة واحدة ؛ لا يحسد أحد منهم الآخر ولا يحمل له حقدا ولا ضيقنة .

وعادات النيوريين شبيهة بعادات السكوتينيين . وقد حدث قبل هجوم داريوس أن هجر أحد الأجيال ديaries أمام هجوم جموع كبيرة من الافاعي غزت بلادهم ؛ كانت بعض تلك الافاعي مما تربى في بلادهم ؟ والبعض الآخر وفدهم من الصحراء الشمالية واذ أصيروا بخسائر فادحة من جراء هذه المصيبة ، هجروا وطنهم ولمجئوا إلى بلاد البوذينيين .

أما الاندروفاجيون فأشد وحشية من أي شعب آخر . فهم لا يعرفون العدالة ولا يخضعون لآية قوانين . إنهم قوم رحل ، يلبسون الزي السكوثى ويتكلمون لغة غريبة عليهم هم أنفسهم . وعلى خلاف أي شعب آخر فى هذه المناطق ، يأكلون لحوم البشر .

ويلبس الميلانخلانيون جميعا عباءات سوداء ، ومن هنا جاء اسمهم . وعاداتهم سكوثية .

والبودينيون أمة ضخمة قوية ؛ عيونهم جميعا زرقاء ؛ وشعرهم حمراء زاهية اللون . ويطلقون على مدینتهم اسم «جيلونوس» وتحيط بها أسوار عالية ؛ وبلغ طولها ثلثين فورانجا من كل ناحية . وهى مصنوعة كلها من الخشب . ويكلّم أولئك القوم لغة نصفها اغريقى ونصفها الآخر سكوثى .

ولا يتكلّم البودينيون نفس اللغة التى يتكلّمها الجيليون ؛ كما أنهم يختلفون عنهم فى طريقة معيشتهم . إنهم الوطنيون الأصليون لهذه المنطقة ، وهم شعب رحل . وعلى خلاف كل جيرانهم يأكلون القمل . أما الجيليون فعلى عكس ذلك يفلحون الأرض ويأكلون الحبز ، ولديهم حدائق . ويختلفون عن البدينيين فى كل من الهيئة ولون البشرة .

يروى عن الساوريماتين أنهم عندما اشتباك الإغارقة فى حرب مع شعب الأمازون بأبحر الإغارقة بعد انتصارهم فى المعركة ؛ وأخذوا معهم ثلاثة من سفينتهم مليئة كلها بالنساء الأمازونيات اللوانى وقعن فى الأسر . وما ان ابتعدت السفن عن اليابسة وصارت فى وسط البحر حتى تارت الأمازونيات على البحارة وقتلنهم جميعا لاخر رجل ولما كن لا يعرفن شيئاً عن الملاحة ولا عن السفن ؛ ولا يعرفن كيف يستخدمن الدفة ولا المجداف ولا الشراع ، ذهبن بعد موت الرجال الى حيث ساقتهن الريح والامواج وأخيراً وصلن الى شواطىء بالوس مايو تيس ، الى الموضع المسماى كرينى ، اي « الصخور » . الواقع فى أرض السكوثيين الأحرار فنزلن الى البر وسرن صوب المناطق المسكنة . وعندما التقى بائل سرب من الخيول استولين عليه وامتطيin ظهره ؛ وشرعن فى نهب تلك المنطقة السكوثية .

لم يدر السكوثيون ماذا يعملون ازاء ذلك الهجوم ! . فهم لا يعرفون نوع تلك الثياب التى يرتديها من هاجموهم ولا لغتهم ولا الشعب الذى ينتمون اليه . كانوا يحسبونهم رجالا . غير أنه عندما وقع فى أيديهم بعض القتلى ، أدركوا الحقيقة . عند ذلك تشاوروا فيما بينهم ؛ فقرروا ألا يقتلوا منهم واحدة بعد ذلك ، وأن يرسلوا اليهن فرقة من أصغر الرجال

سنا ، يفرب عدد أفرادها من عدد النساء حسب تقديرهم . وأن يؤمروها باقامة معسكرهم في المنطقة القريبة من معسكر أولئك النساء ، وأن يحاكون في كل ما يعلمهونه وإذا تقدمت منهم الامazonيات فعليهم أن يتسلّحوا ولا يستنكروا معهن في قتال - وإذا توافقن ، اقترب منهن الشبان وضرموا فساطيطهم بقرب معسكر أولئك الاعداء . . . فعملوا كل هذا رغبة في الحصول على ذرية من هذا الشعب الشهير .

بناء على هذا . . . رحل الشبان ، ونفذوا الاوامر التي تلقوها حرفيا . وسرعان ما دركت الامazonيات أن هؤلاء لم يأتوا ليصيّبواهن بأذى وعلى ذلك ، لم يقمن من ناحيتهم بمعاكسة السكوثيين بعد ذلك . ثم أخذ المعسكران يقتربان من بعضهما يوما بعد يوم . وكان كل من الفريقين يحيى الحياة نفسها التي يحييها الفريق الآخر . ولم يملك أيٌ منهم شيئاً سوى السلاح والخيول . وهكذا اضطروا إلى الحصول على قوتهم من الصيد والنهب .

وأخيرا ، تصادف أن التقى اثنان منهم . واستطاع الرجل أن يكسب بسهولة موعد المرأة التي أخبرته بالاشارات (لأن كلاً منها لم يكن يعرف لغة الآخر) أن يحضر معه أحد أصدقائه في اليوم التالي ، إلى الموضع نفسه الذي التقى فيه . ووعدهما بدورها بأن تحضر معها سيدة أخرى . ففعل الشاب ما طلبته منه تلك المرأة وبرت هي بوعدها . فلما سمع بقية الشبان بما حدث ، سعى كل منهم إلى اكتساب ود امرأة أمازونية .

ما هي الا فترة وجيزة حتى اندمج المعسكران في معسكر واحد . وعاشر السكوثيون الامazonيات معاشرة الأزواج . ولم يكن بوسع الرجال أن يتعلموا لغة النساء ، في حين ان النساء سرعان ما تعلمن لغة الرجال . فلما استطاع كل منهم أن يتفاهم مع الآخر ، قال الرجال للامazonيات : « ان لنا آباء وأمهات ، ولنا ممتلكات ، وبناء على هذا : هيأوا بنا نترك طريقة الحياة هذه ونرجع إلى أمتنا حيث نعيش معهم سنتكن زوجاتنا ، ونعدكم بأننا لن نتزوج غيركن » . بيد أن الامazonيات أجبنهم قائلاً : « اننا لا نستطيع الحياة مع نسائكم ، لأن عاداتنا تختلف عن عاداتهن تماماً الاختلاف » ، فديدنا حذب القوس وقدف الرمح وركوب الخيل ، أما شئون السيدات فلا ندرى منها شيئاً ، وأما نساؤكم فعلى نقىض ذلك لا يفعلن شيئاً من هذا ، بل يقضين حياتهن داخل العربات حيث يقمن بالاعمال النسوية ، ولا يخرجن فقط للصيد أو لعمل أي شيء . لا يمكن أن نتفق واياعن اطلاقا . ولكن ، ان كانت لكم رغبة حقيقية في الاحتفاظ بنا

كزوجات لكم ، ومعاملتنا بعدل واحلاص ، فاذهبوا الى والديكم في بلدكم ،
واطلبوا أن يعطوكم ميراثكم ، ثم عودوا اليها لتعيشن وحدنا معا » .

استتصوب الشبان مشورة السيدات وعملوا بها . فذهبوا وأخذوا
نصيبيهم من الممتلكات ثم عادوا الى زوجاتهم الائى خاطبتهن عند اذ بقولهن:
« اننا لنخجل ونخاف من أن نعيش فى هذه البلاد التي نحن فيها الان .
فلم نسرقكم من آبائكم فيحسب ، بل وأصبنا سكوثيا بأضرار جسيمة ؛
بوساطة غاراتنا للسلب والسرقة . وبما أنكم تحبوننا كزوجات ، نرجو
أن توافقوا على الطلب الذي سنطلبه منكم . هيا بنا نهجر هذه الديار
كلية ونرحل فنعيش فيما وراء نهر تاناييس . ومرة أخرى وافق الشبان .

بعد أن عبروا نهر تاناييس ؛ اتجهوا شرقا الى مسيرة ثلاثة أيام من
ذلك النهر . ثم اتجهوا شمالا الى مسيرة ثلاثة أيام من بالوسمايو تيس ؛
حيث وصلوا الى المكان الذي يعيشون فيه الان ؛ واتخذوه مسكنا لهم .
ولا تزال نساء الساورو ما تين محافظات على عاداتهن منذ ذلك الوقت حتى
اليوم . يمارسن الصيد وهن على ظهور الحيل بصحبة أزواجهن ، وأحيانا
وحدهن . وفي الحرب ، ينزلن الى معungan القتال مرتديات نفس الزي
الذى يرتديه الرجال .

يتكلم الساورو ما تين لغة سكوثيا . ولكنهم لا يتكلموها صحيحة
قط ؛ اذ تعلمتها الأمازونيات سقيمة في أول الامر . ويقضي قانون الزواج
عندهم ألا تتزوج فتاة ما الا اذا قتلت رجلا في معركة . ويحدث أحيانا أن
تظل سيدة بغير زواج الى سن متقدمة ، لأنها لم تستطع القيام بهذا
الشرط .

لما دخل مبعوثو سكوثيا الى حضرة ملوك هذه الشعوب الذين كانوا
مجتمعين للمداولة أخبروهم بأن ملك الفرس ، بعد أن أخضع القارة كلها ؛
أقام قنطرة فوق بوغاز البوسفور ، واجتازه الى قارة أوروبا ، حيث أخضع
الترaciين . وانه ليقيم الآن قنطرة فوق نهر ايستر قاصدا أن يخضع
أوروبا كلها لحكمه .

تداول الملوك المجتمعون بعد أن سمعوا ما قاله السكوثيون . وفي
النهاية انقسموا في الآراء . فاتفق ملوك الجيلونيين والساورو ما تين
والبودينيين ، وتعهدوا بتقديم المساعدة للسكوثيين . أما ملوك الاجاثورسيين
والشيوربين والاندرو فاجين والمilan خلابين والثاوريين ، فردو على الطلب
الذى تقدم به اليهم السكوثيون ، هكذا : « اذا لم تكونوا قد بدأتم

بمحاربة الفرس ، لوجدنا طلبكم عادلا ، ولوافقنا على رغباتكم وضممنا
قواتنا الى قواتكم . ولكن الذى حدث هو : أنكم انفردتم ، بدوننا .
بغزو أرض الفرس . وطيلة المدة التى وهبكم الرب فيها القوة ، استخدمتموها
فى أن تحكموها . والآن ، لما رفعهم نفس الرب ، أتوا اليكم ليفعلوا بكم
مثل ما سبق أن فعلتم بهم . أما نحن فلم يسبق أن تعرضنا بالأذى
لأولئك القوم فى الحرب الماضية ، ولن تكون البدائين بالأذى الآن .
فإذا غزوا أرضنا وبدعوا بالاعتداء علينا ، فلن نسمح لهم به . ولكننا
سننطلق فى أرضنا حتى نرى ذلك يحدث منهم . لأننا نعتقد أن الفرس
قد حضروا الآن ، لا ليهجموا علينا ، بل ليعاقبواكم أنتم يامن اعتديتم
عليهم أولا » .

عندما وصل هذا الرد الى السكوثيين ، قرروا ، بسبب رفض
جيروانهم محالفهم ، ألا يستنكروا مع العدو فى أية معركة وجها لوجه ،
وانما ينسحبون أمامهم ، ويأخذون معهم فطعنهم ، يرمدون جميع الآبار
والعيون فى أثناء نقهقرهم ، ويتركون البلاد كلها جرداء وخالية من الكلأ .

الفصل الحادى والثلاثون

الحملة السکوئیة

لما فر قرار السکونیین على اتخاذ هذه التدابیر ، خرجوا ملاقاً
جيـش داریوس يسبقهم أسرع فرسانهم ليكونوا طليعة الاستكشاف .
وأرسلوا أمامهم ، في أثناء تقهقرهم ، عرباتهن التي تحمل نساعهم وأطفالهم
وجميع مائيتهم مالحا عدداً قليلاً بقدر حاجتهم إلى الطعام . على أن تواصل
العربات سرها نحو الشمال دون أن تغير اتجاهها .

وَجَدَ الْكِشَافُ الْسِّكُوْثِيُونَ أَنَّ الْجَيْشَ الْفَارَسِيَ قَدْ تَقْدَمَ بَعْدَ نَهَرِ الْأَيْسِتَرِ بِمَسِيرَةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ . وَفِي الْحَالِ تَقْدِمُهُ بِمَسِيرَةِ يَوْمٍ وَاحِدٍ وَهُمْ يَقِيمُونَ مَعْسَكَهُمْ مِنْ آنِ إِلَى آخِرِ وَيَتَلَفَّونَ كُلَّ زَرْعٍ فِي الْأَرْضِ . وَمَا إِنْ لَمْ يَلْعُجْ الْفَرَسُ فَرَسَانُ السِّكُوْثِيَّينَ حَتَّى جَدُوا فِي السَّيْرِ وَرَاهِمُهُمْ فِي الطَّرِيقِ نَفْسَهَا ، فَيَحِينَ كَانُ هُؤُلَاءِ يَتَقَهَّقُونَ بِاسْتِهْمَارٍ .

فلما بلغ داريوس الصحراء توقف عن المطاردة ، واستراح بجيشه على ضفاف نهر الاواروس حيث أنشأ يبني ثمانية حصون ضخمة يبعد كل منها عن الآخر بمسافات متساوية تبلغ ستين فورننجا أو ما يقرب من ذلك . وكانت بقايها تلك الحصون لا تزال موجودة في عصرى . وطيلة الوقت الذي شغل فيه داريوس ببناء الحصون ، دار السكوثيون الذين كان يطاردهم ، حول المناطق العليا راجعين إلى سكوثيا . فلما رأى داريوس أنهم قد اختفوا تماما ، ترك حصونه دون أن يتمهمـا ، وعاد متوجهـا إلى الغرب ، ظانا أن السكوثيين الذين رأهم من قبل هم الأمة كلها ، وأنهم هربوا في ذلك الاتجاه . فأسرع في السير ودخل سكوثيا حيث التقى بفصـي الجيش السكوثـي المنضمـين وفـي الحال أخذ في مطاردـتهمـا . فـظلـ السـكـوـثـيـونـ فيـ خـطـطـهـمـ منـ التـقـهـرـ أـمـامـهـ باـسـتـهـارـ ، جـاعـلـينـ المسـافـةـ بيـنـهـمـ وـديـنـهـ مـسـيـرـةـ يـوـمـ وـاحـدـ . فـيـ وـقـتـ طـفـقـ هوـ فـيـهـ يـجـدـ فـيـ مـطـارـدـهـمـ ، وـهـمـ

يقودونه — تبعاً للخطة التي سبق أن وضعوها ؛ إلى بلاد الشعوب التي رفضت محالفتهم فقادوه أولاً إلى أرض الميلانخلانيين . فحدثت فوضى بالغة بين أولئك القوم بسبب غزو السکوثيريين لهم أولاً ، ثم الفرس . وبعد أن أوقع السکوثيريون هؤلاء القوم في حيص بيص ، اتخذوا طريقهم إلى بلاد الأندروفاجيين . فكانت النتيجة مماثلة لما حدث لسابقيهم . ثم واصل السکوثيريون سيرهم مخترقين بلاد النيوريين ، حيث نشر مجئهم الذعر بين السكان كما حدث لغيرهم من قبل . وظلوا هكذا في تقهقرهم حتى بلغوا أرض الإجارثوسين . بيد أن هذا الشعب لما شاهد ماحدث لجيرانه من فرار وفرز ، لم ينتظري حتى يغزو السکوثيريون بلاده ، بل بعث إليهم رسولاً يمنعهم احتياز حدوده ويحذرهم من أنهم إذا حاولوا دخول بلاده ، قاومهم بقوة السلاح . وعندها وقف الإجارثوسيون عند حدودهم للدفاع عنها ضد الغزاة . أما من سبقوهم من الميلانخلانيين والأندروفاجيين والنيوريين ، فبدلًا من الدفاع عن أنفسهم ، عندما دخل السکوثيريون والفرس بلادهم ، نسوا تهديدهم السابق وفروا في فوضى إلى الصحاري الواقعة جهة الشمال . وعندما رفض الإجارثوسيون دخول السکوثيريين إلى بلادهم ، انسحب هؤلاء الآخرون وعادوا أدراجهم ليقودوا الفرس من بلاد النيوريين إلى بلادهم سکوثيريا نفسها .

ظلمت الحال على هذا المنوال مدة طويلة ، وبدا للفرس أن ذلك الزوغان لن ينتهي . وأخيراً أرسل داريوس فارساً إلى إيدانثورسوس ملك سکوثيريا ، بهذه الرسالة : « أيها الرجل الغريب الأطوار ! لم تلجأ إلى دوام الهروب أمامي في حين أن هناك طريقين يمكنك اتخاذ أحدهما في سهولة ؟ فإن كنت تعتبر نفسك قادرًا على صد جيوشى ، فاترك هذا التجوال وتعال إلى ، واشتbulk معنى في معركة . وإن كنت ترى أن قوتك أعظم من قوتك . وحتى في هذه الحال . يجب أن تكف عن الفرار . وجب عليك أن تحضر بعض الشرى والماء إلى مولاك وتأتي للتفاوض » .

فأجاب إيدانثورسوس ملك سکوثيريا على هذه الرسالة بقوله : « هذه هي طريقتى ، أيها الفارسى . لن أخاف قط أى رجل ، ولن أهرب منه . لم يسبق أن فعلت هذا فيما مضى ، كما أنت لا أهرب منك الآن . ما من شيء جديد أو غريب فيما أفعله ؟ بل أسير على نظام حياتي العادى الذى أتبעה فى أيام السلم . والآن ، أخبرك بالسبب الذى من أجله لم ألتجم معك فى معركة . ليس لنا — نحن عشر السکوثيريين — مدن ولا أرض مزروعة تضطرنا — خوفاً من استيلائك عليها أو نهبها — إلى الارتفاع بمقابلتك ومع هذا ، فلو كنت متلهفاً إلى قتالنا بسرعة ، فهناك قبور آبائنا . اذهب

اليهـا أولاً ؟ وحاول أن تستتبك معهم . عندئـد سـوف تـرى ما اذا كـنا سنـقاتـلـك أو لا نـقاتـلـك . فـاذا لم تـفـعـلـ هـذـا ، فـكـنـ عـلـىـ يـقـيـنـ منـ أـنـاـ لـنـ نـلتـحـمـ مـعـكـ فـىـ مـوـقـعـةـ الـاـذـاـ رـاقـ لـنـاـ ذـلـكـ . هـذـاـ هـوـ رـدـىـ عـلـىـ طـلـبـ الـقـتـالـ . أـمـاـ مـنـ حـيـثـ الـمـوـلـىـ ، فـلـاـ أـعـتـرـفـ بـمـوـلـىـ سـوـىـ جـوـفـ سـلـفـىـ ، وـفـيـسـتـاـ الـمـلـكـةـ السـكـوـثـيـةـ السـابـقـةـ . وـأـمـاـ الشـرـىـ وـمـاءـ الـلـذـانـ تـطـلـبـهـمـاـ فـلـنـ أـرـسـلـهـمـاـ لـكـ ، غـيرـ أـنـكـ سـتـتـلـقـىـ مـنـىـ هـدـاـيـاـ أـكـثـرـ مـلاـعـمـةـ لـكـ . وـأـخـيـراـ أـقـولـ لـكـ ، نـظـيرـ تـسـمـيـةـ نـفـسـكـ مـوـلـاـيـ : «ـاـذـهـبـ وـابـكـ» . (ـهـذـاـ هـوـ مـاـ يـعـنـيـهـ النـاسـ بـطـرـيـقـةـ الـكـلـامـ السـكـوـثـيـةـ) . وـهـكـذـاـ عـادـ الرـسـوـلـ يـحـمـلـ هـذـهـ الرـسـالـةـ إـلـىـ دـارـيـوسـ .

فـىـ تـلـكـ الـأـثـنـاءـ ، اـعـتـزـمـتـ الـفـرـقـةـ السـكـوـثـيـةـ التـىـ بـقـيـتـ فـىـ الـبـلـادـ أـلـاـ تـقـوـدـ الـفـرـسـ بـعـدـ ذـلـكـ إـلـىـ هـنـاـ أـوـ إـلـىـ هـنـاكـ ، بـلـ أـخـذـتـ تـهـجـمـ عـلـيـهـمـ كـلـمـاـ جـلـسـوـاـ يـتـنـاـولـونـ طـعـامـهـمـ . كـانـ السـكـوـثـيـوـنـ يـنـتـظـرـوـنـ حـقـ ذـلـكـ الـمـيـعـادـ ثـمـ يـنـقـضـوـنـ عـلـىـ الـفـرـسـ ، تـبـعـاـ لـلـخـطـةـ التـىـ قـرـرـوـهـاـ مـنـ قـبـلـ . وـفـىـ تـلـكـ الـأـغـارـاتـ كـانـتـ الـحـيـوـلـ السـكـوـثـيـةـ تـضـطـرـ الـحـيـوـلـ الـفـارـسـيـةـ إـلـىـ الـفـرـارـ . وـعـنـدـئـذـ لـاـ يـجـدـ فـرـسـانـهـاـ بـدـاـ مـنـ أـنـ يـفـرـوـاـ وـيـلـتـجـئـوـاـ إـلـىـ الـمـشـاـةـ الـذـيـنـ كـانـوـاـ يـهـبـوـنـ لـنـجـدـهـمـ دـائـمـاـ . أـمـاـ السـكـوـثـيـوـنـ فـيـمـعـرـدـ أـنـ يـسـوـقـوـاـ الـحـيـوـلـ ، يـنـسـحـبـوـنـ ثـانـيـةـ خـوـفـاـ مـنـ مـشـاـةـ الـفـرـسـ . كـماـ أـنـهـمـ كـانـوـاـ يـقـومـوـنـ بـمـثـلـ هـذـهـ الـغـارـاتـ لـيـلاـ .

انتـفـعـ الـفـرـسـ بـأـمـرـ غـرـيـبـ ضـدـ السـكـوـثـيـيـنـ فـىـ غـارـاتـ هـؤـلـاءـ الـآـخـيـرـيـنـ عـلـىـ الـمـعـسـكـ الـفـارـسـيـ . أـنـهـ نـهـيـقـ الـحـمـيرـ وـمـنـظـرـ الـبـغـالـ . فـكـماـ لـاحـظـتـ مـنـ قـبـلـ ، لـاـ تـنـتـجـ بـلـادـ السـكـوـثـيـيـنـ حـمـيرـاـ وـلـاـ بـغـالـاـ . وـلـاـ يـوـجـدـ بـهـاـ حـمـارـ وـلـاـ بـغـلـ وـاـحـدـ بـسـبـبـ الـبـرـدـ . فـاـذاـ مـاـ نـهـقـتـ الـحـمـيرـ ، فـزـعـ الـفـرـسـانـ السـكـوـثـيـوـنـ وـفـقـ أـخـلـبـ الـأـحـوـالـ ؛ فـىـ حـيـنـ تـكـوـنـ الـمـعرـكـةـ دـائـرـةـ حـامـيـةـ الـوـاطـيـيـسـ ؛ وـتـسـمـعـ خـيـوـلـ السـكـوـثـيـيـنـ نـهـيـقـ الـحـمـارـ ، تـفـزـعـ وـتـدـوـرـ حـوـلـ نـفـسـهـاـ ، وـتـرـهـفـ آـذـانـهـاـ لـسـمـاعـ ذـلـكـ الـصـوتـ المـنـكـرـ ، لـاـنـهـاـ لـمـ تـسـمـعـ صـوتـ الـحـمـارـ مـنـ قـبـلـ ، وـلـمـ تـرـ صـورـتـهـ قـطـ . وـبـطـبـيـعـةـ الـحـالـ ؛ لـمـ يـكـنـ هـذـاـ عـدـيـمـ الـأـثـرـ عـلـىـ سـيـرـ الـمـعرـكـةـ

لـمـ رـأـيـ السـكـوـثـيـوـنـ فـزـعـ الـفـرـسـ ؟ اـتـخـذـوـاـ بـعـضـ الـاـجـرـاءـاتـ لـخـتـمـهـمـ عـلـىـ عـدـمـ مـغـادـرـةـ سـكـوـثـيـاـ ، أـمـلـاـ فـىـ أـنـ يـلـحـقـوـاـ بـهـمـ ضـرـرـاـ بـلـيـغاـ عـنـدـمـاـ تـنـضـبـ مـئـونـهـمـ . وـلـلـقـيـامـ بـذـلـكـ كـانـوـاـ يـتـرـكـوـنـ بـعـضـ مـاـشـيـتـهـمـ مـعـ الـرـعـاـةـ ، فـىـ حـيـنـ يـنـسـحـبـوـنـ هـمـ أـنـفـسـهـمـ إـلـىـ مـسـافـةـ مـاـ . فـيـهـجـمـ الـفـرـسـ عـلـىـ الـرـعـاـةـ لـسـلـبـ الـمـاشـيـةـ ، وـيـسـتـولـوـنـ عـلـيـهاـ ، وـبـذـاـ تـرـتـفـعـ رـوـحـهـمـ الـمـعـنـوـيـةـ .

فـعـلـ السـكـوـثـيـوـنـ هـذـاـ عـدـةـ مـرـاتـ ، حـتـىـ جـنـ جـتـوـنـ دـارـيـوسـ أـخـيـراـ .

وعند ذاك بعث الرؤساء السكوثيون الذين كانوا يعرفون من أين تؤكل الكتف ، رسولا إلى المعسكس الفارسي يحمل بعض الهدايا للملك ، وهي : عصافور وفار وضفدعه وخمسة سهام . فسأل الفرسن الرسول عن معنى هذه الهدايا . فرد عليهم قائلا : إن الأوامر التي صدرت اليه تقضى عليه بتسليم هذه الهدايا والعودة بأقصى سرعة ، وليس أكثر من هذا . ثم أضاف قائلا : إذا كان الفرس على شيء من الحكمة ، أدركوا معناها بأنفسهم . فلما سمعوا هذا ، عقدوا مجلسا ليتباحثوا في هذا الأمر .

أبدى داريوس رأيه للمجلس يفسر معنى تلك الهدايا ، فقال : إن السكوثيين يريدون تسليم بلادهم له ، برا وبحرا . هذا هو ما استطاع أن يستشفه من معنى هذه الهدايا ؛ لأن الفار يسكن اليابسة ؛ ويأكل الأطعمة نفسها التي يتغذى بها الإنسان في حين أن الضفدع تقضي حياته في الماء . أما العصافور فيشبّه الحصان إلى حد كبير . وتدل السهام على تسليم كل قواتهم ؛ بيد أن جو برياس ؛ أحد السبعة الذين تآمروا ضد المجوسي قام بعارض داريوس في تفسيره ذلك ، قائلا : إن السكوثيين يقصدون بذلك أن يقولوا : «أيها الفرس ، إن لم تتحولوا إلى طيور تحلق في جو السماء ، أو تصيروا فيرانا تحفر أحجارها تحت سطح الأرض ، أو ضفادع تختفي تحت الماء ، فلن تفلتوا من هذه البلاد ، بل ستذلون حتى تفهموا بسباهنا .

أما فرقة السكوثيين الوحيدة التي تركت في أول الحرب لحراسة بالوس مابوتيس ، وأوفدت الآن للتتحدث مع الايونيين الواقفين عند نهر آلايسنتر ، فلما بلغت القنطرة قالت للأيونيين : « يا رجال آليونيا ، سنعطيكم حريتكم إن فعلتم ما نشير به عليكم . نعلم أن داريوس قد أمركم بالبقاء هنا لحراسة الجسر لمدة ستين يوما ليس غير . وسمح لكم إن لم يحضر اليكم قبل ذلك الموعد ؛ بأن تعودوا إلى بلادكم . اذن يجب عليكم أن تفعلوا هكذا لتكونوا بغير لوم أمامنا وأمام داريوس : انتظروا هنا حتى تنقضى المدة التي حددتها لكم ، وبعدها .. انصروا إلى أوطانكم » . فلما وعدهم الايونيون بذلك « عاد السكوثيون بسرعة بالغة .

الفصل الثاني والثلاثون

الأنسحاب من سكوثيا

بعد أن أرسل السكوثيون الهدايا إلى داريوس ، كان دور الجيش السكوثي الذي لم يتحرك إلى نهر الإيسنر ، أن يشتبك ، بفرسانه ومشاته ، في قتال مع الجيش الفارسي . وبذا كانما الجيشان سيلتحمان؛ ما في ذلك شك ، ولكن حدث أن جرت أرباب بين الفريقين . فأسرع السكوثيون الذين أبصرواها بمطاردتها وهم يصيحون ويحدثون فوضى بالغة . فلما سمع داريوس تلك الجلبة استفسر عن سببها فأخبروه بأن السكوثيين قد جروا لصيد أرباب . فاستدار إلى من تعود أن يتحدث إليهم ، وقال : « الحقيقة أن أولئك القوم يحتقرونني كل الاحتقار ، وأرى الآن أن جوبرياتس كان على حق عندما فسر معنى الهدايا . وأذ اتفقنا يوماً في الرأي الآن ، أرى أن نضع خطة حكيمة نضمن بها الأمان أثناء تقهقرنا وعودتنا إلى بلادنا » . فقال جوبرياتس : « نعم ؟ يا مولاي ! كنت على يقين تمام قبل مجبي إلى هنا من أن هذا شعب صعب المراس . ومنذ حضرنا زاد يقيني ، وخصوصاً الآن وقد رأيتهم يلعبون بنا . وعلى هذا فمشورتي هي أنه عندما يخيم الليل ، نوقد النيران كعادتنا في الأيام الماضية ونترك هنا جزءاً قليلاً من جيشتنا ، من الرجال الضعفاء غير القادرين على احتمال المشاق ، كما نترك حميرنا مربوطة إلى مذاودها ، ونتراجع عن سكوثيا قبل أن يسير أعداؤنا إلى نهر الإيسنر ويهدموا الجسر أو يتخدوا الإيونيون قراراً يكون فيه خرابنا » .

هكذا أشار جوبرياتس وعندما أقبل الليل عمل داريوس بنصيحته . فترك جنوده المرضى ومن لا يهتم كثيراً لخسارتهم . وترك معهم الحمير مربوطة في المعسكر ، وعاد أدراجه . ترك الحمير حتى يسمع العدو نهيقها وترك الرجال لأنهم كانوا مرضي وعديم الفائدة ، حتى يظن العدو أنه

يوشك أن يهجم عليه بخبرة رجاله وفي الوقت ذاته لكن يحرس أولئك الرجال معاشره . وبعد أن أعلن داريوس خطته للرجال ، أمر باشغال النيران ، وببدأ سيره حيثا صوب نهر الإيستر . فلما أحست الحمير برحيل الجيش ، أخذت تهق عاليا أكثر مما كانت تفعل في أي وقت مضى . فلما سمع السکوثيون صوتها ، لم يخامرهم أى شك في أن الفرس لا يزالون في مكانهم ذاته .

عندما بزغ فجر اليوم التالي ورأى الرجال الفارسيون الباقيون بالمعسكر ، أن داريوس خدعهم ، رفعوا أيديهم إلى السکوثيين ؛ وتحدونا إليهم بما يناسب موقفهم . فما أن سمع العدو بذلك حتى ضم جميع قواته معا ، كما انضم إليه كل حلفائه من الساورومايتين والجيلونيin والبودينيين وشرعوا يجدون في مطاردة داريوس ، واتجهوا مباشرة نحو نهر إيستر . ولما كان أغلب الجيش الفارسي من المشاة ولا يعلمون شيئا عن الطرق القريبة في تلك البلاد في حين كان السکوثيون كلهم من الفرسان؛ ويعروفون أقصر الطرق . وهكذا حدث أن الجيشين لم يلتقيا . فوصل السکوثيون إلى الجسر قبل أعدائهم . فلما وجدوا أن الفرس لم يصلوا بعد ، خاطبوا الأيونيين الذين كانوا على ظهور سفنهم ، وقالوا : « يا رجال أيونيا ! لقد انتهى موعدكم ، ومن الخطأ أن تبقوا هنا لا شك في أن الخوف هو الذي حجزكم والآن يحق لكم أن تهدموا الجسر وأنتم مطمئنون، وتسرعوا عائدین إلى وطنكم ، وتفروا بنيل حرريتكم ؛ وتشكروا من أجلها الآلهة والسكنوثيين . أما نحن فستنطوي أمر مولاكم وسيدكم السابق . ولن يقاتل أى أحد منكم بعد ذلك » .

عندئذ عقد الأيونيون مجلسا . فقام ملitàدیس الآتيني ملك الخرسانيسيين المقيمين على الهيلسبونت ، ورئيسهم على نهر الإيستر ونصح القواد الآخرين بأن يفعلوا حسب رغبة السکوثيين ويستعيدوا الحرية لأيونيا . غير أن هيستيابوس اليبيسي عارض هذه الفكرة بقوله : « إننا لا ننتمي بعروشنا في مختلف دولنا إلا عن طريق داريوس ، فإذا أطليع بقوته فلن أبقى سيدا على ميليتوس ، ولا تبقى أنت ملكا على مدنك فيما من مدينة منها تفضل الملكية على الديمقراطية » . فلما سمع بقية الرؤساء الذين كانوا على وشك الموافقة على كلام هيستيابوس ، غيروا آراءهم مؤيدين هذه الأخيرة .

وإذا انتزם الرؤساء الأغارقة العمل بنصيحة هيستيابوس ، قرروا فيما بينهم أن يهدوا على السکوثيين ويفعلوا هكذا : أن يتظاهروا بموافقة

السکوئیین . ولکی یرى هؤلاء انهم یهدمون الجسر فی حين أنهم فی الحقيقة لا یعملون شيئاً ذا أهمية . ولکی یمنعوهم فی الوقت ذاته من عبور نهر الایستر بالقوة عن طريق ذلك الجسر ، أن یهدموا الجسر المستند فوق أرض سکوئیا الى مسافة قاب قوسین من ضفة النهر . فقام هیستیا یوس و خاطب السکوئیین ، باسم جميع الاغارقة ، قائلاً . « ما أروع نصيحتکم ، أيها السکوئیون . وحسناً فعلتم بالمجیء اليانا بهذه السرعة فقد أرشدتمونا الى الطريق الصحيح . وهأنتم ترون بعيونکم ، أننا نهدم الجسر . تقوا بأننا سنبدل قصاری جهدنا فی سبيل نیل حریتنا . وفي الوقت نفسه ، الذي ننكب فيه على عملنا ، من واجبکم أن تبحثوا عن الفرس ، من أجلنا ومن أجلکم ، وأن تنتقموا منهم بما یستحقون ! »

وثق السکوئیون بوعود رؤساء الأیونین ، وعادوا أدراجهم أملأ في الالتقاء بالجیش الفارسی . ومع ذلك فلم یعثروا له على أثر . ويقع اللوم في ذلك على الخطوات التي اتخدوها في أول الامر . فلو لم یتلقوا جميع المزاعی ، ولم یردموا جميع الآبار والعيون الموجودة في بلادهم ؛ لسهّل عليهم أن یعثروا على الفرس متى أرادوا . ولكن الذي حدث أن الخطة التي ظنواها حکیمة ، كانت في الواقع سبب اخفااتهم . لقد ساروا في طريق به ماء وكلاً لخيولهم ، وأخذوا یبحثون عن خصوصهم فيه متوقعين منهم أن یتقهقرؤا في ذلك الطريق نفسه الذي يمكن الحصول فيه على هذه الاشياء أما الفرس فساروا في الطريق الذي سلكوه من قبل ؛ ولم یحیدوا عنه أطلاقاً . ورغم هذا ، فقد وصلوا إلى القنطرة بشق الانفس . وكان وصولهم إليها ليلاً . فذعوا غایة الذعر عندما وجدوها مهداً ، اذ ظنوا أن الأیونین قد رحلوا .

كان بجیش داریوس رجل مصری ، صوته أوى من صوت أى رجل آخر في العالم كله . فأمره داریوس بالوقوف عند حافة الماء وأن ینادي هیستیا یوس المیلیسی . فلبی هذا الرجل أمر داریوس ، وسمعه هیستیا یوس من أول نداء . فجاء بالاسطول ليساعد في عبور الجیش ، وأصلح القنطرة من جديد .

بهاتین الوسیلتین هرب الفرس من سکوئیا ، في حين كان أعداؤهم یبحثون عنهم بغير جدوی . ومنذ ذلك الوقت والسکوئیون يعتقدون الأیونین ويقولون عنهم : انهم أندل الناس أحراراً ؛ وألوى الناس عبیداً وأكثرهم تملقاً لسادتهم .

وبعد أن اجتاز داریوس تراقيا، وصل إلى سیستوس في الخیرسوئیت،

حيث عبره الى آسيا بمساعدة أسطوله ، تاركا ميجابوزوس الفارسي ليحكم الجانب الأوروبي . هذا هو الرجل الذى كرمه داريوس أمام جميع الفارسيين تكريما عظيما ٠٠٠ وكان داريوس يوشك أن يأكل بعض الرمان . فلما كسر أول رمانة سأله أخوه أرتabanوس : « ما الذى تريده بكثرة حب الرمان ؟ » . فقال : « أن يكون لدى بعدد حبوب الرمان من أمثال ميجابوزوس . فهذا يسرنى أكثر من أن أكون ملكا على بلاد الاغريق » . هذا هو الاطراء الذى كرم به داريوس ذلك القائد الذى عهد اليه برياسة القوات التى تركها فى أوربا ، ويبلغ عددها حوالي ثمانين ألف رجل .

(تم الكتاب)

فهرس

| الموضوع | الصفحة |
|---------------------------------|--------|
| مقدمة المؤلف | ٣ |
| تمهيد | ٥ |
| هيرودوت | ١٣ |
| الفصل الأول | |
| أسطورة أيووجوجيس | ١٥ |
| الفصل الثاني | |
| أسطورة أريون | ٢٠ |
| الفصل الثالث | |
| أسطورة سولون | ٢٢ |
| الفصل الرابع | |
| قصة أدراستوس | ٢٧ |
| الفصل الخامس | |
| كرويوس | ٣١ |
| الفصل السادس | |
| أسطورة كوروس | ٤٤ |
| الفصل السابع | |
| الفرس | ٥٩ |
| الفصل الثامن | |
| ثورة سارديس | ٦٣ |
| الفصل التاسع | |
| بابل | ٦٦ |

| | |
|-----------------|------------------------------|
| الصفحة | الموضوع |
| | الفصل العاشر |
| ٧٢ | سقوط بابل .. |
| | الفصل الحادى عشر |
| ٧٨ | مصر .. |
| | الفصل الثانى عشر |
| ٨٢ | العادات المصرية |
| | الفصل الثالث عشر |
| ٨٤ | حيوانات مصر .. |
| | الفصل الرابع عشر |
| ٨٨ | التقاليد المصرية |
| | الفصل الخامس عشر |
| ٩٤ | بعض ملوك مصر .. |
| | الفصل السادس عشر |
| ٩٩ | قصة رامسيسينتوس |
| | الفصل السابع عشر |
| ١٠٣ | الأهرامات .. |
| | الفصل الثامن عشر |
| ١٠٧ | بعض الأساطير المصرية .. |
| | الفصل التاسع عشر |
| ١١٣ | قمبيز .. |
| | الفصل العشرون |
| ١١٩ | أعمال قمبيز .. |
| | الفصل الحادى والعشرون |
| ١٢٧ | جنون قمبيز .. |
| | الفصل الثانى والعشرون |
| ١٣١ | أسطورة بوليفراط .. |

| الصفحة | الموضوع |
|-----------------|--------------------------------|
| | الفصل الثالث والعشرون |
| ١٣٤ | وفاة قمبير .. |
| | الفصل الرابع والعشرون |
| ١٣٧ | كيف ارتقى داريوس الى العرش .. |
| | الفصل الخامس والعشرون |
| ١٤٧ | بعض قصص غريبة .. |
| | الفصل السادس والعشرون |
| ١٥١ | داريوس .. |
| | الفصل السابع والعشرون |
| ١٥٧ | ثورة بابل .. |
| | الفصل الثامن والعشرون |
| ١٦٢ | عادات السكوثيين .. |
| | الفصل التاسع والعشرون |
| ١٦٧ | داريوس يغزو سكوثيا .. |
| | الفصل الثلاثون |
| ١٧١ | القبائل السكوثية .. |
| | الفصل العحادي والثلاثون |
| ١٧٦ | الحملة السكوثية .. |
| | الفصل الثاني والثلاثون |
| ١٨٠ | الانسحاب من سكوثيا .. |



الدار القومية للطباعة والنشر

(فرع الساحل)

الدار القومية للطباعة والتغزو

العدد ٧٥
الثمن ٢١ قرشاً



Bibliotheca Alexandrina



٠٢٢٢٦٦٩

To: www.al-mostafa.com